فى العقائد والأديان

الديانات الكبرى المعاصرة

بقلم

الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة وتقـديم

المكتبة العربية فى طورها الحديث غنية بالمؤلفات التى كتبها رجال الدين ، فى موضوعات تتصل بما يعتنق الناس فى بلادنا من مذاهب دينية، غنية بالمؤلفات التى تصور لهم رأى العقيدة التى بها يدينون فى هذا الموضوع أو ذاك وفيما يمس حياتهم العملية تبين الاتجاه الدينى الذى يراه هؤلاء المؤلفون ومنطق المذهب الدينى فى نظرهـم ، كى يتجه الاتباع الى أسلوب الدين وما يراه ، ومن ثم فانها مؤلفات بيئية ــ ان صح هذا التعبير ، دعت اليها حاجة عملية أحسها رجال الدين ، أو رغبة فى اتساق الحياة مع الوجدان الدينى . فالمكتبة العربية الحديثة بوضعها هذا تزخر بمؤلفات تسد حاجة النـــاس الوجدانيـــــة ، وتروى تطلع الراغبين فى حيـــاة يرعاها الدين ، ومن الحق أن نذكر أن من بين هذه المؤلفات أو الدراسات التى كتبها باحثون فى موضوعات دينية ما تعتز به الثقافة ، ولكنها فقيرة فى مجالات الدراسات الدينية الجامعة . ويبدو لى أن هذا القصر للثقافـة الدينية كان نتيجة طبيعية لأثر البيئات الدينية التى تعيش فيها الجماعات فى بلادنا ، ترتب على الكيان الدينى المغلق ، ومن هنا فتر الحافز الذى يغرى المرء أن يمد عينيه الى غير ما يؤمن به ، فكان من ذلك أن عاش مطمئنا الى الوراثة الدينية ، التى ولدت فيه احساسا أن يعيش كما عاش آباؤه من قبل ، وهذا الاحساس بدوره غذته عزلة فكرية بين البيئـات الدينية المختلفة .

ومهما يكن السبب فى فقر المكتبة العربية الحديثة فى الدراسات الدينية الشاملة فانها شهدت القرون الأربعة ـ الثالث والرابع والخامس والسادس من الهجرة ـ تتصارع فيها المذاهب والعقائد والأديان ، صراعا أثرت من وراثه الثقافة ثراء يصور تطور الفكر الانسانى من ناحية ،ويشهد لأصحاب المؤلفات فى هذه القرون بالعمق وسعة الأفق والسعى وراء الكليات والجزئيات ، كما نرى ذلك واضحا عند المسعودى والبيرونى وابن حزم الأندلسى والشهرستانى ، وعند غيرهم ممن لم ينالوا شهرة هؤلاء فى هذا المجال ، ولم يقتصر التأليف على المتخصصين فجاء على أثرهم الجامعون والمؤرخون فسجلوا هذا التراث الانسانى الجليل • ومن الملاحظ أن الصراع الدينى فى هذه الفترة من تاريخ البشرية كان ثمرة عصبية دينية ، ولكنها تختلف اختلافا واضحا عن عصبية القرون المتأخرة ، كانت عصبية القرون الوسطى الدينية فى العالم الاسلامى سلاحها الحجة وعمادها الاقناع وهدفها كشف الهواتف الدينية والتصور الانسانى ، بخلاف العصبية الدينية المتأخرة التى فاجأتها الحضارة الحديثة فى القرن العشرين، كانت متقوقعة تضرب حول نفسها سياجا لا يبيح لغير الفكر الدينى البيئى أن ينفذ أو تراه العيون ، وكان هذا نتيجة محتومة للظلام الذى أطبق على العقل وحال بين البصيرة والابصار •

وها نحن أولاء نعيش فى عصر جديد انمحى فيه صراع العقائد والأديان ، وأخذت العصبية الدينية فيه فى الذبول شيئا فشيئا ، ومصيرها حتما الى زوال عاجل ، ذلك لأن الحياة التى نعيشها تطورت من أعماقها ، نتيجة تغير قواعد الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وأخذنا بأسباب حضارة وفكر يباينان حضارة وفكر أسلافنا ، وليس معنى هذا أننا طرحنا عقائدنا الدينية وراء ظهورنا ، وانما معناه أننا أخذنا ننظر الى الدين ـ أيا كانت قواعده ـ نظرة تتسم بالسماحة ورحابة الأفق ، نظرة برئت ـ أو يجب أن تكون بريئة ـ من أى التهابات عصبية دينية أو مذهبية • وهذا الجو البعيد عن المشاحنات الدينية هو الذى فيه تزدهر الدراسات الدينية ، التى تنبع من قلب سليم من دواعى التعصب ، مؤمن بالبحث الحر النزيه •

وهذا النظر المتسم بالتسامح هو آية العصر الحديث ، هو مظهر أى أمة تريد أن تعيش صديقة لغيرها من الأمم ، وتود أن تتشابك معها فى المصالح والأخذ والعطاء فكريا وماديا ، وهو أيضا أساس لا غنى عنه للباحث الحديث فى الدراسات الدينية المختلفة ، تلك الدراسات التى تعد

الدعامة التى يقوم عليها علم الأديان ، ذلك العلم الذى يوقفنا على أسس تطور الفكر الدينى فى الحياة البشرية ، ومن حسن الحظ أنه أتيح لهذه الدراسات الدينية على اختلاف نواحيها دارسون أفذاذ ، وهبوا أنفسهم فى سبيلها ، وأخرجوا للفكر البشرى دراسات وأبحاثا فذة ، أبحاثا ودراسات لا أقول انها برئت من العيوب المنهجية ، ولكنها بكل تأكيد تقوم على الأمانة العلمية والجهد الدائب كما أنها موجهة ونافعة وأصول لدراسات أعمق ، ولعل أعظم ما جنت الثقافة من ورائها أنها كانت سببا فى عناية الجامعات بعلم الأديان ، فانتقلت الأبحاث فيه من دور الهواية الى مجال التخصص والعمق ٠

ولا يفوتنى أن ألفت النظر الى خصيصة فى هذه الدراسات العلمية، هى أن الباحث فى الدراسات الدينية الشاملة وان كان واسع الثقافة الا أنه لا يعرف كل اللغات ، ومن هنا لابد له أن يعتمد على ترجمات ، وأمانته العلمية فرضت عليه أن يعين الترجمة التى اعتمد عليها ، ومن هنا أيضا لا تخلو هذه الدراسات من أخطاء ، خذ مثلا فى ذلك ما يكتب فى الاسلام ، فالترجمات للقرآن نوعان ، اما ترجمات قامت على سوء النية وهذه قديمة ، واما ترجمات ثمرة الجهل بأساليب القرآن أو سوء الفهم ، فمثل هذه الترجمات المشوهة لابد أن يكون لها أثرها فى توجيه الباحث، وهى مؤدية حتما الى أخطاء ، ومن ثم يتحتم علينا أولا تفسير القرآن تفسيرا حديثا يتلاءم مع التنزيل ، وثانيا ترجمة هذا التفسير ترجمة دقيقة ولو الى لغة أجنبية واحدة ، لأن التفاسير القديمة لا تصلح فى رأيى أساسا لترجمات دقيقة الى اللغات الأجنبية ٠

والقاعدة الأساسية فى علم الأديان أن يعتمد الكاتب على النصوص الموثقة ، والمراد بذلك أن تؤخذ من الكتب المقدسة أو مما يماثلها فى القداسة من كتابات أو آثار منقوشة ، وعلى ذلك فان الكتابات العلمية فى الدراسات الدينية المبرأة من الهوى تعتمد على هذا المنهج العلمى ، وهذا ما أخذت نفسى به فى هذا الكتاب ، الذى يعرض العقيدة من منابعها الأصيلة ، مأخوذة من مترجمات لا تزال مرجع العلماء ٠ ومع أننى فرضت نزاهة العرض فى هذا الكتاب الا أنى ظللت أمسك به مخطوطا أكثر من خمس سنوات ، لا لأنى كنت أتهيب من ظهوره ولكنى أبقيته موضع النظر والاضافة أو الحذف أو التصحيح ، وظل هذا الكتاب مخطوطا رغما من أن أستاذى المرحوم أمين الخولى قد رضى عنه ، وحثنى على دفعه الى

المطبعة ، وها هو ذا الكتاب أخيرا بين يديك أيها القارىء يشهد بالمجهود السخى المبذول فيه ٠

أما الموضوعات التى تضمنها فانها تعنى بصورة الاله فى المعقدات وتبدأ بالعقائد التى اصطلح العلماء على تسميتها بالبدائية ، وقد وصفت بذلك لأنها تعتمد أساسيا ومظهريا على السحر ، ثم يأتى بعد ذلك الفصل الثانى متضمنا عقائد الأمم القديمة فى التاريخ ، ثم يختتم الكتاب بفصل يتحدث عن الأديان العالمية الكبرى ، وهى اليهودية والمسيحية والاسلام ٠ فتبويب الكتاب يقوم على أساس الزمن ، اذ البداية بالعقائد البدائية أمر طبيعى ، لأن الانسان عرفها فى بداوته فى عصر لا يعيه التاريخ المدون ، وظلت معه تنتقل من مكان الى مكان وتتطور مع البيئة والعقل البشرى الى زمننا هذا ، والتثنية بعقائد الأمم القديمة يبين صور العقل الانسانى وهواتف وجدانه ، والخاتمة شملت الأديان الكبرى التى تسيطر الآن على معظم الناس فى الأرض ٠ وجدير بالذكر أننى أهملت ذكر بعض العقائد ، لا غضا من شأنها ولكنها لم تكن وليست فى حقيقة الأمر الا عقائد موقوتة ، عاشت زمنا ثم بادت أو انتقلت وتغير مظهرها أو ظلت كما هى ولكن لم يكتب لها البقاء أو النفوذ ، بالاضافة الى أن الأمم التى عاشت هذه العقائد فى قلوب بعض أبنائها لا تعدها مظهرا لها أو منسوبة لها ، وكتاب عام مثل هذا لا يحتمل المذاهب أو العقائد الجانبية قصيرة العمر ، وان كانت عنها اشارة فهى لمحة البرق أو نظرة خاطفة ٠

ويسعدنى أن أختم هذه المقدمة بالقول بأننى بذلت فيه جهدى ، وأديت فيه واجبى كما فهمته من المناهج العلمية ، فان أدى رسالته على نحو ما أبتغى ، فنعما ما قمت به برجاء النفع الدائم ، وان جاء على غير ما كنت أرجو ، فقد أردت الخير والله ولى التوفيق ؟

رجب سنة ١٣٩١ هـ
سبتمبر سنة ١٩٧١ م

محمد جابر الحينى

الفصل الأول

العقائد البدائية

أشار القرآن الكريم الى ديانات عريقة فى القدم ، اعتنقها الانسان فى أزمان لا يعيها تاريخ ، ولا تدركها معرفتنا الانسـانية ، ولقـد دلت الآثار على تأييد ما أشار اليه القرآن ٠ وهذه الديانات والعقائد القديمة ذهبت مع الزمن الغابر ، واندثرت باندثار أصحابها ، ولكن هذه الديانات ـ كما يؤخذ من اشارة القرآن اليها ـ لا يمكن أن توصف بأنها بدائية بالمعنى المصطلح عليه علميا ، ذلك لأنه يفهم من الاشارة اليها أنها وصلت الى الناس عن طريق الوحى ، أى عن طريق الأنبياء والرسل ، فهى بذلك تبرأ من وصفها بالبـدائية ، التى هى ثمرة من ثمار الوهم والتصـور الانسـانى ٠

ونحن حين نصف عقيدة من العقائد انها بدائية ، ننظر الى أمرين لا بد أن يتحققا فيها ، أول هذين الأمرين انها ليست من وحى السماء ، أى أنها فى أصولها ليست منزلة ، وأن تغيرها أو اختلاطها بعقائد أخرى لا يجعلها بدائية ما دامت أصلا منزلة ٠ أما الأمر الثانى فيكون السحر والرقص الدينى من عناصرها ، هذان الأمران يميزان العقيـدة البدائية بغض النظر عن الزمن الذى عاشت فيه ، والزمن ليس شرطا فى وصف العقيدة بالبدائية ، لانها لا تستقل بزمن بعينه دون زمن آخر ، ذلك لانه قبل المسـيح بآلاف السنين كانت تعيش عقـائد بدائية فى الشرق وفى اليـونان ، فى الشرق قبل ظهور الديانات الراقيـة التى سنتحدث عن

بعضها فى الفصل القادم ، وفى اليونان قبل تطورها العقلى الرائع ، كما أنها وجدت بعد ميلاد المسيح فى رومة مثلا بقرنين على الأقل ، كما نلاحظ ذلك فى عقيدة الأرفال ، والعقائد البدائية لا تزال توجـــد فى عصرنا الحاضر ، متمثلة فى عقـائد الافريقيين الذين يعيشـــون فى قلب قارة افريقيـا ٠

ونحن حين نعرض هذه العقائد البدائية نعتمد على دراسات الباحثين، الذين تعنيهم الدراسة العلمية لبيان عناصر وأسس العقيدة البدائية ، ومن حسن الحظ ان لدينـا من هـذه الدراسات ما يملأ النفس اعجـابا بأصحابها ، الذين تجشموا فى سبيلها مشقات ومجهودات مضنية ، وهى أبحاث أو دراسات ذات خطر عظيم ، يستطيع القارىء أن يرجع اليهـا باللغتين الانجليزية والفرنسية ، وستبين له أنه رغم هـذه الدراسات الرائعة فهناك مجال لمجهودات جديدة ، لاستكشاف ما غمض وعمى على الباحثين ٠ ومهما يكن من أمر فان النظرة الشاملة لهذه الدراسات تهدى الى أن لدينا من العقائد البدائية مظهرين ، المظهر الأول وهو مايطلق عليه التراتيل البدائية ، أما الثانى فهو تصوير العلاقة بين الانسان والطبيعة أو الكون ٠

(أ) التراتيل البدائية

لما كانت حياة الناس تتعرض دائما لشهوات النفس ونزعات الهوى ترتب على ذلك أن أخذت حياتهم تتعقد شيئا فشيئا ، ثم أخذت تتعرض للون من الفوضى يحتـاج الى ضبط وتبصير ، وهـذا ما أتاح للديانات والعقائد أن تعمل ، مبصرة الانسان الى ما ينفعه فى حياته ، مبينة له طريق الخير من طريق الشر ، بالمنطق الذى يتفق ولون تفكيره ، والذى يتلاءم وظروف حياته وبيئته ، والذى يتسق ومطلبه فى الحاضر والمستقبل، ولهذه العقائد تعاليم كانت تنتقل أول الأمر بطريق الرواية الشفوية ، لأن حياة الناس كانت آنئذ من البساطة والسذاجة بحيث لا تحتـاج الى تدوين أو تسجيل ، ثم تطلبت الحياة من الانسان أن يسجل ويدون ، فدون من العقائد أشياء كان الانسان يحرص على تدوينها لما لها من أهمية لديه ٠

هذه الفترة القديمة فى تاريخ الانسان لا بد انهـــا عرفت التراتيل الدينية ، لان التراتيل ــ بالمعنى الواسع ــ مظهر من مظاهر الدين ، فعلى

أى نحو كانت هذه التراتيل ؟ سؤال ليس من اليسير أن نصل الى جواب مقنع عنه ، ذلك لأنه لم تصل الينا تراتيل منسوبة الى هذا الماضى العريق فى القدم ، ولكن وان فاتنا هذا فانه من الممكن أن نتصورها • من البدهى ان كان للناس أصوات ذات معان ، وأن من بين هذه الأصوات ذات المعانى قطعا موضـوعة ذات دلالات دينية ، وأما ماذا تعنى هذه الأصوات ذات الدلالة الدينيـة فأمر مضى به الزمن ، محتفظا بأسراره ومبقيا عليه بين أحضان الماضى السحيق فى القدم ، ذلك الماضى الذى تقصر مناهجنا الى اليوم عن أن تنفذ اليه وتستشف أسراره •

ولكن وان كنا لا نعرف هذه الأصوات الدينية ذات المعانى ، فى هذه الفترة لا بد أن تطورت فيها الحياة واستلزمت من الدين أن يعالج مشاكلها ، فاننا نستطيع أن نتصور النحو الذى كانت عليه ، نستطيع أن نتصورها قياسا على هذه التنغيمات الدينية ، التى يؤديها قوم فى بعض مناطق من هذا العالم الذى نعيش فيه ، والتى تبدو فى صورة من البساطة والسذاجة تخيلان لنا كأن لم يمسها تطور ، أو كأنها على مثال تنغيمات الماضى القديم •

لدينا من هذه التنغيمات قطع نسى أصحابها أو مرتلوها بوجه أصح معانيها ، وهؤلاء المرتلون لها لا يزالون على الفطرة ، فدلت بذلك على انها بدائية ، أضف الى ذلك ان تنغيماتها تصور ان لم يمسسها تطور ، ولكنها رغم هذا المظهر تقوم على أسس أدبية ، تجعلنا نتوقف عن التسليم بقدمها العريق وببدائيتها ، ذلك لأنها تقوم على أسس أدبية تميزها من ناحية الصياغة ، هذه الأسس تصور أن مؤلفها ذو قدرة أدبية جعلته ينفق فيها من الجهد الفنى حتى بدت على هذا الوجه الأدبى ، وهذا لا يتأتى الا بالتأنق والتجويد ، ذلك لان المؤلف أنفق جهده الفنى فى اخراج المقاطع منسجمة مع العناية بالمطابقة والوزن والتقسـيم الى وحدات شعرية ، وهـذا كله ربما يبعدها عن البدائية ، ولـكن من الاسراف التصور أن هذه الأسس الأدبية وحدها كافية لأن تنفى عنها البدائية ، لأن هذه التنغيمات ظهرت فى عصر هو على الأرجح متطور ، ولكنه قديم ، وأنه من الممكن فى ظل هذا التطور الوصول الى هذه الأسس الأدبية ، لأنها محاكاة للطبيعة كما سترى ، ومن الاسراف أن نخلى البدائيين من قوة الملاحظة ، وأن نجردهم من الفطرة الانسانية التى تكمن فيها القدرة الفنية ، فاذا سلمنا بهاتين الظاهرتين ــ وهما ظاهرتا الوضوح فى الافريقيين الذين نجمع على أنهم بدائيون ــ أمكن النظر الى أن هذه المظاهر الأدبية لا تنفى بدائيتها ، ومن

ثم لا تنفى قدمها الذى يجهل أصحابها مداه ، فاذا أضفنا الى هذا كله أن الانسان فى العصر القديم ، الذى كان يعتمد على الرواية الشفوية ويؤثرها على التدوين ، كان مضطرا الى ابتكار وسيلة تضمن للتراتيل يسر التداول والحفظ والبقاء أطول مدة ممكنة ، ولم يكن أمامه سوى الأدب الذى كان خادم الدين ليبتكر فيه الوسيلة ، فجاء بهذه الأسس الأدبية مستوحيا اياها من الطبيعة فى هذه التنغيمات الدينية ، التى نقدم مثالا منها فيما بعد ٠

ولكنا لا نستطيع أن نقدم المثال دون أن تكون الأمور كلها واضحة أمامنا ذلك لأن أمامنا نقطة أخرى لا تقل أهمية عن النقطة السابقة ، وهى أننا اذا نظرنا الى هذه الوحدات التى تؤلف تنغيمة ، والتى نجهل معانيها ويجهل معنا مرتلوها هذه المعانى ، هل يمكن القول بأن أية وحدة من هذه الوحدات ما هى الا حروف مركبة لا معنى لها ، ابتكرت لتؤدى أنغاما معينة كما ابتكرت الوحدات الموسيقية لتصور انفعالات أو آمالا أو مشاعر تنازعت قلب الانسان ؟ ان الجواب على هذا التساؤل لا يحتاج الى تردد أو تفكير ، لأن الجواب بالنفى القاطع ، ذلك لأن الأغانى الدينية ـ ومثلهامثل هذه التنغيمات أو التراتيل بتعبير أوضح ـ هى مظهر من مظاهر شعائرهم الدينية ، وهى ذات سلطان عظيم على نفوس مرتليها سلطان يختلف عن التأثير الموسيقى ، سلطان يحفز الجماعة منهم لترتيلها معا ، كما تحفز التراتيل الدينية المعروفة لنا الجمع لترديدها ، هذا ملحظ واضح الدلالة فى هذه التراتيل أو التنغيمات ، والى جانبه ملحظ آخر لا يدع مجالا للشك فى أمرها أنها تراتيل دينية ، ذلك آنها تؤدى لغرض أو مطلب من مطالب الحياة يرجو المرء أن يصل اليه كالاستسقاء مثلا ٠

وقد نقل لنا سير بولدوين سبنسر (Sir Baldwin Spencer) أغنية من هذه الأغانى ، أو تنغيمة من هذه التنغيمات أو التراتيل البدائية، وهى تشبه أغانى الأطفال ، كان يرتلها زنوج استراليا ، يتوسلون بها مبتهلين نزول المطر ٠ ومن الواضح أن سير بولدوين لم يعرف معناها ، لانه لم يذكر تفسيرها ولم يحاول شرحها ، ومن المؤكد أيضا أن هؤلاء الزنوج المرتلين لها لم يكونوا يعرفون معانيها ، لانهم لو كانوا يعرفون المعنى لوصل اليه سير بولدوين ، ولانه عرف المناسبة التى تبتغى لها هذه التراتيل منهم ، وهى طلب نزول المطر ، وعلى ذلك يمكن القول ان كل وحدة من هذه الوحدات ، أو قل اللفظ فى بيت الشعر قد احتفظ بسره ومعناه ، لأنه ينتسب الى لغة ماتت واندثرت وانقرض الذين كانوا

يعرفونها ، وهـذه الجهـالة للمعاني هى التى يعتمد عليها البـاحثون فى اثبات قدم الترتيلة ، بالاضافة الى احساس مرتليها واتخاذها شعيرة من شعائرهم الدينية ٠

أما هـــذه الترتيلة أو الأغنية أو التنغيمة فهى ترتل ابتغـاء نزول المطر ، ويرتلها هؤلاء الزنوج البدائيون على أصوات عصى مقوسة كالقسى تضرب بعضها ببعض ، فتصدر أصـواتا كأصوات زقزقة العصـافير التى نسمعها قبل سقوط المطر :

Dad a da da	داد أ دا دا
Dad a da da	داد أ دا دا
Dad a da da	داد أ دا دا
Da Kata Kai	دا كتا كاى
Ded o ded o	دد أ دد أ
Ded o ded o	دد أ دد أ
Ded o ded o	دد أ دد أ
Da Kata Kai	دا كتا كاى

ويجب أن نفرق بين هذه الترتيلة وأمثالها وبين هذه التراتيل التى يترنم بها قوم بدائيون تأثروا بالمسيحية ، تأثروا بالتبشير المسيحى الذى يعمل فى ظل الاستعمار الأوروبى ، ونحن لا نقول ان هذا التأثير نفذ الى قلوبهم وانما نعنى أنهم تأثروا به فأخضعوا التعاليم المسيحية ، أو بمعنى أدق أخذوا منه ما يمكن أن يخضع لعقائدهم ، كما نرى ذلك واضحا جليا عند الافريقيين الذين يسيطر عليهم الاستعمار البريطانى أو الفرنسى ، ومن هذا الباب هذه الترتيلة التى نقلها هيلر (Heiler) وينكر بوكيه تأثرها بالمســـيحية ، والتى نسبهـــا الى قبيلة خواخـوا (Khoikhoi) وانكار بوكيه تأثرها بالمسيحية يهدف من ورائه الى غرض دينى لا يخفى على الباحث ، يريد به أن اطلاق لفظ أبينا على الاله انما هو عقيدة متخلفة من قديم ، ورثتهـا الأجيال جيلا بعـد جيل ، وأنها عقيدة تهـدى اليها البصيرة ، ويقبلها العقل منذ الأزل ٠ على أية حال لا يعنينا هنا انكار بوكيه ، وانما تعنينا المقارنة بين الترتيلة السابقة ، التى تقطع كل الأدلة على قدمها وبدائيتها ، وبين هذه الترتيلة التى نقلها هيلر ، والتى نجد لها نظائر كثيرة عند الافريقيين البدائيين الذين تأثروا بالتبشير المسيحى

تأثيرا سطحيا ، وهذه الترتيلة تلتمس لنفس المناسبة وهى الدعوة لانزال المطر وفيها يسمى الاله تسيجوه (Tsuigoa) .

انت يا تسيجوه
انت أب الآباء
انت أبونا

*

دع السحاب المرعد ينهمر
دع قطعاننا تعيش
دعنا نعيش

*

حقا اننى ضعيف
بالجوع وبالعطش
الا بالفاكهة الأرض أطعم

*

ألست انت أبانا
أب الآباء
انت يا تسيجوه

*

ألا هذا حتى نسبح لك
ألا هذا حتى نسعى اليك
أنت أب الآباء
أنت أيها الاله
انت يا تسيجوه

وســـواء أكانت هذه الترتيلة متأثرة بالمسيحية ـ وهو الظاهر الأرجح ـ أم غير متأثرة بها فانها حديثة ، وهى متأثرة بالمسيحية لانهـا تصور الاله على صورة ما من صور التجسيد ، وهذا التجسيد للاله نلحظه على درجات مختلفة فى هذه الأدعية التى يرتلها قوم بدائيون نفـذ اليهم

التبشير المسيحى ، وهو مختلف الألوان وفقا للبعثة التبشيرية ومذهبها الدينى . ويجب أن نفرق بين هذا اللون من الأدعية وبين الأدعية البسيطة الساذجة ، التى لم تتأثر بعقائد المستعمرين كترتيلة زنوج استراليا التى ذكرناها ، والتى تبتهل الى كائن خفى قادر .

هذا التراتيل البدائية الساذجة تختلف فى القصر وفى الطول ، كما تختلف أيضا فى المقاطع ، ونستطيع أن نتمثل هذا من الأمثلة الآتية. فنحن نلاحظ أن قبيلة تشنشس (Chenchus) ، وهى قبيلة تعيش فى غابات مقاطعة حيدر آباد بالهند ، بعد أن يظفروا بصيد حيوان ، يأخذون منه قطعة صغيرة من خلف ساقه أو من كبده ، ثم يشوونها فى النار ثم يقذفونها فى الغابة وهم يترنمون :

أمنا ، اننا نأكل ، وأنت تأكلين Memu, tinturam, niwa tinu

وربما كانت هذه الأنشودة الدينية أصغر أنشودة نعرفها ، ولكن لهذه القبيلة أدعية أطول من ذلك ، ذلك لأنهم بعد عودتهم الى ديارهم من رحلة الصيد يأخذون فى الانشاد :

أمنا ، لولا تأييدك لنا ما كنا نحصل على شىء ، فاليك اذن نقول شكرا لك .

ومن هذه الأدعية القصيرة ما ينقله لنا هيلر عن الهنود الأمريكيين ، وهو من الأمثلة المناسبة للمقارنة :

أيها الروح الطيب ، هب لنا جاموسا ، جاموسا ، جاموسا ، جاموسا سمينا ، هبه لنا ، أيها الروح الطيب .

ومن الأمثلة أيضا للأدعية القصيرة ، ذلك الدعاء الموجه الى زيوس (Zeus) ويقول الباحثون ان هذا الدعاء فى صورته كأنه وضع ليلحن ويغنى :

المطر ، المطر ، يا زيوس العزيز ، فليتدفق على حقول القمح ، حقول الأثينيين .

واذا كان من المظنون أن هذه الأدعية البدائية الساذجة وضعت ليترنم بها المترنمون ، بدليل أن هؤلاء البدائيين يترنمون بالأدعية والأناشيد الدينية ، فان الأحوط القول ان ما كان ملائما للتنغيم فانه وحده الذى كان يغنى ، وربما صاحب الغناء اللعب على أداة تصدر أصواتا

موسيقية ، كهذه القسي المقوسة التي يضرب بها زنوج استراليا ، ونستطيع أن نرجح ذلك أيضا قياسا على ما كان الترتيل في مصر القديمة ، ذلك الترتيل الذي ظل الى العصر المسيحي في مصر يؤدي مصاحبا لآلة موسيقية تحدث جرسا كالرنين ، ومن المرجح أيضا أن المترنمين البدائيين كانوا ينشدون تراتيلهم لا ليثيروا انتباه الكائن الأعظم فحسب ، ولكن ليبينوا له ما يبتغون منه أيضا .

ننتقل بعد ذلك الى لونين من ألوان التراتيل البدائية ، احدهما يؤدي على الطبول يلتمس به رضا الاله ، وهذا اللون من التراتيل معروف في غرب افريقية ، ويبدو أن اتخاذ الطبل بدلا من الآلة الموسيقية أمر يتفق وما مهر فيه هؤلاء الافريقيون ، ذلك لأنهم يستعيضون عن الأصوات الفمية بدقات الطبول ، وهم بهذه الوسيلة يتراسلون ويذيعون ما يراد اذاعته من أخبار ، وعلى الرغم انها طريقة بدائية الا أنها أذهلت الأوروبيين بسرعة أدائها وقدرتها السريعة في اذاعة الأخبار ، ومهما يكن شأنها فان هذه الوسيلة هي السبيل لاتصالهم بالكائن الأعلى . ولقد نقل لنا الكابتن راترای (Captain Rattray) احدى التراتيل التي تنشد على دقات الطبول ، وهي الترتيلة الآتية :

السماء عريضة ، عريضة ، عريضة
والأرض واسعة ، واسعة ، واسعة
احداهما رفعت الى أعلى
والأخرى وضعت تحت ،
في الأزمان القديمة ، منذ زمن سحيق سحيق .
رب السماء السامي ، الذي عليه يعتمد الناس ولا يفشلون ،
نصلي لك .
عندما يهب اله السماء شيئا ،
فاننا ننتفع به
اذا سألناه الأبيض أعطانا ،
اذا سألناه الأحمر أعطانا ،
هو الذي عليه نعتمد ولا نخيب ،
أيها الرب عم صباحا .

الطيور تغرد فى الصباح ،
استيقظت الطير وصاحت ،
فى الصباح الباكر ،
انها تنادينى وسأستجيب لها ٠

***

ومن الملاحظ فى هــذه الترتيلة أن الأسلوب فيهـــا يتغير بتغير المتحدث ، فالمتحدث فيها اما بصيغة المفرد واما بصيغة الجمع ، والأسلوب فيها مرة بصيغة الغائب ومرة أخرى بصيغة المتكلم ، وورودها على هــذه الصورة يذكرنا ببعض المزامير العبرية ، والناظر الى هذه الترتيلة يستطيع أن يقول ان الأبيات السبعة الأولى موجهة من المرتلين الى اله السماء ، وهذه الأبيات تنتهى بالبيت القائل (نصلى لك ٠) ، أما الأبيات الأربعة التى تليها فيمكن تصورها على انها موجودة لتصدر عن الكاهن أو رائد الحفل الدينى أو حامل الطبل ، لتوجه الى المرتلين ، ثم يتغير الأسلوب مرة أخرى فى البيتين التاليين ، فنجد القول يتجه الى الرب من المرتلين وتبدو الأبيات الأربعة الأخيرة أنها صادرة على لسان الرب ، أى انها اجابته على توسلاتهم اليه ، وعلى هذا التصوير يمكن النظر الى هذه الترتيلة على انها حوار بين أطراف ثلاثة ، هم المرتلون والكاهن والرب ، فاذا صح هــذا النظر وهو على الأرجح صحيح كما يدل على ذلك الأسلوب ـ فان هــذه الترتيلة كانت أول أمرها ذات ثلاثة أجـزاء ، وبمرور الزمن فقدت هذا الطابع للجهل بأصلها الأول ، وارتبطت هذه الأجزاء جميعا كانها ترتيلة واحدة ذات نسق واحد ، وأخـذت الجماهير ترددها دون وعى أو خبرة بأساسها الأول ، لأنها أصبحت تقليدا أن يترنم بها المترنمون فى مناسبة معروفة لديهم ، معتقدين بما لها من أثر فى توجيه الاله الى ما يبتغون ، ومن ثم فقدت طابعها الأصيل ٠

وهذه الترتيلة بعــد ذلك تدل دلالة واضحة على تطور فى العقلية الدينية ، هو بلا جـدال أرقى من العقلية الدينيــة التى تتخذ التنغيمات أناشيد دينية لها ، هذا التطور فى الترتيل يهدى الى أن مرحلة من مراحل الرقى قد مر بها أصحاب مثل هذه الترتيلة ٠

أما مرحــلة أرقى تطور مر به البدائيون فنســتطيع أن نلتمسه فى لون آخر من التراتيل ، يدل على رقى فى فهم ذات الاله ، وهــذا التطور نلحظه فى الترتيلة التى تنشدها قبيلة كيكتشى (Kekchi) من هنود

امريكا الشمالية ، وهم يترنمون بها زمن الحصاد ، وهى تذهب على النحو الآتى :

أنت ، أيها الاله ، ربى ،
أنت أمى ، أنت أبى
أنت رب الجبال والوديان ٠
والآن بعد ثلاث شموس ، وبعد ثلاثة أيام ،
أو أبدأ فى جمع أذرتى ،
أمام فمك ، أمام وجهك ٠
قليل من طعامى وشرابى أعطيه لك ،
يكاد يكون لا شيء ، ما أعطيه لك ،
مع أن عندى الكثير والجيد ،
مما هو طعامى وشرابى ٠
أنت أخرجته لروحى وحياتى
أنت أمى ، أنت أبى ٠
سأبدأ اذن فى الحصاد ،
ولكنى فى هذا اليوم لست مستعدا للحصاد ٠
بغير كلمتك وبغير رضاك ٠
من يدرى كم من شموس وكم من أيام وأنا أحصد ؟
ليس أمرا عاجلا الحصاد من بين الأعشاب ،
أستطيع فحسب أن أتمه على مهل ٠
من يدرى حتى متى سأتمكن من الحديث اليك ،
أنت أمى ، أنت أبى ،
أنت الواحد السماوى ، رب الجبال والوديان ؟
لأتحدثن اليك مرة أخرى ،
ولم لا ؟ يا الهى ٠

وأمثال هذه الترتيلة كثيرة ، تخزنها حافظة ضابطة قوية يتميز بها هؤلاءالبدائيون ، وتحدثنامس جلادز ريشرت (MissGladys Reichert)

فى كتابها دين النفاهو (Navaho Religion) ان قبيلة النفاهو ـ وهى من هنود المكسيك ـ لديهم المئات من مثل هذه الترتيلة يترنمون بها من حفظهم ·

هذه المراحل الثلاث التى تصور ـ فيما يبدو ـ التطور الدينى عند البدائيين وهى مراحل تمت فى عصور قديمة مختلفة ، لا سبيل الى تحديد أزمانها ، ولكن ان فاتنا هذا التحديد الزمنى لمراحل التطور ، فانها تبين فى وضوح ظاهرة التطور فى العقائد البدائية من حيث هى كل ، فى أزمان كاد الناس جميعا أن يكونوا أميين ، ومن ثم اعتمدوا على الذاكرة ، واستطاعت هذه الذاكرة أن تبقى عليها ، دون أن ينالها تحريف ، وان حدث شىء من هذا التحريف فانه يسير ولا يمس الأصل ، يمس اللفظ دون أن يعتدى على المعنى ·

(ب) تراتيل الاخوان الأرفال (Arval Brethren)

والحديث فى التراتيل الدينية البدائية لابد وأن يشمل القول فى تراتيل الاخوان الارفال ، لا لأن هذه التراتيل ذات ميزة خاصة تفردها عن غيرها من التراتيل البدائية ، ولكن لانها تراتيل كان ينشدها رومان متحضرون ، فى عصر ارتقى فيه العقل الرومانى ، وبسطت فيه رومة نفوذها على العالم المتحضر ، فى دولة كانت تزخر بمختلف الديانات الراقية ، كعقيدة مثرا التى خرجت من فارس وأخذت تغزو العالم المتحضر حتى رومة نفسها ، وكاليهودية التى هى دين سماوى ، هو بلا شك أرقى بكثير من العقائد البدائية ، وكالنصرانية التى كانت تعمل جاهدة ليعلو سلطانها فوق كل سلطان دينى ، فظهور مثل هذه التراتيل البدائية فى رومة موئل الترف ومقر العقل الرومانى ان دل على شىء فانما يدل على ما لهذه العقيدة البدائية من سلطان وجاذبية ، ويصور الى جانب ذلك قدرة هذه العقيدة فى الاحتفاظ ببدائيتها رغم اغتناق الأرفال الرومان المتحضرين ، وفى اخضاعهم لما ترسمه لهم من طقوس دينية رغم وجود أديان أرقى منها بكثير ·

والاخون الأرفال جمعية تكونت فى رومة ، دلت عليها الآثار التى اكتشفت منذ منتصف القرن السادس عشر حتى التاسع عشر الميلادى ، والتى سجلت عقيدتها محاضر جلساتها الرسمية ، والتى يؤخذ منها أن هذه الجمعية ظلت تمارس نشاطها الدينى حتى أيام الامبراطور جورديان الثالث

سنة ٢٤١ م على الأقل ، والتى تبين أن لهذه الجمعيــة شروطا يجب أن تتوفر في العضـــو المنتسب لها ، من هذه الشروط أنه يتحتم أن يكون العضو من الطبقة العليا ، وأن يكون ذا ثراء عريض ، ويحتم قانون الجمعية شرطا الى جانب ذلك ، هو وجوب فوز العضـــو الجديد بأصوات أعضـــاء الجمعية ، وهذه الشروط القاسية وضعت فيما يبـــدو لان قانون الجمعية يحدد عدد أعضائها باثنى عشر عضوا فحسب ، ونحن لا ندرى على التحقيق عدد المنتمين لهـــا ٠ فمن المحتمل ان كان لعقيدة الجمعية الدينية أنصـــار وأتباع خارج دائرة الجمعيـــة ، والمؤكد أن الآثار تنطق بجلاء أن عقيـــدة الاخوان الأرفال كانت تحيا بقوة فى نفوس معتنقيها ٠

احتفظت الجمعية بشعائر قديمة ترجع الى أيام ان كان الرومان قريبى عهد بالبدائية ، ان لم يكن أقدم من ذلك ، وظلت هذه الشعائر الدينية تحتفظ بقوتها رغم تطور الرومان الى الرقى والى عظمتهم ، ويحدثنا عن هذه الشعائر محضر جلسة الجمعية المنعقدة سنة ٢١٨ م ، الذى يؤخذ منه ان الحفل الدينى السنوى يظل أربعـــة أيام متتالية ، وكان لليـــوم الأول والثالث والرابع شأن ، وكان حفل اليوم الثالث أهمها جميعا ، اذ كان الاخوان الأرفال يقيمونه فى معبد فى أحد الأحراش المقدسة خارج رومة، كانوا يقدمون فيه الذبائح كقرابين ، وهى خنزيران صغيران وبقرة وحمل، وأثناء الحفل تقدم الخمر ويحرق البخور ، يبتغون بذلك رضا الالهة الأم (Dea Dia) التى ان رضيت عنهم نالوا الوفير من محصول القمح ومن الأعناب ٠ وتشير النقوش الى أنه بعد الاحتفال بتقديم الذبائح كقرابين يطعم أعضاء الجمعية معا ، ثم ينسحب الكهنة فى وقار الى المعبد ، حتى اذا ما لبسوا ثياب الاحتفال خرجوا يحتفلون بالعيد بالرقص وبترتيل أدعية خاصة موروثة عن القدماء ، ربما لم يكونوا يفقهون من معانيها شيئا ولكنهم كانوا يؤدونها أداء سليما وبانفعال عميق ، ومن هذه التراتيل نقدم ترتيلة مأخوذة من النقوش ، قالت :

Enos Lases juvate, enos Lases juvate, enos Lases juvate.
never Luerve Marmar, sins incurrere in pleores.

(وهذا يردد ثلاث مرات)

satur fu, fere Mars, limen sali sta berber.

(وهذا يردد ثلاث مرات)

semunis alternei advocapit conctos.

(وهذا يردد ثلاث مرات)

enos Marmar juvate

(وهذا يردد ثلاث مرات)

Triumpe triumpe triumpe triumpe truimpe

ويترجم وهذه الترتيلة جون وردزورث الى الانجليزية شعرا على نحو ما يأتى بالعربية نثرا :

أعنا يا لارس ، أعنا ، أعنا ، أعنا

وأنت يا مرمر لا تشق ٠

حل الوباء وسعى الخراب

لتدمير شعبنا

فاهنأ يا مارس المتوحش واهنأ

اخط فوق العتبة ، قف ، الآن فاضرب الأرض (١)

ادع الى عونك الأبطال جميعا ، تشكك في جهد مضاف (٢)

أعنا يا مرمر ، أعنا يا مرمر ، أعنا ٠

ثب عاليا وثبا مقدسا ، ثب وثب مرة أخرى ، ثب عاليا وثب كرة أخرى .(٣)

ويذهب المفسرون والمترجمون الى أن (enos) فى اللغة القديمة تقابل (nos) ، وكلمة (Lases) تقابل (Lares) اما (Sta berber) فتعنى قف أو اقذف أو اضرب وهى تستخدم للتنبيه ، ويذهب بوكيه (A.C. Bouquet) الى أن المنادى ـ الذى هو فى أول الشعر ـ هو اله البيت ، ويرى احتمال تطور لفظ (triumpe) الى (tramp) وهى المترجمة (ثب عاليا) ، وان لفظ (Marmar) تركيب مزجى (من كلمة (Mars) ، أما ترديد البيت ثلاث مرات فهو جائز ومحتمل ، قياسا على التراتيل التى تنشد فى معابد عقيدة كونفوشيس فى الصين كما يقول مول (A.C. Moule) .

وكان يختم حفل هذا اليوم بمأدبة وسباق للمركبات وللخيل وبألعاب بهلوانية ، وفى صباح آخر يوم وهو اليوم التالى لحفل السباق

---

(١) ، (٢) ، (٣) ترجمة هذه النصوص من اللاتينية مختلف فيه ٠

كانوا يقدمون آخر قربان ، وكان ذلك فى بيت فى رومة ، حيث الخدم يحملون حزم القمح التى كانوا قد نذروها ، ليضعوها على مذبح الالهـة (Dea Dia) • ومن الواضح أن هذه العقيدة كانت تلزم معتنقيها أن يقدموا قربانين ، أحدهما لمارس والآخر للالهة • ومما يلفت النظر حقا أن هؤلاء الرومان عنوا عناية شديدة بتسجيل شعائرهم المقدسة ، وذكروا أن لهم كتبا للتراتيل كان يحملها عبيدهم ويقدمونها للكهنة ، وانهم كانوا يرتلون منها أناشيدهم وتراتيلهم ، وان هـذه الترتيلة التى ذكرناها مسجلة فى كتب تراتيلهم •

ولقد لاحظ بعض الباحثين الذين درسوا هذه الترتيلة التى سبق ذكرها انها تدل على أشياء ، تدل على أن هؤلاء الرومان تصوروا الاله سجينا فى معبده مع عابديه ، وأنهم كانوا يرسلون توسلاتهم اليه ليبقى سجينا لا يغادر معبده ، وعلى هذا التفسير يمكن القول أن الأبيات التى تبدأ (اخطـ فوق العتبة ، ادع الى عونك ، ثب عاليا) موجهة الى الاله متوسلين بها اليه أن يظل فوق عتبة المعبد فلا يتجاوزها ، مانحا الأرض ما تحتاج اليه من خصب وهو فى سجنه ، وهذا التفسير فى رأى بعض الباحثين مقبول ، بل وربما كان صحيحا ، لأن مثل هذا التصور تؤيده الشواهد فى عقائد بعض القبائل البدائية وربما كان سليما لانه يسم الاحتفال بطابع سحرى ، وهو ما يلاحظ فى الاحتفالات الدينية للقبائل البدائية ، ولا غرابة ان وجدنا فى ذلك روحا عدائية ، لاننا نلحظ هذه الروح العدائية نحو المقدسات فى رواسب نفوس الناس حتى فى العصور المتأخرة ، وهذا واضح فى نهج تلك القرية الايطالية التى ان وجد أهلها أن صيدهم من السمك قليل أخذوا تمثال قديسهم الأثير فذهبوا به الى ساحل البحر ، وعاقبوه على قلة الصيد بوضعه فى ماء البحر ، وكذلك فى صنيع الفتاة الايرلندية التى فقدت قطعة النقود التى كانت تبنى عليها الآمال ، فقد عاقبت صورة قديسها بأن قلبتها ، فجعلت الرأس الى أسفل وهتفت قائلة ذلك جزاؤك • وهذان المثالان يصوران القديس مسئولا عما يلحق من أذى ، ومن ثم فانه يستحق العقاب ، هذه الروح الحديثة كان لها نظير عند القدماء بفارق واحد ، هو ان القدماء كان عقابهم يتمثل فى توسلاتهم ، والأصل النفسى لكلا الأمرين واحد •

من الواضح ان الطابع السحرى عنصر من عناصر الاحتفالات الدينية التى كان يقيمها الاخوان الأرفال ، ولهذا تسلك عقيدة الاخوان الأرفال رغم أنهم متحضرون فى سلك العقائد البدائية ، ومن ثم فهى تختلف عن

عقيدة ذلك الداعية الدينى أورفيس (Orpheus) ، تختلف فى أن عقيـدة الاخوان الأرقال بدائية وعقيـدة أورفيس ليست بدائيـة ، لان أورفيس لم يتخذ السحر عنصرا من عناصر عقيدته ، ولانه قال انها من عند الله ، على نحو ما سنبين بعد فى الفصل التالى .

(ج) العقائد البدائية :

ألف الأسـتاذ هوبير ديشـان (Hubert Deschamps) كتابه القيم عن الحياة الدينية ومظاهرها وعناصرها عند القبائل البدائية وسـماه الديانات فى افريقيـة السـوداء (Les Réligions de l'Afrique Noire) ، وهو خير مرجع لمن يريد عرض العقائدالبدائية أو معرفة الحياة الدينية فى هذه المنطقة من العالم ، التى تشـهد وتمر بتطور خطير فى حياتها يؤذن بتغير فى حياتها ، ولا يسرف الباحث اذا قال ان مرحلة التطور هذه حين تتم سيصحبها تغير فى مجرى التاريخ ، ذلك لأن الباحث يلحظ بوضوح صراعا خطيرا بين هذه العقائد البدائية من ناحية وبين عقائد عالمية أخرى كالاسلام والمسيحية من ناحية أخرى وفى نفس الوقت يصاحب هذا الصراع الدينى صراع آخر لا يقل خطورة عن سابقه ، وهو نتيجة لازمة للصراع الدينى ، هو صراع سياسى يقوم على كسب هذه القبائل البدائية عن طريق الدين ، تلك القبائل التى تعيش فى مناطق غنية بالمواد الخام على الفطرة أو ما يشبه الفطرة الى حد بعيد ، ويحاول المستعمر الأوروبى بالبعثـات التبشيرية أن يطور سياسته فى التعامل معهذه القبائل لتظل تحت سلطانه،ولكن هذه السياسة — فيما يبدو لى — وان نجحت فى اقامة حاجز من فولاذ يمنع الاديان الأخرى كالاسلام من النفوذ الى هذه القبائل البدائية ، فان هذا النجاح عمره قصير ، لأن وسائل التبليغ منوعة فى عصرنا الحديث ، والوعى الافريقى أخذ يستيقظ ويحس بثقل الاوروبى على كاهله .

وليس من شأن هذا الكتاب أن يتعرض للمسائل السياسـية وان لازمت العقائد الدينية ، لأن دائرته تقتصر على العقائد وحدها ، ولكن اضطررنا الى هذه الاشارة الخاطفة لكى نلفت النظر الى أن هناك عوامل أخرى تعمل الى جانب التبشير بالدين ، والحديث فى هذه العوامل ذو مجال واسع ، عرض له بايجاز الاستاذ هوبير ديشان فى كتابه ، وكان منصفا فى بعضه وغير منصف فى بعضه الآخر ، كما أنه أغفل أشياء يتهم

بها الدين الاسلامى ظلما فى هـــــذه المنطقة البدائية ، التى لا تزال تعيش عيشة الفطرة فى عصر الذرة والحضارة الحديثة، ذلك لأن البدائيين أنفسهم ـ فيما يبدو ـ لم يؤثر فيهم هذه الدعايات التأثير المرجو •

والحديث عن العقائد البدائية فى افريقية يســـتلزم أن نتعرض لأشياء قد تبدو فى نظرنا بعيدة عن العقائد ، ولكنها عند هذه القبــــائل هى الغلاف الذى يغلف العقائد ، ومن ثم فهى جزء منه لا سبيل الى اغفالها وهذه الأشياء يمكن درجها تحت عنوان واحد هو النظام الاجتماعى فى القبيلة البدائية ، وعلى ذلك فاننا نبدأ بالحديث عن النظام الاجتماعى بصورة موجزة على أنه منبثق من الدين ، أما المظاهر الاخرى لهـــذا النظام الاجتماعى فلا مجال لها فى هذا الكتاب ، ثم نثنى بالحديث عن العقائد •

النظام الاجتماعى عند البدائيين

تعيش الجماعات فى قلب افريقية على نظام قبلى ، استلزمت قيامه طريقة حياتهم التى تقوم على البداوة ، ولما كان الارتباط بين أفراد القبيلة ضرورة لبقاء القبيلة ، جاء لها الدين البدائى بالروابط التى توثق عرى هذا الارتباط بين الفرد فى القبيلة وبين القبيلة ، جاء لها بقداســـة الآباء ، وهى نظرية فى حقيقة أمرها أتت لتحمى النظام القبلى من الانهيار أو الانحلال ، لذلك كان أعظم هدف للمبشرين والمستعمرين هو تحطيم هذا النظام ، الذى يعد أعظم عقبة فى سبيل استقرار النفوذ الاوروبى ، وأعظم رابطة فى هذا النظام هو الصلة بين الفرد وبين الآباء والاسلاف ، ذلك لأن الهيئة الاجتماعية فى القبيلة تنبثق من الصلة بين الأحيــــاء والأموات ، فهم جميعا تقوم بينهم الصلات على أساس تبادل المنفعـــة والخدمات ، فالموتى هم الرؤساء الفعليون فى الاسرة والقبيلة جميعا ، ويقول هوبير ديشان (الديانات فى افريقية الســـوداء الترجمة العربية ص ٢٨) : (وهم القوامون على استمرار مراعاة التقاليد والمراقبـــون لسلوك ذرياتهم من الاحياء ، ولهم عليهم حق الثواب والعقاب ان هـــم تمسكوا بالعادات المرعية أو حادوا عنها • فالمحافظة على العادات واحترام الموتى من الآباء والأجداد واقامة المآتم والحفلات الدينية لتقديسهم ، كل هذا يجرى باشرافهم وتحت رقابتهم وبفضل هذه الرقابة يظل النظـام

الاجتماعى وتظل الاخلاق والآداب مكفولة • وتشمل قواعد تحريم بعض الاعمال والنظام العام والاوضاع المختلفة باختلاف الاشخاص والمناسبات وخاصة الأغذية •) ، هذه السلطة الدينية التى تمنحها الاديان الراقية للاله وضعها البدائيون فى أيدى موتاهم ، وبذلك أصبح للأجداد نفوذ كبير فى تنظيم العلاقات الاجتماعية فى القبيلة ، وفى السهر على بقائها قوية تقوم على ارتباط الفرد بهم ، ولقد أدى هذا الى ذوبان شخصية الفرد فى جماعة القبيلة الذى يخشى ان أهمل مراعاة التقاليـــد ان يطرد من المجتمع ، بتخلى القوى الحيوية عنه التى تمده بالقوة والسعادة ، وهى أقسى عقوبة يصاب بها الفرد ، والفرد يخشى هذا العقاب ويرتعد منـه خوفا لأن أرواح الاجداد هى التى تمنحه القوى الحيوية ، وتخليها عنـه يحرمه من هذه القوى الحيوية ، ويعرضه لنكبات أدناها المرض والألم والأعياء والفشل فى العمل ، وأعظمها القضاء عليه •

هذه العقيدة فى الآباء هى أوثق رباط أتاح للنظام الاجتماعى فى القبائل البدائية الحياة رغم المحاولات الكثيرة للقضـــاء عليه ، وأتاح للروابط الاجتماعية أن تكون وثيقة العرى ، ونجاح هذه العقيدة يدين للنظام الدقيق الذى جاءت به لتظل قوية مرعية التعاليم مرهوبة الجانب وأساس هذا النظام ان لكل موضعه ، وأعلى درجات هذا النظام يختص به الاجداد الذين أسسوا القبيلة ، ثم يأتى من بعدهم الجد الاعلى للأسرة ، ثم يليه ذريته وفق أسبقيته فى الوفاة ، وتأتى درجات الاحياء بعـــد درجات الموتى على الأساس الآتى :

(أ) الرجال :

١ ــ أسن رجل فى الأسرة هو رئيسها والوسيط بينهـــا وبين الموتى ، ووضعه هذا يجعله يحوز القوى الحيوية الانسانية والطبيعية ، ومكانته تؤهله لأن يقوم بجميع الشعائر الواجبة نحو الآباء وظواهـــر الطبيعة التى منحته قدرات وسلطات يختص بها الآلهة فى الاديان الراقية ذلك لأنهم يرون أن قدرته تمكنه من أن يأمر السماء فينهمر المطر ، وأن يبعث الحياة فى الزرع فينمو ، ويمنح الخصب للمرأة العقيم ، كمـــا يقول هوبيرديشان ، أما سلطاته فبيـده الاشراف على نظـــام الاسرة وصحتها •

٢ ــ يليه فى الدرجة الشيوخ ولهم مكانة مقدسة تصل فى قبائل داهومى الى أن الشباب يسجدون لهم اذا التقوا بهم •

٣ ـ يأتى بعد الشيوخ الكهول من الرجال ثم يلى هؤلاء من هـم أصغر سنا على طبقات بترتيب تنازلى وفق السن • أما النساء فطبقـة وحدها لا تدخل فى هذا التسلسل التنازلى فى السـن ، وهن ذوات امتياز خاص فى المجتمعات البدائية التى تخضع لنظام الاومة •

(ج) أما الملوك فى القبائل الكبرى فالنظر اليهم على أنهم يتمتعون بالقدرات الخارقة من حيث هم حلقة الاتصال بالقوى الخفية ، وبيدهم اخصاب الارض • ويشترط فى تنصيب الفرد ملكا شرف الأصل واجماع آراء الموتى من الأجداد فاذا لم يتم انتخابه على هذا الأساس حلت المصائب بالقبيلة ، اذ ينقطع المطر وتجدب الارض فلا تؤتى غلتها ، وينتهى أمرها الى الدمار والخراب •

ومن الطريف أن لحفل تنصيب الملك طقوسا خاصة، فهم يحملونه على الاعناق حتى يجلسونه على الكرسى الاسود الذى كان لسلفه كى تحل روح الملك الميت فى جسم الملك الجديد ، ويتكرر هذا الجلوس ثلاث مرات متتاليات ، فاذا تم تنصيبه ملكا يصبح مقدسا ، ولهذه القداسة مظاهر مختلفة تتبين من المظاهر المختلفة لاحترامهم الملك وفى قدراته •

ومن هنا يتبين أن الملوك وكبار الاسنان والآباء والأجداد مقدسون ودرجات تقديسهم تتوقف على القدرات التى حلت فيهم وفقـا لما تراه العقائد البدائية ، ومما هو جدير بالملاحظة أن قداسة الآباء عقيدة من عقائد الصينيين ، فهل يوجد أصل مشترك لهذه الظاهرة الدينية ؟ وخاصة وأن احترام الآباء أمر تدعو اليه العقائد السماوية ، كل ما يمكن أن يقال فى هذه الناحية هو مجرد فروض واحتمالات تجد لها سندا من الاديان ، وليس هنا موضع لمثل هذه الدراسة المقارنة ، التى نلفت اليها النظر عسى أن تصل دراسة العقائد الى العمل المرجو لمعرفة أسرارها •

تعدد الزوجات

من المعروف أن النظام البدائى لا يحدد الزوجات ، ودخلت المسيحية فأثارت هذه المشكلة فى افريقية ، ولكن المسيحية لقيت عنادا واصرارا فى تحديد الزوجات وهذا ما جعل أحد المبشرين ـ ارضاء لقبائل كافريه واحتراما لتقاليدها أن يبيح تعدد الزوجات فطردته الكنيسة ، ولكن هذا الحكم الفردى لم يكن طريقا للحل فظلت المشكلة قائمة ، بدليل أن كثرة

الافريقيين الذين تنصروا فى الظاهر وأبطنوا عقائدهم الموروثة لم يرعوا تعاليم المسيحية ، وأن بعض الافريقيين الذين آمنوا بالمسيحية صاحوا فى وجوه رجال الدين المحددين للزوجات ، قائلين انهم لا يجدون أثرا لهذا التحديد فى الكتاب المقدس (١) ، وعلى ذلك فهم لا يحددون الزوجات فأصبح التعدد من لازمات المجتمع رغم دعوة المسيحية وجهادها ٠

التسامح :

ويتميز المجتمع البدائى المنبثق من العقائد الدينية بالتسامح ، ويقول هوبير ديشان (الديانات فى افريقيا السوداء الترجمة العربية ص ١٧٠) (هذا التسابق الشديد بين المذاهب المسيحية وخاصة فى بدء نشر الدعوة حين لم تكن هناك عداوات شديدة ، كان عاملا من عوامل انقسام المجتمع الزنجى ، مما دعا بعض أفذاذ المبشرين الى استهجان ذلك التعصب المذهبى ، **الذى لا يتفق وعادات التسامح عند الوثنيين** ، وخاصة على ساحل غينيا ، حيث كانوا يرحبون بالآلهة الجديدة بين **بين صفوف آلهتهم القديمة**) ٠

واذا كان بعض المبشرين قد لقى حتفه فان سوء الظن بنواياه هو الذى دعا الافريقيين ولا أقول الزنوج كما يقول هوبير ديشان – الى الخروج عن مألوفهم وعن تسامحهم المعهود فقتلوا من قتلوا ابقاء على وحدتهم ودينهم واجتماعهم وحياتهم الحرة ٠

ونستطيع أن نجمل الحديث عن المجتمع البدائى فنقول ان الخصائص التى حافظت على بقاء هذا المجتمع سليما ، وهى الترابط وفناء الفرد فى الجماعة وعبادة الملوك التى كان لها نظير فى مصر القديمة وعبادة الآباء انما هى جميعا من تعاليم العقائد البدائية ، وكانت روابط جعلت هذا المجتمع متماسكا ٠

العقائد البدائية :

والحديث فى العقائد يتطلب منا تحديدا واضحا لها ، لأن كل شىء يمكن بسهولة رده الى العقيدة الدينية ،وهذا التحديد يبدو غير يسير ،

---

(١) راجع كتابى دراسات اسلامية من القرآن الكريم – موضوع الزواج وتعدد الزوجات .

ولكنا حين ننظر على أساس القوى الخفية الخارقة تتضح معالم الدراسة وتفرض الموضوعات نفسها للعرض والبيان ، فالقوى الحيوية التى تنتقل من الميت الى الحى خفية ذات سلطان ، والسحر قوة خفيـــة تميز صاحبها وتجعله مهيب الجانب وغير عادى ، والطبيعة يقصر عقل البدائى عن فهم مظاهرها ، فيتصور فيها قوى خفية تملى عليه عبادتها ، وأخيرا فكرة الخلق والخالق • هذه هى المواضيع التى لا بد من تناولها نعرض لها بايجـاز يبين معالمها ولا يتصدى لتفاصيلها توضيحا للعقائد البدائية •

١ ـ القوى الحيوية :

والقوى الحيوية هى قوى تسكن أو تستقر أو تكمن فى الجسم سواء أكان هذا الجسم لانسان أم لغير انسان ، ويقول هوبير ديشـــان (الديانات فى افريقيا السوداء ـ الترجمة العربية ص ١١) (على أنه يلوح أن فكرة القوى الحيوية هذه لا تخص قبائل البانتو وانما نجدها منتشرة بين كثير من القبائل الافريقية الاخرى ، بل انها عندهم لا يختص بها الانسان الحى ، بل تعم الأموات ، وتدور فى الطبيعـة بأجمعهـا ، فتسرى فيها كأنها ســيال كهربائى يربط بينهـــا ، وقد تتركز تلك القوى فى شخص أو محراب أو مكان ما يكون بمثابة محطات تقوية لذلك التيار الكهربائى ، وقد تتنوع هذه القوى ويكون لكل منها طابع خاص) ، هذه العبارة الموجزة تصور بدقة القوى الحيوية التى لها أعظم الأثر في حياة البدائيين ، ونستطيع أن نضيف الى ما ذكر أن القوى الحيوية قد تكون خيرة أو شريرة •

وانتقال القوى الحيوية الى الانسان قد تكون عند مولده ويدل ثقل وزن الطفل على انتقالها اليه أو حلولها فيه ، هكذا تعتقد قبائل الفانج (منطقة جابون) ، وتذهب أيضا الى أن الانسان يحصل عليها أثنـــاء حياته ، اما اقتباسا من شخص معمر أو أثناء قيامه بأداء الشعائر الدينية وفى شمال الكونغو تنسب القوى الحيوية الى الموتى من الأجداد ، ويقولون انها موجودة فى بعض الاماكن وفى الحيوان الذى يحمل اسم القبيلة (طوطم) ، وعند قبائل الذوجون تنتقل بالوراثة من الاب لولده ،وتتضاعف فى أثناء الحمل بالقوى الموروثة عن أحد الموتى من ذوى قرباه ، وقـــد يكتسبها أثناء بعض الاحتفالات الدينية أو من القناع الكبير وهو رئيس السحرة والكاهن الأكبر والطبيب الأكبر فى القبيلة •

وهذه القوى الحيوية تستقر فى أجزاء رئيسية من جسم الانسان مع مشاركة باقى أعضاء الجسم بدرجة أقل ، فقد تكون فى العين والكبد والقلب والجمجمة • والقوى الحيوية الشريرة هى عند بعض القبائل تيارات ضارة تلتصق بالانسان اذا تجول بين بعض الاشجار أو دنا من مجرى ماء أو من حيوان مقتول أو ارتكب معصية • ومن الممتع حقا دراسة نظرية الحلول وانتقال الارواح من حيث صلتها بالقوى الحيوية أو عدم صلتها بها ، لأن القوى الحيوية أصلا هى أرواح ، وأنها تنتقل من جسم الى جسم •

ويجب ألا يختلط علينا أمر هذه القوى الحيوية بالنفس أو بالروح ذلك لأن لكل نظرة مستقلة ، وان كنا نجد صلة ما ، ومن الخير أن نوضح الأمر وبايجاز ، لنعرف هذه الصلة ، أو انتقال الروح لتكوى احدى القوى الحيوية •

تذهب بعض القبائل الى أن للانسان نسمة مزدوجة ، احداهما هى نى (Ni) والأخرى هى توأم الانسان وتسمى ديا (Dya)، والجنين فى بطن أمه يرث نى عن آخر فرد يموت فى الأسرة ، ونى فى الكائن الحى تنطلق مع الشهيق والزفير وفى النوم ، أما ديا فهى توأم الانسان لاتفارقه ما دام حيا ، وتكون ديا مؤنثة للذكر ومذكرة للأنثى ، وهى ظل الانسان على الأرض ، وصورته المنعكسة على صفحة الماء • وطبيعة الانسان مكونة من خليقتين ، احداهما تسمى تيرى (Téré) والأخرى تسمى وانزو (Wanzo) ويفسد التيرى ارتكاب المحرمات ، فتصبح قوة مستقلة هى القوة الحيوية (Nyama) (١) ، أما وانزو فهى التى تمثل ناحية الشر الغريزية فى الانسان ، ويرون أنه من الممكن تطهيرها بالحفلات الدينية ، أى حفلات التلقين والاطلاع على الاسر (الختان) ، أما دم الانسان فهو فى نظرهم الذى يحمل الخصائص الروحية وينقلها والتضحية بالقربان تخلص منه هذه الاسرار ، وتغذى بها المعابد والمحاريب والانسان فى طفولته يجمع بين الذكورة والانوثة ما دام بغير ختان ،وهذه العقيدة هى التى أقامت عندهم عادة الختان ، لتمييز الذكر والخفاض لتمييز الأنثى ، ولتحديد طبيعة كل منهما تحديدا قاطعا ، ومما هو جدير بالذكر ان الرضيع لا يسمى باسم حتى يعرف تركيبه الجسمى وتعرف فطرته التيرى ، واذا ولد للمرء توأمان كان ذلك ثمرة لاله الماء ،

(١) تسمى القوة الحيوية بين قبائل دوجون باسم نياما •

وينظر الى ميلادهما أنه بشير خير وبركة ، واذا حدث وولد طفل أبيض نظروا اليه على أنه نجس ، وكانوا فى عصور سابقة يذبحونه ويقدمونه قربانا فى الأعياد الكبرى • هذا وموت الفرد منهم يؤدى الى أن تنفصل عنه نفساه ، تذهب ديا التوأم الى الماء ، وأما نى فانها تحل فى محراب الاسرة انتظارا لتحل فى جسم مولود جديد ، أما الجسم فمصيره الى الفناء •

هذا التصوير لطبيعة الانسان ليس عاما فى جميع القبائل ، ذلك لأن قبائل ماندانج تذهب الى أن الانسان مكون من عنصرين ، أحدهما الظل أو الصورة ويسمى دا(Da)، والآخر نسمة ويكون بها حياته وهى نى (Ni) التى تذهب الى السماء بعد الموت وتبقى دا فى البيت حتى تنتهى مراسيم الجنازة ، ثم تغادره هائمة زهاء خمسين عاما تزور فيها مواطنها الأولى ، ثم تلحق بنى (Ni) ، وعقيدة قبائل لوبى قريبة الشبه من هذه العقيدة ، فهم يقولون بعنصرين أحدهما الظل أو الصورة أو التوأم ، والآخر هو النسمة التى يكون بها الحياة ، وموضعها فى الكبد ، وبموت الشخص تذهب نسمة الحياة ، ويظل التوأم مع الجسد حتى اذا ما تمت مراسم الجنازة الثانية ذهب التوأم الى العالم الآخر ، ثم يأخذ فى نسيان عالم الاحياء شيئا فشيئا •

وبعض القبائل تذهب الى أن فى الكائن الحى انسانا كان أو حيوانا أو نباتا أربع أنفس : النفس الشفافة ، والنفس الكثيفة ، والنفس غير المرئية ، التى ان صعدت الى خالقها حدثت الوفاة ــ والنفس الكافلة وهى التى تحل بعد الموت جسدا آخر ، والنفس الشفافة لا تستيقظ فى المرأة الا بعد زواجها ، وتذهب قبائل أشانتى فى ساحل الذهب الى وجود أربعة عناصر أيضا : (١)

١ ــ الدم الذى ينتقل من الام ، وهذه النسمة تحل فى احدى نساء الأسرة (مجتمع أشانتى تسيطر عليه الأمومة) •

٢ ــ ونسمة تنحدر من الاب ، وتحل بعد موته فى أحد من أهل أبيه •

٣ ــ والنسمة الالهية ، وهى تجىء من عند الله وتعود اليه •

٤ ــ ونسمة الطباع أو الشخصية الخلقية •

---

(١) راجع فى هذا كله بالتفصيل فى هوبير ديشان ١٤ ــ ١٧ الترجمة العربية .

ومن القبائل من يعتقدون فى ثلاث أنفس ومنهم من يعتقدون في اثنتين هما روح الحياة وروح الموت ، تصعد منهما روح الحياة الىالسماء أما روح الموت فتنزل تحت الأرض ، ولبعض القبائل فلسفة فى النفس تصور نظرا أرقى ، يذهبون الى أن لها قوتين احداهما متحركة طاغيــة وشهوانية والأخرى ساكنة ، ولبعض القبائل معتقدات فى النفس والروح وطبيعة الانسان يؤخذ منها أن فى الانسان قوة تتحول الى القوى الحيوية بعد موته ٠

السحر وتلقين الأسرار :

نشأ السحر الى جانب الدين ، ثم أصبح ذا أهمية خطيرة لأنه يقوم بوظيفة الاستحواذ على القوى الحيوية والاحتفاظ بها ثم الاستزادة منها ويعمل أيضا على ابعاد قوى شريرة لا تتصف بالقداسة ، والســـحر فى البيئة البدائية لونان ، احدهما حلال ووجوده ضرورى لما ذكرنـا والآخر مبغوض يجلب الشر ويحدث الكوارث ٠ والنوع الاول اختصت به طائفة يعرف الساحر فيها بالكاهن الطبيب ، وعمله الاتصال بالقوى الخفية لمعرفة الجواب عما يراد التساؤل عنه ، من حيث النجاح أو الفشل أو الفائدة أو الضرر ، ويقوم هذا الكاهن الى جانب ذلك بوصف العلاج للمريض بعد تلقيه الجواب ، وبانزال المطر وجلب المحبة واستعـــادة القوة ، وهو لكى يتصل بالارواح أو بالقوة الحيوية يتلو تعاويذ خاصة معروفة لديه ، ومن هذه الطائفة جماعة ينثرون الودع أو الشىء الذى معهم ، ومن الاوضاع الموجودة عليها الأشياء المنثورة يصلون الى الاجابة والناس يلجأون الى الكاهن اذا حزبهم أمر ، فيشترون منه التميمة التى تحقق لهم ما يبتغون ، ويقول هوبير ديشان (الديانات فى أفريقيا السوداء ـ الترجمة العربية ص ٩١) (وعند الداهارا سحرة وهبوا القدرة على استنزال المطر برقصات خاصة يرقصونها ويستطيع بعضهم أن يتنبـأ بالغيب عندما ينصت الى صفق نعليه) ولئن كان فى هذا القول مبالغـة وتزيد فان شهرة جدجبيه (Gédégbé) الذى كان رئيس الكهنـة فى حياة الملك بهانزان بقدرته فى الطب وفى صواب الرأى ما يجعلنا نفكر ونقدر ما يقال فى هؤلاء السحرة أو الكهنة ذلك لأن هذا الملك أراد اعلان الحرب على الفرنسيين واستشار رئيس الكهنة هذا ، فنصحه بأن يرجع عن عزمه لأنه سيهزم ثم يصبح طريدا ، فأمضى الملك عزمه وتحقق ماتنبأ

به الكاهن الأكبر ، ومما يقال مبالغة فى قدرته أنه تنبأ باليوم والوقت الذى مات فيه .

احتل السحر فى المجتمع البدائى مكانة كبيرة فى الحياة الاجتماعية اليومية وفى الحفلات الدينية ، وليس فى استطاعة أى فرد أن يكون ساحرا ، وانما كانت للسحر أساليب خاصة وتعاويذ لا بد من معرفتها واتقانها ، وغالبا ما يورث أو يعلم الاب ابنه الكهانة فيصبح من بعده ساحرا أى كاهنا ، وتختلف أساليب الكهانة فى منطقة عن أخرى ،ولكنها جميعا هدفها الانباء بما يكون عليه المستقبل أو وصف علاج لأمر يقلق السائل ، وبعض الكهنة يتجولون وفى بعض المناطق لا ينتقلون، وفى بعض المناطق يتعرض السحرة لامتحان شاق ويقول هوبير ديشان (الديانات فى افريقيا السوداء - الترجمة العربية ص ٩١) (ورسامة طالب الطب والكهانة عند الاقزام تكون بامتحان عسير رهيب ، اذ يربط الطالب الى جثة ميت وجها لوجه ، ثم يدلى الاثنان فى قبر ويتركان فيه ثلاثة أيام ، فاذا لم يصب الطالب فى نهايتها بالجنون دل هذا على قوة سلطانه على أعصابه وضبطه لنفسه وعلى أن الارواح العليا قد حلت فيه) . ومن الطريف أن بعض القبائل ترى فيمن تظهر عليه أعراض الصرع أن الاله قد اجتباه ليعبر عن ارادته ، ومن يدرس المجتمع المصرى بل والعراقى فى عصور مختلفة سيجد أثرا لهذا الاعتقاد فى الابله وغيره . ويجب أن نفرق بين هذه الكهانة التى يرى المجتمع البدائى أن أصحابها متصلون بالارواح وبين المتنبئين الذين يحترفون التكهن بالاعداد أو بغيرها ، فطائفة السحرة الكهان لهم رهبة واكبار فى نفوس الناس ، أما الآخرون فليست لهم هذه الرهبة ، هم أناس عاديون اختصوا بهذه القدرة فألحقوا بالكهنة .

أما الذين يجلبون الشر للناس ويتسببون فى ايذائهم فهؤلاء يعرفون بينهم بالسحرة ، واعتقاد الناس فى قدرتهم على الايذاء شائع لا فى البيئات البدائية فحسب بل وفى مصر أيضا الى الآن ، والبدائيون يعتقدون أن السحرة سبب كل الكوارث التى تنزل بهم من مرض أو موت ، ومن ثم فهم فى نظرهم أعداء المجتمع ، الذين يجب كشف أمرهم لاشتغالهم بالسحر المؤذى . وهؤلاء هم الذين يشير اليهم القرآن ٢ / ١٠٢ **(واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد . حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون**

منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) .

والساحر من هذا الطراز اما أن يعرفوه بعمله واما أن يولد دميم الخلقة أو أن يكون أحد توأمين حلت به روح خبيثة ، وهذا يحلل للناس ذبحهم ، وللقبائل فى السحرة معتقدات فى كيفية استخدام سحرهم عن عمد أو عن غير عمد ، وهو حديث يطول أمره يخرجنا عن دائرتنا المرسومة .

تلقين الأسرار :

تلقين الأسرار دراسة يعد فيها الطفل فى نظر البدائيين للانتقال الى مرحلة المراهقة ، وهذا الاعداد يتم بطريق الثقافة الدينية والخلقية فى خلوة وعزلة عن الناس ، وهذا الاعداد لا يختص به جنس دون جنس ، وانما هو للذكور على حدة وللاناث على حدة ، وفى اثنائه يتم الختان للذكر والخفاض للأنثى ، وبعض القبائل لا تفصل بين الجنسين أثناء التلقين ، وبعض القبائل تؤخر الختان والخفاض الى سن الخامسة والعشرين ، وذلك لضمان النسل من خطر الختان ، ولكن الاغلبية على فصل الجنسين واتمام الختان فى مرحلة المراهقة .

ويصف هوبير ديشان منهج البدائيين فى تلقين الأسرار فى «الديانات فى افريقيا السوداء الترجمة العربية ص ٧٥ ، ص ٧٦ وصفا ممتعا فيقول (انه عند بدء فصل الجفاف يقام لهذا الغرض معسكر بظاهر القرية فى غابة صغيرة على مقربة من نهر ، حيث يحشد الاطفال الذين ستجرى لهم عملية الختان ، وهناك ينامون على أسرة من جريد وحشيات من ورق الشجر ، يشدون اليها كل ليلة ليظلوا راقدين على ظهورهم ، ويقام فى وسط المعسكر محراب مقدس ، هو عبارة عن فرع شجرة مطوق بطوق من نحاس ، وأول ما يدخل الاطفال المعسكر يفرض عليهم الصوم ثلاثة أيام ، يتدربون فيها فى الوقت نفسه على الرقص ، ثم يغتسلون فى النهر ، ثم يقومون بعرض رياضى ، مارين بين صفين من المراهقين الذين اجتازوا محنة التلقين فيما قبل ، فيتعرضون منهم للضرب بالسياط ، ثم تبدأ عملية الختان وهم وقوف على شاطىء النهر ، وترمى عزلتهم فى مياه النهر وتعصب جروحهم ، وفى مساء اليوم نفسه يرغمون

على الرقص دون أى اهتمام بما ينزف من دمهم ، وبعد انقضاء اثنى عشر يوما داخل المعسكر فى مران وتدريب : يسمح لهم بالخروج للصيد .
ومن تقاليد هذا الحفل طلاء الرأس والجسد بغرين أبيض اللون ، على صورة وشم متنوع الاشكال ، ويلبس كل طفل أزارا من ليف الشجر ، ويعلق على رأسه وبدنه أوشحة وزينات تقليدية مختلفة ، ويتناول منهج التعليم تدريبا على الرقص الدينى ، وارشادا الى التعاليم الاخلاقية والعادات القبلية ووصايا عملية فى الحياة ، وتنبيها الى المحرمات ،وتربية جنسية ، ويعاقب كل من يرتكب عملا شائنا فى تلك الفترة — أو كان ارتكب قبلها ، ومن بين العقوبات القيام بجمع عسل النحل البرى والتعرض للدغ النحل والتسخير فى أعمال الحقل تحت ضربات السياط .

وقبل أن يخرجوا من المعسكر تصبغ أجسادهم العارية بطلاء أبيض ثم تمحى أسماؤهم القديمة ، ويتسمون بأسماء جديدة ، ويحرم عليهم مخاطبة الناس الا بعد ثلاثة أيام ، رمزا الى أنهم قد ماتوا ثم بعثوا من جديد ، وبعدها يحرق المعسكر بكل ما فيه من ملابس قديمة ، ثم يفرج عنهم بعد هذا الامتحان العسير ، ويسمح لهم بالعودة الى أهلهم فى القرية .

وأما حفل تلقين البنات فيستمر شهرا قمريا كاملا فى مكان منعزل ويفرض عليهن قضاء ليلة فى الغناء والرقص ، ثم الاغتسال فى النهر ، وتجرى لهن عملية الختان (الخفاض) بواسطة احدى عجائز الحى ،ويلقى ما اقتطع منهن فى النهر كما صنع للغلمان ، وبعد تطبيب جراحهن يرقصن فى الليلة نفسها ، وتطلى أجسادهن بالزيت وتصبغ باللون الاحمر ويتلقين كذلك تثقيفا وتدريبا خاصا بهن ونظرية التلقين أو تلقين الأسرار كما تسمى أحيانا يحاربها المبشرون المسيحيون بكثير من الطرق ، ولكن البدائيين متمسكون بهذه العادة تمسكا قويا ، ومحاربة هذه العقيدة أو التلقين معناه العمل على القضاء على العقائد البدائية التى تؤدى الى تفتيت الوحدة الاجتماعية الناشئة عن العقائد ، ومما هو جدير بالذكر أن نظرية التلقين شائعة عند البدائيين الافريقيين ، وهم يختلفون فحسب فى عادة الختان فمن القبائل من لا تعرفها ولكنها تقيم عادة غيرها .

الصلة بين الانسان والحيوان صلة وثيقة فى العقائد البدائية ، ومن البدائيين من يرون أن جدهم الأعلى حيوان ، وتصور البدائيين لهذه الصلة بين الانسان والحيوان قامت عندهم على أساطير وأوهام ، يتصور الدجون (Dogon) أن الحيوان توأم للانسان ، ويقـــابل كل جد من أجدادهم الثمانية حيوان سماوى يشترك معه فى الروح ، واذا ولد لهم مولود ولد صنو له من الحيوان التى كانت تشترك مع الاجداد فى الارواح ، وولد أيضا حيوان آخر يعيش على الارض ، وتصور قبائل البامبارا (Bambara) طبيعته على نحو طبيعة الانسان ، فى أن لكل منهما نفسين : نى (Ni) وديا (Dya) ، فاذا قتل الصياد حيوانا تعقبته روح هـــذا الحيوان للانتقـــام منه ، وعلى ذلك فهم يفرضـــون أداء مراسم خاصة لاقتنـــاص الفريسة ، ومن الطريف أنهم يرون أن لكل أسرة حيوانا يتصل بها بصلة القربى أو النسب ، ومن ثم يحرم عليها أكل لحمه ، وتشترك قبائل أشانتى (Achanti) وايفا (Ewé) وفون (Fon) ويوروبا (Yourouba) فى النظرية العامة الاساسية فى أن لكل انســـان صنوا من الحيوان ، ولكنهم يذهبون الى أنه اذا قتل الحيوان ــ صنو الانسان ــ قتل تبعا هذا الانسان ، لذلك يحتمون أداء مراسم خاصة قبـــل الصيد تسكينا لروح الحيوان وتخليصا للانسان ، وبعض أنواع الحيوان لهـا قداسة خاصة عندهم ، مثل الأفاعى والتماسيح والحمل ، وللافاعى معابد فى داهومى ، واذا رآها انسان سجد لها وناداها « أبى » ، وخلاصة القول ان لكل أسرة أو عشيرة أو قبيلة صلة قرابة بحيـــوان تبكيه اذا مات ، وتقيم مراسم الجنازة كما تفعل مع الانسان بعد دفنه ، وأن هـــذا الحيوان تقدسه ، ويبدو أن هذه العقيدة قديمة كغيرها من العقـــائد الاصيلة ، ذلك لأن الحضارة القديمة حول بحيرة تشاد تركت تماثيل لها جسد انسان ورأس كبش ، وهذه تفسر كثـــيرا من المظـــاهر التى توجد عليهـــا النقوش فى الحضارات القديمة فى مصر وغيرها ، وربما كانت الفـــكرة التى أوحت بتمثال أبى الهول الذى جسمه جسم أسد ورأسه رأس انسان مصدرها هذه العقيدة .

وليس النبات أقل شأنا من الحيوان ، ذلك لان البدائيين يعتقدون أن للنبات روحا ، وتذهب بامبارا أن نى (Ni) تسرى فى النبات ، ولا بد من أداء شعائر دينية خاصة لبقاء هذه الروح ، ويجعلون ديا فى الطماطم وحدها ، وأن المرأة اذا أكلتها أخصبت اذا واقعها الرجل ، وبعض

القبائل تزعم أن لها صلة قربى أو صداقة بنوع من النبات • ومن القبائل من يوجدون صلة بين الجن وبين النبات ، اذ تذهب بعض قبائل المانجا والباندا أن لكل نوع من الشجر جنية توثرها ، وقبائل كيكويو حين تمهد الارض للزراعة تترك شجرات تفصل بين الواحدة والاخرى مسافة ليلجأ اليها الجن ، الذين يتضرعون لهم ليسكنوها ويغادروا الشجر المجتث •

والقبائل التى تعيش على الزراعة غالبا ما يقدسون الارض والارض هنا معناها الجزء من العالم الذى تحيا فيه القبيلة ، وللأرض روح ، واذا حدث وهاجرت القبيلة الى منطقة أخرى فعلى القبيلة التى تحل محلها أن تستأذن شيخ القبيلة المهاجرة ، واستئذان شـيخ القبيلة وقبوله معناه استئذان شيخ الأرض ، لأن بين القبيلة وبين الأرض أو روحها بمعنى أدق صلة أو تحالفا أو قداسة • والارض عند بعض القبائل هى المعبود الاكبر ، وتقدم لها القرابين فى عيدى بذر الحبوب والحصاد كمـا هو الأمر عند قبائل وسط أمريكا ، وهذه العبـادة وصلت الى درجة أرقى بقليل من البدائية فى وسط أمريكا ، ولذلك أفردنا عنها حديثـا خاصا فى الفصل القادم ، ومحراب الهة الارض عند قبائل لوبى الافريقية شكل مخروطى من الطين يقام الى جانب شجرة عظيمة ، يقدمون لهـا القربان من الخمر وحب الذرة والحلوى ، وفيه تكفر الذنوب أو على الأصح يلتمس الغفران عندها •

ويقول هوبير ديشان (ص ٤١) (وقد تختلط عبـادة الارض بعبادة الاشجار والأحجار والمياه ، ولذلك تقـدس قبائل لوبى بعض الأجمات والدوح العظيم والكهوف والزواحف التى تأوى اليها ، كما يقدسون النهر وماءه ويزعمون أن الجنس الابيض يسكن مياه الانهـار) ، أما قداسة المياه والأنهار فنجدها واضحة فى القبائل التى تقطن المنـاطق الجافة ، ونجدها تقدم القرابين للانهار حين تفيض رجاء أن تسقى أرضها •

وبعض القبائل تؤله مظهرا من مظاهر الطبيعة كالريح والنار وقمم الجبال الى غير ذلك من هذه المظاهر التى تؤثر فى خيالهم فتثير الاساطير حولها(١) •

---

(١) راجع فى هذا كله هوبير ديشان ـ الديانات فى افريقيا السـوداء الترجمـة العربية الفصل الخاص بعبادة الطبيعة •

فكرة الاله

الاله الخالق فكرة موجودة عند البدائيين ، ولكن هذا الاله يتفاوت ضعفه من قبيلة الى أخرى ، حتى ليكاد تنعدم خشيته فى قبائل بعينها ، وذلك لأن الشعوب البدائية خاضعة لمؤثرات تسيطر عليهم ، تلهيهم أو تباعد بينهم وبين تصور آلاله الخالق ، مثل القوى الحيوية والجن والارواح وما يشبهها ، ومن هنا وهنت الصلة بين الانسان وخالقه كما نتصوره ·

يقول هوبير ديشان فى كتابه الديانات فى افريقية السوداء انقبيلة دوجون تعرف الاله الخالق ، وأن له عندهم مكانة عليا ، ولكنه يذكر فى نفس الفقرة أن العبادات التى توجه الى هذا الاله العظيم أقل عددا من العبادات التى توجه الى الاجداد الاسطوريين ، أى الذين خلقهم خيالهم ووهمهم ، وهذه العبادات القليلة بالنسبة الى غيرها تصور أن مكانة الاله فى نفوسهم أقل رهبة من مكانة غيره ، لأن شأنه لو كان أعظم فى قلوبهم لاستغاثوا به مما ينزل بهم من نكبات ، ولما لجأوا الى هذه الوسائل السحرية للوصول لما يتمنون · ومن الدراسة التى قام بها هوبير ديشان عن صلة الاله بالناس يتبين فى وضوح أنهم كانوا يهملون هذا الجانب العقائدى ، وأن هذا الاهمال يختلف أمره قوة وضعفا باختلاف القبائل فى شرق آفريقية وغربيها ·

ومهما يكن من أمر فالفكرة العامة عن هذا الاله هى أنه قديم وأنه بعيد عن الناس ، وألا أهمية كبيرة له فى تصريف شئون الدنيا الجارية ، وأغلب البدائيين على أنه فى السماء ، وان الى جانبه آلهة أخرى يصرفون أمور الخلق ، وهؤلاء الآلهة المباشرون للسلطان يراهم البعض انهم من ذريته ، ويرى آخرون أنهم من خلقه وأنه ترك لهم أو خصص لكل واحد عملا يباشره ·

ويقول هوبير ديشان (الديانات فى افريقيا السوداء ص ٤٨ من الترجمة العربية) (والآلهة الصغرى جماعة موكلة من قبل الاله الأعظم بتصريف شئون البسيطة ، ويختلف عددهم تبعا للبلاد والاقاليم وعامة السودانيين يتخذون أجدادهم الاسطوريين أو أبطالهم المؤسسين لمدنياتهم بدلا من هؤلاء الآلهة الصغار) ويقول عن الجن ص ٥٠ (يوجد فى كل مكان بتلك الأرجاء ما يسمى جن الغاب وبعضهم يصعب تمييزه عن الآلهة الصغرى) ، وصعوبة تمييزهم عن الآلهة الصغيرة أنهم مقدسون أو يخشى بأسهم ، مثلهم فى ذلك مثل الآلهة الصغيرة ، ومن الآلهة الصغيرة من يخشى بأسه ، ومنهم من يتوسلون اليه ابتغاء خيره كاله الماء ·

خاتمة

الحديث عن العقائد البدائية طويل ، وفيها كتب ودراسات قيمة ، ولم يغفل هوبير ديشان المقارنة بين عقـــائد الافريقيين البدائيين وعقائد الامم القديمة ذات الحضارات الخـالدة كمصر واليونان والرومان ، قال (وكانت حضارة اليونان البدائية حضارة زراعية كذلك ، تقدس الزراعة وتقيم لها الاعياد الجماعية وحلبـــات الرقص ، وكانوا يقدسون الجبال والاشجار والارض التى يخلعون عليها صفة الأمومة ، كما اعتقدوا بتجسد أرواح الموتى فى شخصية الجماعة ، وبأن بعض الاشـياء كاللبن والخبز والماء وهى قربانهم للآلهة ترتبط بها خصـــائص دينية ، وكانت عندهم الضحايا من الحيوان وكذلك من البشر ، كما نجـــد عندهم الصلة بين الأفعى وبين تقديس الموتى وشمل اعتقادهم خرافات الحيـوان الآدمى ، وقدسوا الحيوان الواقعى (الدب فى أثينا والكركى فى ديلوس) ، وكان من سنتهم طلاء أجسامهم باللون الابيض وتثقيف الاطفال وتلقينهم أسرار المراهقة ، واستعمال الأقنعة وانتشار الجمعيات السرية الدينية، وتقديس الحداد والاهتمام بالتوائم ، والاعتقاد بالأحلام وبالحظ ، واقامة الأعيـــاد الجماعية الموسمية ، والاعتقاد فى الآلهة العليا البعيدة عن المخلوقات ، والتى تكاد تنحصر مهمتها فى حماية الوجود ، دون أن يكون لها دخل فى الحوادث) ، ولا يفوته أيضا أن يذكر أوجه الشبه بين عقائد قدماء المصريين وهذه العقائد البدائية ، ثم يقول عن الصلة بين العقائد البدائية الافريقية والأديان العالمية (ونحن نستطيع هنا أن نستكثر من هذه المقارنات وأوجه الشبه بين ديانات الزنوج وبين الديانات القديمة فى القـارات الاخرى ، وبينها وبين الخرافات السائدة الى اليوم فى القارة الاوروبية ، بل بينها وبين الأديان العالمية مثل المذهب الكاثوليكى ، اذ نجـد فيه عقيدة الاله الخالق لكل شىء ، والايمان بالارواح ، والخطيئة الاولى للانسان ، وقداس

القرابين وشعائر سر (المناولة) ، وهذه أشبه ما تكون بشعائر التثقيف والختان عند قبائل الزنوج الوثنية)(١) .

والباحث لا يخطئه التوفيق فى أن يجد أصولا مشتركة للعقائد البدائية فى المناطق البدائية فى القارات المختلفة (٢) ، بل ويجد من العقائد فى الأديان العالمية الكبرى ما تمتد جذوره فى أعماق التاريخ ، فنظرية المخلص نجدها تأخذ صورة اسطورية فى العقائد البدائية الافريقية ورثها البدائيون وعمل خيالهم فيها ذلك لأن هوبير ديشان وهو يتحدث عن نظرية الخلق عند قبيلة دوجون قال (... غير ان الجد الثامن وصل الى الأرض قبل السابع ، فغضب السابع وتحول ثعبانا ، فقتله الناس وأكلوه، واستسلم هو لهم ، وتحمل خطاياهم وضحى بنفسه لخلاص البشر (٣) . وليس عجيبا أن نجد أصول النظريات الدينية الكبرى عند البدائيين قد عمل خيالهم ووهمهم فى تلوينها واظهارها فى الصورة التى تتفق ونظراتهم الدينية ، ويشير القرآن الى أن أصول الديانات كانت واحدة ثم اختلف الناس فأرسل الرسل ، وذلك فى قوله تعالى ٢/٢١٣ (**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم**) .

---

(١) راجع الديانات فى أفريقيا السوداء ـ الترجمة العربية ص ١١٣ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) والذى يدرس عقائد العرب قبل الاسلام ـ أعنى فى العصر الجاهلى ـ يجد كثيرا من أصول هذه العقائد البدائية كانت تعيش فى الجزيرة العربية قبل قضاء دين الاسلام عليها ، ويشير اليها : و . روبرتسن سمث فى كتابه القيم (محاضرات فى عقائد الساميين وخاصة فى الصفحات ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ؛ ١١٩ ؛ ١٣٤ ؛ ١٥٠ ، ١٥١ ؛ ١٦٩ ؛ ١٧٨ ـ ط . ادنبره ١٨٨٩) كما يشير الى وجودها فى جهات أخرى من آسيا .

(٣) الديانات فى افريقيا السوداء ـ الترجمة العربية ص ٦٧ .

الفصل الثانى

عقائد وديانات الأمم المتحضرة القديمة

خطت حياة الانسان خطوة موفقة نحو التقـدم والرقى حينما بدأ يسكن المدن والحواضر ، ولكن لم يستتبع ذلك حتما أنه عرف الكتـــابة فدون معتقداته ، ذلك لأنا نعرف أن النصوص الدينية الهندية المبكرة ظلت تتداولها الرواية الشفوية قرونا طويلة . ويذهب الباحثون الى أن التدوين فى السجلات كان فى أول أمره على هيئة صور ، كان على نحـــو ما كان يسجل زعيم قبيلة الداكوتا فى سجله ، الذى كان يثبت فيه السنين ، ولكن مع تقدم الزمن أصبحت أعمال الحكومة والأفراد فى حاجة ضرورية لتدوين معاملاتها ، وكانت هذه الخطوة التصويرية ــ التى وقف عندها هنود أمريكا ــ خطوة تمهيدية للكتابة ، ثم تمكن الناس من معرفة الكتابة بعد جهود ، وبعد أن ابتكروا علامات ولاءموا بين مدلول هذه العلامات وبين الاصوات ، وكانت فى أول الأمر كثـــيرة حتى بلغت فى الكتابة المصرية القديمة أكثر من ستمائة علامة .

وفى تاريخ مبكر تقدم المصريون ، ولم يأت القرن الثالث والثلاثون قبل الميلاد حتى احتوت الابجدية المصرية على ٢٤ حرفا ، تقـدم الانسان بوجه عام فى العالم المتحضر فصارت الكتابة معروفة فى سومر كما كانت معروفة فى مصر ، ولكن يبـــدو أن الحضارة الهنـــدية الموغلة فى القدم لم تعرفها ، ويرجح الباحثون أن المعابد الهندية القديمة تخلو منها نتيجة لذلك .

ان الشــــطر الاكبر من الآثار الدينية التى حصلنا عليهـا تتضمن تراتيل وأدعية ولقـــد عثر بمصر وبراس شمرا السورية على أجزاء من قصص درامية دينية ، وعثر بمصر أيضا على نصوص تدل على محاولات قاصرة لنـــظريات لاهوتية ، وعثر بمصر والعراق على بعض الرســائل الأدبية ، ذلك مقدار ما نعرف أما ما سوف تبين عنه باطن الارض فى مصر والعراق فأمر لا يمكن التنبؤ به ، وربما احتوى على مفـاجآت لم تكن فى الحسبان ، كهذه المفاجأة التى حدثت عنـدما اكتشفت فى العراق ألواح دينية تحمل نصوصا مشابهة لبعض أجزاء من العهد القديم (الجزء الأول من الكتاب المقدس) • ومن الخير أن نترك النصوص تفصح عما تحمل من معتقدات ، ونبدأ بالنصوص الدينية المصرية •

أولا ــ العقائد المصرية القديمة

ان عرض النصوص الدينية المكتشفة والخاصة بمصر القديمة يحتاج وحده الى مجلد ، وهذه المادة الضخمة أتاحت للباحثين أن يترجموها وأن يضموا بعضها الى بعض ، ابتغاء ترتيبها وبيان فكرة عامة عن تطور العقائد عند قدماء المصريين مدى آلاف من السنين ، ولكن هذا العمل الشاق تكتنفه صعاب بالغة الخطورة ، ذلك لأن تاريخها وتحـــديد أزمانها أمر ضرورى لبيان التطور ، وهذا أمر لا ينتظر الوصول اليه لأن هذه النصوص قطع غير كاملة غالبا ، ومن ثم فان تصور التطور الدينى فى مصر القديمة تصورا واضحا وكاملا أمر بعيد المنال ، ذلك لأن بعض النصوص ضائع ، ذهب به الزمن أو احتفظ به باطن الارض ، ولكن ما بقى وما جهد العلماء أنفسهم فى ترتيبه كاف لأن يوجهنا فى القول ، وكاف فى أن نقول كان المصريون القدماء يعتقدون كذا وكذا ، ولكن القطع بأنهم لم يدينوا بكذا أو بكذا اسراف لأن النصوص الشاملة القاطعة لم تصل الينا كاملة •

والنظرة الشاملة لعقائد قدماء المصريين تؤدى الى أن تصور المصريين القدماء للاله قد مر تطوره فى صور متعددة ، وقد ابتدأ كتصور غيرهم من الشعوب القديمة بتعدد الآلهة ، انعكاسا لتصورهم المادى لقوى الطبيعة ، ولقوى الحياة بوجه عام ــ أنها أرباب ، ولكن هذا التصور لفـــكرة الاله ارتقى مع تطور الفكر والحياة ، حتى وصل الى ما يمـــكن أن يقـال انه الوحدانية فى جوهرها بعد تخليص ما شابها من أرباب رسخت فى عقول النـاس أو وهمهم فكادت تطمس هـــذه الوحدانية كمــا نرى ذلك فى النصوص •

وهذه النصوص التى نقدمها هنا يجب أن ينظر اليها على انها نماذج من النصوص التى عثر عليها ، وانها على قدر الامكان تصور عقائد قدماء المصريين ، وهى :

١ ـ أقدم صلاة معروفة لنا تقام للشمس ربما ترجع الى النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد ·

٢ ـ قطعة من درامة دينية قديمة ·

٣ ـ قطعة دينية كانت أولا مسجلة على ورق البردى وربما كان ذلك حوالى سنة ٣٤٠٠ ق·م ، ويظهر أنها كانت ذات أهمية فسجلت على الحجر فى القرن الثامن قبل الميلاد ·

٤ ـ صلاة للشمس الاله وضعت حوالى سنة ١٤١٢ ق·م

٥ ـ شعيرة تقديم الطعام ·

٦ ـ عقيدة التوحيد عند قدماء المصريين ·

ويقول بوكيه ان ترجمات النصوص الهيروغليفية متباينة تباينا واضحا لأمرين هامين أولهما أن الترجمات تؤخذ من أوراق بردية مختلفة، بعضها يتضمن نصوصا لا توجد فى الاخرى ، وثانيهما أن لكل مترجم منهجه الخاص وفهمه الخاص فيما تعنيه النصوص ، ومن ثم فانه لا يمكن الجزم : أى الترجمات هى الأفضل ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ان الوصول الى المعنى الذى كان فى ذهن المصريين القدماء وهم يتلون هذه النصوص أمر يصعب الوصول اليه ، فاذا أضفنا الى قول بوكيه أننا نترجم عن ترجمة ، وكان أصوب لنا أن نأخذ النصوص عن مصادرها الأصيلة ، ولكن أنى لنا ذلك ، وعلى أية حال فعرض هذه النصوص مأخوذ عن علماء متخصصين ·

١ ـ أقدم صلاة للشمس

ترجع الى سنة ٣٥٠٠ ق·م ترجمة (Weigall)

تحيات اليك يا أتم (Atum)
تحيات اليك يا خبرر (Kheprer)
الذى بنفسه سار (أو مولد نفسه)
أنت عال ومن ذلك اسمك من العلو

صرت (hpr) ومن ذلك اسمك من (hprr)

هنيئا لك يا عين حورس (مصر)
التى زينها بكلتا ذراعيه ٠

❋

انه يرخص لك (مصر) فى ألا تصغى الى الغربيين ٠
انه يرخص لك فى ألا تصغى الى الشرقيين
انه يرخص لك فى ألا تصغى الى الجنوبيين
انه يرخص لك فى ألا تصغى الى الشماليين
انه يرخص لك فى ألا تصغى الى القاطنين وسط الارض
ولكن فلتصغ اليك يا حورس ٠

❋

انه هو الذى زينك
انه هو الذى بناك
انه هو الذى أقامك
فنفذى له كل شىء يقوله لك
فى أى مكان يذهب

❋

انت تحملين له عكر المياه الزايدة التى فيك
انت تحملين له عكر الحياة الزائدة التى ستكون فيك
انت تحملين له كل شجرة فيك
أنت تحملين له كل شجرة ستكون فيك
انت تحملين له كل طعام فيك
أنت تحملين له كل طعام سيكون فيك

❋

انت تحملين له كل الخيرات التى فيك
انت تحملين له كل الخيرات التى ستكون فيك
انت تحملين له كل شىء فيك
انت تحملين له كل شىء سيكون فيك
انت تجلبينها اليه
الى كل مكان يتوق قلبه أن تكون به

الأبواب التى عليك واقفة فى ثياب كانموتف
تفتح لا للغربيين
تفتح لا للشرقيين
تفتح لا للشماليين
تفتح لا للجنوبيين
تفتح لا للقاطنين فى منتصف الأرض
تفتح لحورس
انه هو الذى خلقها
انه هو الذى أقامها
انه هو الذى أنقذها من كل شر فعله ست بها
انه هو الذى أقام (grg) بك
من ذلك اسمك من « مواطن السلام » (grg-wt)
انه هو الذى أخذ يسجد (nyny) وراءك
من هذا اسمك من « المصر » (nwt)
انه هو الذى خلصك من كل شر
الذى قام به ست نحوك

* * *

من الواضح أن هذه التراتيل فى الصـــلاة تصور تعدد الآلهة عند قدماء المصريين ، وتبين أنها آلهة محلية قاصرة على مصر وحدها ، ولم يكن لها الشمول أو العالمية التى نراها بعد ذلك بتطور الفكر الدينى ٠

٢ ـ قطعة من دراما دينية

(من دراما الرامسيوم) تبين قدرة الآلهة

هذه القطعة جزء من الدرامة الخطيرة التى احتفظت بها أوراق البردى التى عثر عليها بالرامسيوم ، تتضمن ستة وأربعين مشهدا ، ويظهر أنها ألفت لتمثل عند اعتلاء سيزوستريس الأول عرشه ، وهذه الدرامة عثر عليها مع مجموعة من أوراق البردى يرجع تاريخ كتابتها الى الاسرة الثانية عشر ، ويقول (Sethe) سيث ان ألفـــاظها والموضوعات التى تناولتها توحيان بالقول بأنها أقدمها جميعا ، وان كانت قد وجدت مع آثار زمن يمكن أن يؤرخ بأنه حوالى سنة ٢٠٠٠ ق٠م ، ذلك لأن هذه الدرامة لايمكن أن تكون متأخرة عن زمن سيزوستريس الأول ، ويحدثنا سيث عن هذه

الدرامة بأنها وضعت للاحتفالات الدينية ، ذلك لأن عناصرها ملائمة للتعابير الرمزية التى تتضمن الأسرار الدينية التى كانت تشيع حتى زمن هذا الملك .

تتألف الدرامة من ستة وأربعين منظرا ، ويسبق كل منظر توجيهات مسرحية ، وأشخاص الدرامة آلهة وهى من هذه الآلهة التى كان المصريون يؤمنون بما فى مقدور كل منها من قوة ، مثل حورس ، وثث (Thoth) وست (Sethe) ، وأوزيريس (Osiris) ، وغيرهم مما كان يعتقد أنها قادرة على الخير والشر والدرامة من هذه الناحية يظن أنها تشبه أجزاء الدرامة التى عثر عليها الأثريون الفرنسيون فى راس شمرا حديثا ، والمحقق ان كلا منهما تختلف عن الاخرى فى التفاصيل ، ولكنهما على أية حال تعنيان بمظاهر الخصب فى الطبيعة ، وبمظاهر التغير والتحول فى الحياة ، وبمظاهر الانبات والحصاد ، وبمظاهر تتابع ظهور الوسائل التى تدفع الحياة ، ومن المرجح أن وضع هاتين الدرامتين كان يقصد به دفع الأنظمة الدينية الموروثة نحو التطور والرقى ، تلك الأنظمة والشعائر التى ترتبط بالحياة وبأحداثها ، والتى كان يعتقد ان اقامتها والتمسك بها ضروريان لتجديد مظاهر الحياة ونشاطها ، نقول هذا قياسا الى ما تدعو له البرهمية ، التى تجعل البرهمى يعتقد بضرورة الصلاة يوميا لضمان انتظام شروق الشمس وغروبها ، تلك الشمس التى يتوقف عليها خير البشر وسعادتهم ، وعلى ضوء هذا فان تمثيل الدرامتين الدينيتين فى أوقات محددة وبطريقة مثيرة لا تبعد كثيرا عن الطرائق السحرية المثيرة التى كان يتوسل بها البدائيون لتأتى المواسم الزراعية بعميم الخيرات ، ويذهب سيث (Sethe) الى أن تمثيل الدرامة المصرية فى الاوقات المحددة كان يبتغى لتحقيق أغراض داخلية ، لاحتمال الطواف بها لتمثيلها فى المدن الرئيسية ، على أنها من ناحية مظهر من مظاهر الاحتفال بارتقاء فرعون مصر سيزوسترينس الأول العرش ، ومن ناحية أخرى وسيلة لنشر هذه المظاهر الدينية فى أجزاء البلاد ، بدليل أن أحد أشخاص الرواية يقوم بدور المتحدث بلسان الملك ، واليك المشهدين اللذين نوردهما لهذا الغرض ، مترجمين عن سيث :

المشهد التاسع عشر

دخول حالبتى اللبن والجزارين

وحدث أن اثنتين من حالبات اللبن أدخلتا . حورس يتحدث الى أبنائه .

حورس (مخاطبا أبناءه) : ستملأون على بيتى على الارض بعينى ٠ (أبناء حورس)

(حالبتا اللبن)

حورس (مخاطبا ست) : يجب أن تأتوا بها بأنفسهم ٠ (أبناء حورس) (الجزاران)

حورس (مخاطبا ابناء حورس) : لقد حميتكم (أبناء حورس) (ذرية الملك)

حورس (مخاطبا أبناء حورس) : ٠٠٠٠ وضع على الارض

المشهد الثالث والعشرون

تسلم العقد ذى الحبات

وحدث أن جيء بعقد ذى حبات ٠ حورس يأخذ عينه مرة أخرى من ست ٠

حورس (مخاطبا ست) : لقد أخذت عينى التى هى حبة حجرك ٠ (العين) (حبة) ٠

حورس (مخاطبا ست) : أدر ظهرك اذا نظروا اليك شذرا (العينان) (حبتا الحجرين) (اثنتان تدعيان بطنين بشريين) (منزل ست)

حورس (مخاطبا ست) : ايتنى بعينى التى كانت عندك حبة حمراء التى كانت حمراء دموية فى فمك (العين الحمراء) (ال ٠٠٠ ؟) لتوبوليس٠

***

من هذين المشهدين نستطيع أن نقول ان عبارات الدرامة مقتضبة، ولاحظ فيها من ذلك التنميق الادبى الذى تمتاز به الدرامة اليونانية ، فضلا عن أنها تتميز بالغموض، ذلك لأنها صيغت وألفت بطريقة لايستطاع معها فى الوقت الحديث فهم الاشارات فيها ، وكل ما نستطيع معرفته منها على وجه اليقين أنها درامة دينية ، وأنها تتألف من مشاهد لا يطول فيها الحديث ، وأنها تعتمد على الاشارة والرمز ٠

واذا نظرنا الى هذين المشهدين من الناحية الموضوعية نجد أن المتحدث هو الاله حورس ، ونحن لا نستطيع فهم العبارات التى وردت على لسانه الا اذا استأنسنا بالاسطورة الشائعة ، التى تتحدث عما بين حورس

وست من صراع ، فهذه الاسطورة تقول ان اله العواصف ست قد أحدث العمى للاله حورس ، وهذا العمى لا يتأتى له الا عن طريق البرق ، ولهذه الصلة جاءت لتوبوليس التى نراها فى آخر المشـــهد ، فهو اسم مدينة الصـــواعق فى مصر ، ذات الصلة الوثيقة باسطورة احداث العمى لأحد الآلهة • ومما يزيد الأمر وضوحا ما نعرفه من أن فكرة أو عقيدة احداث اله العواصف للعمى عقيدة لا تزال موجودة فى بعض أجزاء من افريقية الى اليوم ، وأنه يحدث هذا العمى بالبرق الذى يأتى به بعد تلبـد السـماء الصافية بالسحب ، هذه العقيدة توضح لنا العقيدة المصرية القديمة التى تفصح عنها هذه الدرامة ، التى منها نعرف أنه كان بين الهين صراع أدى الى احداث العمى لأحدهما ، وأن الأعمى منهما طلب من الآخر عينه ورمز الى هذا بطلب حبة الحجر • أما ما يتصـــل بخصب الارض وادرار الماء للنبات فغير واضح فى الدرامة ، ولكن اذا التمسنا الوضوح لجأنا الى هؤلاء الافريقيين البـدائيين مرة أخرى ، الذين يتميز جو بلادهم بالجفـاف ، والذين ينظرون الى المطر على أنه ضرورة ملحة ، والذين يعتقدون ان المطر لا ينزله الا كائنات علوية سواء كانوا كهنة أو آلهة ، فهؤلاء يعتقدون ان منزل المطر يتعرض لخطر الاصابة بالبرق ، فاذا لم يكن قديرا أو ماهرا فى صيانة نفسه أصابه العمى ، فعلى ضوء هذا يمكن القول أو تفسير الدرامة بأن الاله حورس ــ اله السماء الصافية ــ قد نكبه الاله ست اله العواصف، فأصابه بالعمى ، وذلك حين أرسل السحاب والمطر لتحظى الارض والنبات بما يحتاجان اليه منه ، ومن هنا تكون الاشارة الى خصب الارض تدرك من طلب رد العين فى الدرامة •

***

هذا النظر الدينى الى الآلهة تطور وظهرت بعده فكرة وحدة الخالق، وهو تطور نراه فى ممفيس كما نراه فى هليوبوليس ويبـدو فى نظرية الخلق •

٣ ــ نظرية الخلق

فى القرن الثامن قبل الميلاد عثر أحد فراعنة مصر المسمى شباكو (Shabako) فى معبد الاله بتـاح بممفيس على ورقة بردى عبثت بها الأرضة ، وتراءى لهذا الفرعون أن هذه الورقة ذات أهمية دينية ، فأمر بكتابتها على الحجر ، والمظنون أن هذه الورقة المتآكلة يرجع تاريخ كتابتها

الى ما قبل أو حوالى سنة ٣٤٠٠ ق٠م فكانت اعادة كتابتها على الحجر هى التى أتاحت لهذا النص أن يعيش ، والتى أتاحت لنا الوقوف على عقيدة المصريين فى الالف الرابعة قبل الميلاد ، تلك العقيدة التى كانت فيما يبدو معقدة • سجل الكاهن المصرى العقيدة مبينا أن للعالم الها واحدا ، ولكن تصـــور العقيدة لهذه الوحدانية تختلف عمـــا نراه نحن المسلمين فى الوحدانية ، والعالم كما تتصوره هذه العقيدة يكاد يكون وادى النيل ، أما ما وراء هذا الوادى فلا تعرف عنه الا قليـــلا ، كما نلحظه فى قطعة ممفيس هذه ولكن يمكن أن نرى فى هذا التصـــور الدينى أول محاولة نعرفها لنظرية الخلق ، وهو تصور يختلف عما تقول به الاساطير ، التى عثر عليها بالعراق ، والتى سنشير اليها فيما بعد حين حديثنا عن العقائد البابلية ، ومما هو جدير بالذكر أننا نلاحظ فىهذه العقيدة تطورا وخطوة نحو الأمام ، عما كانت عليه العقيدة فى هليوبوليس ، وذلك حين حاول العقل البشرى أن يبذل محاولة لجعل جماعة الآلهة تستمد قوتهـــا من اله خالق هو سيدها ، ذلك لأن نصـــوص ورقة البردى التى عثر عليها فى ممفيس تذهب الى أن بتاح ـ الاله العظيم ـ له ثمـــانية أوجه أو مظاهر يتشكل فيها ، وتذهب الى أن بتاح هوسيد الآلهة ويمارس أتم (Atum) ـ اله الشمس ـ قدراته عن طريق بتاح ، واذن فصلة بتـاح بأتم شبيهة بصلة لوجس (Logos) فى العقيدة الهيلينية بالاله الأب •

فاذا تركنا هذه المقارنة ونظرنا الى النص نجده يذهب الى أن العالم كان أولا فكرة عند الاله ، ثم تصور فى عقله ، ثم صار الى شكل بكلمته ، وانه هو بتـاح الموجد للآلهة الآخرين ، شأنه فى ذلك شأن ماردك عند البابليين •

واليك شطرا مما ذكرته ورقة البردى ، واحتفـظ به التدوين على الحجر ، الذى أمر به شـباكو فرعون مصر ، والذى هو محفـــوظ الآن بالمتحف البريطانى بلندن ، وهذا النص على شـكل الدرامة التى وجدت بالرامسيوم السابق ذكرها ، ونحن نوردها عن ويجال (Weigall) :

حدث أن القلب واللسان فازا بالسلطان على أى عضو ، قائلين بأنه (بتاح) كان (على صورة القلب) فى كل صدر وعلى هيئة اللسان فى كل فم ، عند كل الآلهة وكل النـاس وكل الحيـــوان وكل الزواحف وكل المخلوقات ، وذلك حينما كان (بتاح) يفـــكر وحينما كان يدبر كل شىء يبتغيه ٠٠ انه هو (القلب) ٠٠ الذى يسبب لكل خاتمة أن تخرج ، وأنه هو اللسان الذى يعلن عن أفكار القلب ٠٠ لقد صاغ كل الآلهة ، وحتى أتم (Atum) فقد صاغه ، وصاغ وحدانيته بنفسه ، وكل كلمة ربانية انما

تخرج الى الوجود بتفكير القلب وبأمر اللسان ، وانه هو الذى صاغ الأجسام (وخلق) الصفات ، انه هو الذى خلق كل الأطعمة وكل الضحايا بالكلمة، وهو الذى خلق ما هو محبوب وما هو مكروه ، وانه هو الذى أحيا المسالمين وأمات المذنبين •

انه هو الذى خلق كل عمل ، وكل صنعة تصوغها الايدى ، ومشى الأقدام وحركة كل عضو ، تبعا لأمره عن طريق تفكير القلب الذى يتحقق باللسان •

من المأثور أن أتم — الذى خلق الآلهة — قال عن عمل بتاح الخفى : انه صائغ الآلهة ، ومنه تصدر كل الاشياء والضحايا والاطعمة وضحايا الآلهة وكل شيء حسن ، ولقد أدرك ست أن قوته تفوق قوة الآلهة جميعا ، وعندئذ رضى بتاح بعد أن صاغ كل الأشياء وكل كلمة مقدسة •

هذا جزء من قصة الخلق كما سجلها الحجر المحفوظ بالمتحف البريطانى ، ولكن ينبغى أن نذكر أن ترجمة نص كهذا ونقله يحتاجان الى أن نورد ، انه منقول عن أصل أقدم منه جدا ، وربما أخطأ الناقل فى النقل أو حرف فى الأصل ، نظرا لأن بعض الاصطلاحات الدينية ينالها التغيير أو التطوير بمرور الزمن ، ونحن لا نستطيع أن نجزم أن هذا النص هو النص القديم ، يضاف الى هذا ما يراه المترجمون الى اللغات الحديثة من صعوبة فى نقله الى لغة حديثة ، ولكن أمثال ارمان (Erman) وبرستد (Breasted) يمكن الاعتماد عليهما فى الوصول الى النص المقبول ، ومن الواضح أن كاتبه لم يقتنع بالاساطير الشعبية ، ولذلك فانه حاول أن يأتى بفكرة جامعة عن الخلق •

ولا يفوتنا أن نذكر فى ختام هذه الكلمة أن أحدث ترجمة لهذا النص قام بها ج٠ا٠ ولسن (J.A. Wilson) وبين الترجمة التى ذكرناها وهذه الترجمة الحديثة اختلافات ، ولكن على الرغم من هذه الاختلافات فان المعنى فى النهاية واحد ، وكلاهما يتفقان على أن هذا النص محاولة قديمة جدا للقول بنظرية كلمة الله •

هذا التطور الذى جاء بعد مرحلة التعدد الخالص من رد القدرة الى اله خالق وحيد يصور رقيا فى الفكر الدينى، لأنه رأى أن الكون ومايشمله من تدبير قدرة عاقلة آمرة هى بتاح ، الذى أوجد نفسه بنفسه ثم بعد ذلك أبدع الكون بما يحتوى من بشر وحيوان وحشرات وغير ذلك ، وتم الخلق عن طريق العقل والكلمة ، ولا ينفى نفيا باتا ما فى هذا التفكير

الدينى من قول بوجود أرباب ، لأنها وان دلت على تعدد الهـة فانهـا احتفظت بتفرد بتاح بالخـلق ، وهو المقصود بالوحدانية أو فكرة وحدة الخالق السابق الاشارة اليها .

٤ ـ صلاة للشمس الاله فى حوالى سنة ١٤١٢ ق.م

نورد بعد ذلك هذه الصلاة ، وهى تتضمن تطورا للآراء الدينية ، التى وردت فى ورقة البردى التى عثر عليها فى ممفيس :

تحيات اليك ، يا رع اله الحقيقة
الذى معبدك محجوب ، يا اله الآلهة
خبرى (Khpri) فى منتصف سفينته
والذى قاد والآلهة صارت .
أنت الذى صنعت الناس
والذى قررت صورتهم
يا صانع مئونتهم .
والذى ميزت لونا (جنسا) عن آخر
والذى تسمع دعاء من هو فى الأسر
والذى هو رحيم القلب حين يستنجد به الانسان
والذى ينقذ الجبان من الطاغية
والذى يخلص الضعيف من القوى
يا اله المعرفة الذى فى فمه التمييز
والذى يقدم النيل حبا فيه
اله الرقة ، العظيم فى الحب
الذى بمقدمه يحيا الناس

*

وحيد المثال خالق ما يكون
الوحيد والواحد ، خالق ما هو كائن
الذى من عينيه جاء الناس
والذى من فمه خرج الآلهة
يا صانع العشب للماشية
وشجرة الحياة للبشر
الذى يقوت السمكة فى المجرى
والطير تجوب السماء

والذى يبعث الحياة للفرخ فى الدحية
ويمنح الحياة لولد الدودة
والذى يخلق ما عليه تعيش البعوضة
والديدان والحشرات كذلك
والذى يعطى مئونة الفيران فى جحورها
والذى يبقى الطيور حية فى أشجارها .
تحيات اليك من خلقت كل أولئك
أنت أحد وواحد لا غير بأذرعة كثيرة
مركبتك فى يقظة بينما كل الناس ينامون
ساعيا بالأشياء الطيبة لرعيته
أمون ، يحتمل فى كل الأشياء
أتم حارختى (Atum-Harakhte)
المجد لك فى كل ما يقولون
المسرة لك من أجل « بقائك معنا »
السجود لك من خلقتنا
تحيات لك ، تقول كل الرعية
التهليل لك ، تنطق كل منطقة
الى أعلى عليين ، الى عرض الأرض
الى أعماق البحر

*

خلصنى
أشرق على
فأنت صانع قوتى
أنت الاله الواحد ، لا يوجد آخر
حتى رع ، الذى يبزغ فى السماء
أتم صانع الناس
الذى يسمع الصلوات من الذى يتوسل اليه
الذى ينقذ الرجل من الطاغية
الذى يأتى بالنيل لمن هو بينهم
الذى يقود ـ من أجل الناس
عندما يشرق ـ الناس يحيون
وقلوبهم تحيا عندما يرونه
الذى يمنح الحياة لمن هو فى البيضة

الذى يجعل الناس والطير تعيش
الذى يعطى مئونة الفيران فى جحورها
والديدان والحشرات كذلك

*

المجد لأمون
اصنع التراتيل باسمه
وأثنى عليه
الى أعلى علبين
والى عرض الأرض
أخبر عن شجاعته
عنه الذى يشرع فى المجرى السفلى
وعنه الذى يشرع فى المجرى العلوى

*

اتقيه
رددها للابن وللبنت
للكبير وللصغير
بلغها للجيل بعد الجيل
ولمن لم يولد بعد
أذكرها للسمك فى المجرى
للطير فى السماء
رددها له الذى لم يعرفها
وله الذى يعرفها .
اتقيه

*

أنت يا أمون اله السكون
الذى يأتى عند صرخة الفقير
عندما أجأر اليك فى محنتى
عندئذ تأتى وتخلصنى
وقد تمنح الحياة له من يكبو
وقد تخلصنى موضوعا فى الوثاق
أنت ، أمون ــ رع ، اله طيبة ، أهو
الذى ينقذ من هو فى شمال العالم ...

عندما يجأر الناس اليه

انك هو الذى يأتى من بعيد

***

هذا التصور الدينى فى الوحدانية ـ وحدانية الخلق ، يقوم على اله عظيم يتأتى منه الخلق والى جانبه أرباب ، تركز هذا التصور فى الاله أمون ، رأوه خالق الأرباب وواهب الحياة لكل كائن حى ، ويتميز هذا الفكر الدينى عن سابقه بميزتين الأولى أن هذا الاله ليس محليا وانما اله عالمى والأخرى أنه مع قدرته خفى ٠

***

ويجدر بنا قبل التحدث عن أرقى فكر دينى فى التوحيد عند قدماء المصريين وفق ما لدينا من نصـوص أن نورد ما يأتى توضيحا للتصـور الدينى ونظرته الى فرعون ٠

٥ ـ شعيرة تقديم الطعام ترجع الى العصر الوسيط سنة ٢٤٠٠ ق٠م :

واليك شعيرة من شعائر قدماء المصريين ، تتخذ تكريما لميت ، كانوا يقدمون الخبز للاله هدية بطقوس خاصة ، رجاء رضاه عنه ، وهذه الشعيرة يصورها تسجيل لها ، ونحن نوردها عن ترجمة ج٠ا٠ولسن
: (J.A. Wilson)

(كلمات تتلى) : يا أوزوريس الملك نفر ـ كا ـ رع ، خذ لنفسك عين حورس ارفعها الى وجهك ٠ (رفع للخبز والجعة)

(الرفع الى أمام وجهه ٠ كلمات تتلى) : ارفع وجهك يا أوزوريس ارفع وجهك ، هذا الملك نفر ـ كا ـ رع الذى فارقته حالة المجد ٠ ارفع وجهك ، فهذا الملك نفر ـ كا ـ رع حاز الشرف والفطنة ، فأنت قد تنظر الى ذلك الذى صدر منك ٠٠ طهر نفسك أيها الملك نفر ـ كا ـ رع ٠ افتح فمك بعين حورس ، فأنت سميت نفسك كا ، مثل أوزوريس ، كى يقيك من كل غضب على الموتى ، أيها الملك نفر ـ كا ـ رع فتقبل هذا خبزك الذى هو عين حورس ٠ يوضع على الأرض أمامه) ٠

ومن الملاحظ فى هذا القداس أن شخصية الملك تبدو ذات قداسة شبيهة بتلك القداسة التى منحها القوم لأوزوريس ، كما أن الخبز المقدم قربانا للاله اتخذ صفة القداسة لأنه قوبل فى الطقوس بعين حورس ،

ومن ثم يمكن الاستنتاج أن الملك مثل أوزوريس من هذه المقابلة وأنهما يوحيان بصفة القداسة التى ذكرناها ، ويمكن الاستدلال على أن هذا الحفل الدينى أقيم بعد موت الملك من القول « هذا الملك نفر ـ كا ـ رع الذى فارقته حالة المجد » • واذا استأنسنا بالأسطورة القائلة بأن حورس الابن البار قدم عينه فى الصراع نيابة عن أبيه كان الرمز عن البنوة البارة هو أن تعطى عين حورس فى هذه الطقوس الدينية •

٦ ـ عقيدة التوحيد :

الحق أن عقيدة التوحيد لرب العالمين ، رب المشارق والمغـــارب ، رب السماء والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، عقيدة لا توحى بها نصوص جاءت عن الأسلاف الا عن القرآن ، أعنى أن نصوص الاسلام وحده هى التى سلمت وظلت كما نزلت ـ على نحو ما يعتقد المسلمون ـ من أن ينالها تحريف ، ذلك لأن النص الأصلى أو آيات القرآن الكريم ـ ظلت بمنأى عن الرواية بالفهم أو بالمعنى ، ورواها المئات كما نزلت باللفظ ، واعتبر حفظ وتلاوة القرآن الأســاس عند المســلمين ، وظل التفسير وحديث الرسول صلى الله عليه وســلم لا يختلطان بالقرآن ، وحرص المسلمون منذ أول أمرهم أن يحاط القرآن بسياج من المنعة من التغيير ، واتخذوا فى سبيل ذلك وسائل يتحدث عنها التاريخ بافاضة ، وعلى ذلك فعقيدة الاسلام هى العقيدة الوحيدة التى نستطيع أن نقول فى جزم أنها وردت لنا كما بشر بها رسول الاسلام عليه السلام • نقول هذا بمناسبة عقيدة التوحيد التى تنسب لاخناتون ، هذه العقيدة التى تدعو الى وحدانية الاله والتى سبقها تمهيد أو محاولات فى سبيلها ، كما تدل على ذلك النصوص التى أوردناها ، ولكن يجب علينا أن نحتاط فنقول أن المعرفة الكاملة لعقيدة لا يمكن أن تتأتى الا من كل النصوص التى تصورها فى زمنها بلسان الداعى اليها • حقا لدينا مقطوعات معربة قديمة يتصور للوهم أو للعقل أنها تؤدى الى معرفة هذه العقيدة ، ولكن الزمن كفيل بنفى أو اثبات صحة هذا الظن ، ذلك لأن باطن الأرض فيما يرجح يكمن فيه الكثير ولم ير النور بعد •

ان معلوماتنا عن ديانة قدماء المصريين ينبغى أن تكون دائما موضع مراجعة واعادة نظر ، ذلك لأنا ندرس عقائد فترة طويلة فى التاريخ ، تتصف بوضعين ، أحدهما القدم والآخر هو أن معلوماتنا عن العقائد فى

هذه الفترة من التاريخ ليست متصلة الحلقات يقينية الترجمات ، فنحن مثلا لا نستطيع أن نعرف ماذا كان يدور بخلد المصرى القديم عندما كان يسمع كلمة (Pâ nêter) أى المعبود ، وعلى أى نحو كان يمتثل فى خياله ، وكنه الصورة التى كانت تتمثل لدى القروى ولدى المدنى ولدى رجل الدين ، وهل كانت جميعا واحدة وفى مستوى واحد أو كانت متعددة وفق رقى العقل عند كل ٠ ان معلوماتنا مأخوذة عن أوراق البردى ، وهى أوثق شيء لدينا حتى الوقت الحاضر ، وهى بلا ريب تمثل وجهة نظر فحول علماء العقائد فى الحياة المصرية القديمة ، ومن ثم لا نستطيع أن نعرف كم من الناس كانوا يعتنقون العقيدة على هذا الوجه أو ذاك ومدى تأثرهم بها ، ولكنا نعرف الصورة التى كانت فى ذهن رجل الدين أو الكاهن عن العقيدة ، وهذا ما نبتغيه فى معرفة الأديان ٠

وهنا نقطة يجب علينا الا نهملها وهى العقيدة الموسوية وقيامها على التوحيد ، ذلك لأنا نعرف أن موسى عليه السلام عاش فى مصر ، وعقيدة التوحيد اتخذت لنفسها مراحل وأدوارا ، فهل تأثر موسى عليه السلام بهذا التوحيد المصرى وصبه فى القالب الذى طمح اليه ؟ مما لا شك فيه أنه عليه السلام عاش فى مصر وأنه كان عارفا بعقيدة المصريين فى زمنه ٠ ونحن نقول هذا على سبيل الفرض ، أما معلوماتنا التاريخية عنه عليه السلام فهى قليلة ، لا تنبىء عن شيء من تأثر بعقائد المصريين ، والكتب السماوية وهى بلا شك مصدر هو على أقل تقدير يقف فى مستوى غيرها من نصوص ، تذهب جميعا الى أنه أوحى اليه بعقيدته ، جاءه الوحى من ربه يبين له العقيدة التى أرسل بها الى فرعون - كما يقول القرآن - والى بنى اسرائيل لتعليمها ، والتى بعث ليبشر بها ، وعلى ذلك فالمنهج العلمى يلزم الذى يقول بتأثره بتوحيد المصريين بايراد النص الذى يؤكد أخذه التوحيد عن عقيدة المصريين ، ايرادا قويا يقف فى نفس المستوى المنهجى الذى أتى فى الكتب السماوية والذى يؤكد أن توحيده هو من وحى الله خالق الخلق ، أما وهـذه النصـوص أو هذا الاثبات بأنه متأثر بعقيدة المصريين لم يقم عليه دليل للآن ، فان قول بعض الباحثين بوجود هذا التأثير أو باحتماله شبهة قامت على الظن وبلا نص ٠ ومن الخير أن نهملها لأنها تعصب أو زيغ لا تقره مناهج البحث ، وخاصة أن التوحيد الذى جاء به موسى عليه السلام يقوم على أسـاس مختلف عن الأسـاس الذى تلونت بطابعه عقيدة المصريين القدماء ، وانى أرجىء الحديث عن توحيد موسى عليه السلام الى موضعه من هذا الكتاب ، ونمضى الى توحيد المصريين القدماء كما تدل عليه نصوصهم ٠

يقال ان اخناتون حين تولى العرش بدأ حكمه بأن اتخذ موقفا وسطا بين عبادة أمون وعبادة أتون وتعاطف مع كهنة العبادتين زمنا الا أنه بعد ذلك أخذ يمهد لعقيدته الدينية بالدعوة لأتون الحى قائلا ان هذا الاله ما هو الا رع ولكن ترتب على هذه الفكرة الدينية عداء بينه وبين كهنة أمون انتهى بأن أعلن اخناتون عقيدة التوحيد خالصة من تعدد الأرباب ، متمثلة فى أتون الحى الذى تجب عبادته كلما سقط من كوكبه على الأرض شعاع منه ، وانتهى أيضا بتغيير اسمه الى اخناتون نافيا عن نفسه نسبته الى أمون ، وندع النصوص تتحدث عن العقيدة ٠

والنصوص التى نوردها هنا : أ ـ نصوص دينية تتضمن هذا التوحيد ، ب ـ مواعظ دينية تتضمن بعض نصوصها أنها من تعليمات الاله ٠

(أ) نصوص دينية تتضمن التوحيد :

أناشيد أنشدت لتسبيح الاله العظيم أمون اله طيبة ، وتاريخها يرجع الى ما بين سنة ١٣٢١ ـ ١٢٠٥ ق ٠ م (مترجمة عن ج٠١٠ ولسن (J.A. Wilson) :

أول من جاء الى الوجود فى الأزمان الأولى أمون ، جاء الى الوجود ابتداء ، ولذلك فان طبيعته الخفية مجهولة ، لا اله أتى الى الوجود قبله ، ولم يكن معه اله آخر ، حتى يمكن أن ينبىء عن هيئته ، ليس له أم يمكن أن يقرن اسمه بها ، وليس له أب قد ولده يمكن أن يقول : هذا أنا واضع بيضته ، خفاء عجيب الولادة ، هو الذى خلق جماله ، الاله المقدس الذى جاء الى الوجود بنفسه ، وكل الآلهة أتت الى الوجود بعد أن قام هو ٠

الواحد هو أمون ، مخف نفسه عنهم ، مستتر عن الآلهة (الآخرين)، ولذلك فان لونه غير معروف ، هو بعيد عن السماء ، هو غائب عن العالم السفلى ، فلاآلهة تعرف حقيقة شكله ، وصورته لا تبين فى المدونات ، لا أحد يشهد برؤياه ٠٠٠ هو من الغموض بحيث أن جلالته قد تتجلى ، وهو من العظمة بحيث يجب أن يسأل (الناس) عنه ، ومن القوة بحيث ينبغى أن يعرف ، التلفظ باسمه ـ فى السر أو فى العلن ـ يوقع فى الحال فى شدة قاتلة ، ونظرا لأنه خفى لا أحد من الآلهة يعرف كيف ينادى الروح الذى يخفى اسمه ٠

كل الآلهة ثلاثة : أمون ورع وبتاح ولا تالى بعدهم ، الخفى اسمه أمون ، هو رع فى وجهه ، وبتاح فى جسده ، ومدنهم على الأرض مستقرين فيها على الدوام وهى طيبة وهليوبوليس وممفيس والى الأبدية •

تأتى رسالة من السماء تسمع فى هليوبوليس ، ويعاد تلاوتها فى ممفيس لجميل الوجه ، تصاغ فى رســالة بانشاء ثث (Thoth) تتعلق بمدينة أمون وحقهم أن يملكوا متـاعهم ، ويجـاب عن الأمر فى طيبة ، ويصدر بيان : أنهـا ملك لأنيـد (Ennead) ، كل شىء يصدر من فمه هو (بذاته) أمون ، وتتكون الآلهة وفقا لأمر يتسبب عنه ، تأتى رسالته : اما أن تقتل واما أن تحيا ، فالحياة ثم الموت فيها لكل فرد •

انه وحده أمون مع رع ومع بتاح ، فى الجملة ثلاثة ••• ويعلق بوكيه على هذا التثليث فيقول انه من الخطأ الزعم بأن هذا التثليث للاله ارهاص بالتثليث النصرانى ، ويفسره بأنه يمكن أن يكون لونا آخر من الوان جمع الآلهة فى تثليث كما حدث فى الهند ، والواضح أن النص المصرى القديم هو لون من ألوان التثليث لأنه قائم على أساس الاجتماع فى واحد ، ومن ثم فان نفى بوكيه يحتاج الى تعليل آخر • وهـذا النص يصور عقيدة أمون زمن اخناتون كما يظن •

تسابيح لأتون (عن ترجمة ويجال ــ Weigall)

روعة وقوة أتون الكلية

ظهور الفجر جميل فى الأفق من السماء
يا أتون الحى ، يا أول الحياة •
حين تطلع فى الأفق الشرقى
تملأ كل قطعة من الأرض بجمالك
أنت جميل وعظيم ومتألق فى العلياء من كل أرض
أشعتك ، تحيط بالبقاع ، وبكل ما خلقت
أنت رع ، وأنت تحملهم جميعا أسرى
تربطهم بحبك •
ومع أنك بعيد جدا فعلى الأرض أشعتك
ومع أنك فى العلياء فالنهار آياتك

الليل

عندما تغيب فى الأفق الغربى من السماء
تكون الأرض فى ظلام كالموتى
هم نائمون فى حجراتهم
رءوسهم مغطاة
وخياشيمهم ساكنة
ولا أحد يثير الآخر
بينما كل أشيائهم مسلوبة
التى هى تحت رءوسهم
وهم لا يعلمون ٠
كل سبع يخرج من عرينه
وكل الأفاعى ، هى تنهش
الظلام ٠٠٠
العالم فى سكون
هو الذى صاغها يستقر فى أفقه
(واستخدمت المقابلة بين النهار والليل لتصور قوة الاله الشمس)

النهار والانسان

تكون الأرض ضياء عندما تطلع فى الأفق
عندما تتلألأ بالنهار
تطرد الظلام
حينما ترسل أشعتك
الصعيدان (مصر) فى أفراح يوميا
استيقاظ فوقوف على أقدامهم
حينما تجعلهم يهبون ،
يغسلون أطرافهم ويأخذون ملابسهم
وأيديهم مرفوعة فى تمجيد لظهور فجرك
(بعدئذ) فى كل العالم يقومون بأعمالهم
(وهنا تدليل على أن ظهور الاله الشمس يبعث على النشاط والعمل)

النهار والحيوانات والنباتات

كل الماشية تجد مرعاها
والأشجار والنباتات تنمو

والطير ترفرف فى بطائحها
ترتفع أجنحتها فى تسبيح لك
كل الأغنام ترقص على أرجلها
كل الأشياء ذات الأجنحة تطير
تعيش عندما تشرق عليها

النهار والمياه

السفن تمخر ضد التيار ومع التيار على سواء
كل طريق مفتوح لأنك بزغت
السمك فى النهر يقفز أمامك
أشعتك فى منتصف البحر الأخضر العظيم
كل هذه المقابلات بين ظهور الشمس الاله وغيابها تصور أن ظهور الاله خير واختفاءه شر

خلق الانسان

يا مخلق النطفة فى المرأة
يا خالق البذرة فى الرجل
يا مانح الحياة للولد فى جسم أمه
مرضيه حتى لا يبكى
راع (حتى) فى الفرج
مانح النفس ليحيا كل من يؤدبه
حين يخرج من الجسم ... فى يوم ولادته
أنت تفتح فمه للكلام
انت تمده بحاجاته

خلق الحيوان

الكتكوت فى الدحية حين يصوت فى القشرة
تمنحه النفس فيها لتبقيه حيا
عندما تأتى به جملة
فى (لحظة) الخروج من البيضة
يخرج من البيضة
مصوتا بكل قوته
يتجول على قدميه
حالما يخرج من ثم

خلق العالم

كم من صورة صنعت
هى محجوبة من أمامـ (نا)
أيها الاله الوحيد ، ذو قدرات ليست لغيره
أنت خلقت الأرض وفق قلبك
حينما كنت وحيدا ·
الناس والماشية ، الكبير والصغير
وكل ما على الأرض ·
الذى يجوب على قدميه
و (كل) ما فى العلياء
التى تطير بأجنحتها
والأقطار الأجنبية ، سوريا وكش (Kush)
وأرض مصر
لقد وضعت كل انسان فى مكانه
تمدهم بحاجياتهم
وكل واحد له مؤهلاته
وأيامه مقدرة
تختلف الألسنة فى الكلام
وكذلك بناؤهم وتتميز بشرأتهم
(لأنك) خلقت الأجانب مختلفين ·

رى الأرض فى مصر والخارج

أنت خالق النيل فى العالم الشمالى
أنت الآتى به كما تبتغى
لتبقى الناس أحياء
لأنك خلقتهم لنفسك
الههم جميعا ، الباقى بينهم
أنت اله كل بلد ، الذى يشرق لهم
أنت شمس النهار ، عظيم فى الجلال
كل الأقطار البعيدة
أنت الخالق (أيضا) حياتهم
أنت وضعت نيلا فى السماء

عندما ينزل اليهم
يصنع الأمواج على الجبال
كالبحر الأخضر العظيم
راويا حقولهم فى حواضرهم
ما أروع صورك ، يا اله الخلود
فى السماء نيل للغرباء
ولرعية كل اقليم الذين يمشون على أقدامهم
(ولكن) النيل يأتى الى العالم الشمالى لمصر

الفصول

أشعتك تغذى كل بستان
حينما تشرق تحيا
وتنمو بك
أنت صانع الفصول
كى تخلق كل عملك
الشتاء لتحدث التبريد
والحرارة كى تتذوق اياك
أنت صنعت السماء البعيدة لتشرق فيها
حتى ترى كل ما صنعت
أنت وحدك ، متلألأ فى صورتك كأتون الحى
فى انبثاق الضوء والتألق والذهاب بعيدا والعودة
أنت صانع ملايين الصور
بواسطتك وحدك
المدن والحواضر والطرق والأنهار
كل العيون تراك أمامها
لأنك أتون النهار فوق الأرض ...

وحى الى الملك

أنت فى قلبى
لا أحد غيرى يعرفك
سوى ابنك اخناتون
أنت صغته حكيما

فى تصميماتك وبقوتك
العالم فى يدك
فى الوقت الذى خلقتهم
عندما تشرق يحيون
وعندما تغيب يموتون
لانك امتداد حياة نفسك
الناس يعيشون بك
بينما عيونهم واقعة على جمالك
حتى تغيب
كل الأعمال تترك
عندما تغيب فى الغرب ..
أنت أنشأت الدنيا
وأقمتهم لابنك
الذى جاء من اعضائك
ملك عليا وسفلى مصر

قائما بالحق ، سيد الصعيدين
نفر ـ خبرو ـ رع ، وان ـ رع (اخناتون)
ابن رع ، القائم بالحق ، سيد التيجان
اخناتون ، الذى تطول حياته
(ومن أجل) الزوجة الأولى المتوجة ، حبيبته
سيدة الصعيدين ، نفر ـ نفرو ـ أتن ، نفرتيتى
عاشت وترعرعت للأبد ودواما

هذه النصوص الدينية هى التى أوعزت الى المؤرخين أن يقولوا ما قالوا وخير مايختار فى ذلك قول جيمس هنرى برستد منقولا عن قلم الدكتور أحمد فخرى (انتصار الحضارة ص ١٣٦ وما بعدها) ، (وظل آلهة مصر يشدون أزر الملوك أينما امتد نفوذ مصر كما فعلوا من قبل ، وهكذا تدرج المصريون الى الايمان بأن اله الشمس رع مد نفوذه أيضا على مصير البشر فى خارج حدود مصر ، أى أنه أصبح الها دوليا وليس الها مصريا .

ولم يفكر أحد فى ذلك العهد فى أن العالم وحدة أو أن لهذا العالم كله الها واحدا يسيطر عليه ، ونضجت فكرة الصلة الدولية فى مصر حوالى ١٤٠٠ ق ٠ م ، وسرعان ما نمت معها فكرة وحدة العالم ، وللمرة الأولى فى تاريخ الدنيا ظهرت فكرة اله واحد للعالم له سلطان امبراطورى ، وتلك هى أقدم صورة فى التاريخ لفكرة التوحيد كما وصلت اليها خبرة الشرق ٠

وهنا بزغ فجر جديد فى تاريخ العالم عندما استطاع سكان وادى النيل أن يدركوا أنهم جزء من عالم كبير لا يمكن للانسان أن يلم بأطرافه وظهر بينهم أيضا التوحيد قرونا عديدة قبل أن يظهر فى أى قطر آخر٠

وفى مثل ذلك الوقت الحرج تولى الملك امنحوتب الرابع عرش البلاد حوالى عام ١٣٧٥ ق٠م وكان شابا كثير التفكير شجاعا لايخاف ولكنه لم يراع الحكمة فى اصراره على اجبار رعاياه على اعتناق فكرة العالمية الجديدة٠ حاول أن يحطم آلهة مصر القدماء ، وحاول أن يغرى الناس بعبادة اله واحد فقط هو اله الشمس ، فكان هذا العمل من جانبه حادثا جديدا لامثيل له فى التاريخ البشرى) ٠

الى أن يقول (٠٠٠ فتقرأ على جدرانها الأناشيد التى كتبها اخناتون نفسه فى تمجيد اله الشمس وهى ترينا بساطة وجمال ايمان هذا الملك الشاب بالاله الأوحد ، فقد أوصلته عقيدته الى الايمان بأن الاله الواحد لم يخلق المخلوقات الدنيا فقط ، بل أنه خلق جميع الناس على اختلاف أجناسهم بما فيهم المصريون والأجانب ٠ وكان أتون أبا رحيما يحافظ على كل مخلوقاته ويغمرها برعايته ، حتى الطيور التى تعيش بين النباتات كانت تعترف برحمته فترفع أجنحتها كما يرفع الانسان ذراعيه شكرا له كما يقول النشيد ٠ ولقد تتبعنا تطور الانسان وتقدمه فى خلال آلاف السنين ولكننا لم نر أحدا قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للاله الواحد الرحيم بكل الكائنات) ٠

هذه الدعوة الى التوحيد لم تحظ بكثرة الاتباع ولم يكتب لها التوفيق ، ولكن أثر التوحيد لم يمح نهائيا بفشل اخناتون ، وذلك لعمق جذور الوحدانية ، فعادت العبادة الى أمون قائمة على وحدة الربوبية وعقائد التشبيه والحلول واجتماع الأرباب فى كيان واحد مع تمايز أشخاصهم

(ب) مواعظ دينية :

١ ـ جاء فى الفقرة الخامسة من ورقة بردى (Papyrus Prisse) التى يرجع تاريخها الى الأسرة الحادية عشرة أو الثانية عشرة ما يأتى :

لا انسان يعرف ماذا سيحدث أو ماذا سيفعل الله حينما يضرب

٢ ـ من مواعظ بتاح حتب

فى نفس مجموعة أوراق البردى السابقة ورقة بردى وردت فيها قطعتان يرجع العهد بها الى حكم الملك أسوسى (Asosi) سنة ٢٤٩٠ ق٠م ـ سنة ٢٤٥٠ ق٠م وهو من الأسرة الخامسة ، ويزكيهما أن اتين دريتون (Etienne Drioton) قدم لنا خمس عشرة قطعة شبيهة بهما ، واليك القطعتين :

الأولى : اذا كنت شخصا فقيرا تابعا لرجل ذى مكانة فاحدى المقربات من الرب ألا تعرف ماضيه المغمور ، ويجب ألا تساق ضده لانك عرفته فيما مضى ، بين موالاتك له متفقا مع ما يأتى له ـ فالثروة لاتأتى من تلقاء نفسها ، انها من تعاليمهم لمن يرغب فيها، أما من يتجاوز فانه مخوف ، انه الرب الذى يخلق (فى الانسان) الصفة ، ويحميه (حتى) وهو فى نومه ٠٠

والثانية : أن تسمع خير للابن الذى يصغى ، اذ تأتى الاستماع للمصغى ، فالمصغى يصير سامعا ، (وحينما) يكون الاستماع حسنا يكون الكلام حسنا ، وكل مصغ مستفيد والانصات ميزة للمصغى ، وأن تسمع خير من أى شىء يكون (ومن ثم) يأتى الحب الجميل بالانسان ، ما أحسن حينما يقبل الولد ما يقوله الوالد ، عندئذ يأتى النضج اليه ، الذى يحبه ربه هو المستمع ، (ولكن) الذى يبغضه ربه لايستطيع أن يسمع ، انه القلب الذى يسعى بصاحبه الى أن يكون مستمعا أو الى ألا يكون مستمعا وحياة وسعادة وصحة الانسان فى قلبه ٠٠٠

٣ ـ موعظة من الملك الأب خاتى الى ابنه مريكارى

تاريخها لا يبعد عن سنة ٢١٠٠ ق٠م وربما كانت سنة ٢٠٥٠ق٠م ويزكيها عشر قطع شبيهة بها نشرها اتين دريتون ، تقول :

يمر جيل بعد جيل من الناس والرب الذى يعرف أشخاص (الناس) قد أخفى نفسه ، وما من أحد يمكنه أن يقاوم الرب ذا اليد : هو الفرد

الذى يفتك بما تستطيع أن ترى العيون ،فقدس الرب بطريقه ـمصنوع من حجارة غالية ومصاغ (من) معدن ـ كمثل فيضان حل محل فيضان (آخر) . ليس هناك نهر يبقى نفسه خفيا أى يحطم الحاجز الذى به اختفى ، كذلك النفس تمضى الى المكان الذى تعرفه ولا تنحرف عن سبيلها بالأمس ، فمول بيتك بالغرب وجمل مكانك بالمقبرة ، كرجل صالح وكمن ينفذ العدالة التى عليها تعتمد قلوب (الناس) ، سلوك قلب صالح واحد أعظم قبولا من ثور عاص ، فاعمل للرب ـ كى يعمل بالمثل لك ـ بالقرابين التى تجعل مائدة القرابين عامرة ويحفر النقوش ـ أى بما يشهد لاسمك ، والرب عالم بمن يعمل له .

٤ ـ وصية أب لابنه

وهذه الوصية موجودة فى كثير من أوراق البردى ، ويظن أن تاريخها حوالى سنة ١٤٥٠ ق.م ، وهى :

قدم القربان لربك واحذر الخطية قبله ، ويجب عليك ألا تسأل عن أفعاله ، ولا تكن (مطلق) الحرية معه أثناء الاحتفال به ، فلا تقرب منه (كل القرب) لتحمله ، ويجب عليك ألا تهتك الستار ، فاحذر أن تكشف ما يحجب ، واجعل عينك تنظر الى طبيعة غضبه ، وخر ساجدا عند اسمه ، فهو يرى سلطان(ه) فى مليون صورة ، وأولو الشأن فقط من يرفع شأنهم . اله هذه الارض هو الشمس التى فى الافق وصورته (وحدها) فحسب على الثرى ، واذا قدم البخور كغذائهم اليومى فان اله الصور سيستقر .

وفى هذه الوصية ما هو أسمى فى التجريد من حيث النظر الى الاله مما سبق كما فى قوله :

قاعدة ٣٥ : دع الذى يتهمك باطلا يخون باطله بمنهج الرب الذى يحق الحق .

قاعدة ٣٧ : لا تفعل ما يجعل (أمك) تلومك ولا ما يجعلها ترفع يديها للرب لأنه يسمع دعاءها

٥ ـ من تعاليم أمن ـ أم ـ أبى (Amen-em-Ope)

وهذه التعاليم يظن أن تاريخها حوالى سنة ٨٥٠ ق.م ، ولقد نشر اتين دريتون ثمانى وعشرين كلمة تضمنت كلمة الله ، ويذهب الى أنها

تنحو نحو التوحيد ، ولكن غيره من الباحثين لا يقرونه على هذا الرأى ومما يلفت النظر فى هذه التعاليم أنها مشابهة لسفر الامثال العبرى ، ولقد دعت هذه المشابهة الباحثين الى دراسة ما بينهما من صلة أو اتصال من هذه التعاليم ما تقول :

لا تسخر من الأعمى ولا تهزأ بالقزم
ولا تؤذ الأعرج فى أموره
لا تهزأ برجل هو فى يد الرب
ولا تجعل الوجه يكفهر اذا أخطأ
لأن الانسان من طين وقش
والرب هو منشئه .
هو كل يوم هادم ومقيم .
يصنع ألف رجل فقير كما يشاء ،
(أو) يصنع ألف رجل رئيس عمال ،
حينما يكون فى ساعته للحياة .
ما أسعد من يصل الى الغرب ،
وهو آمن فى يد الرب

تنكر للأرملة اذا ضبطتها فى الحقول ،
ولا تتورط فى الاستجابة لها .
لا تهمل غريبا (عن) اناء زيتك
فذلك يزيدك أمام اخوانك
يبتغى الله رعاية الفقراء
أكثر من اكبار العظماء .

هذه مواعظ نذكرها على سبيل التمثيل ، وهى مواعظ كما ترى تدور حول ما يريده الله من الانسان ومنهجه نحوه ، وهى بلا جدال ذات صلات وثيقة بالعقائد ومستمدة منها أو مقتبسة من تعاليمها ،وهى تفسر الاتجاه الدينى وتصور العلاقة بين الانسان والرب ، أما العـــلاقة بين الانسان والحياة فهناك مواعظ أخرى تناولتها كتلك التى احتفظت بها أوراق البردى مثل تعاليم Ahkto التى ربما يرجع تاريخها الى ســنة ١٢٠٥ ق ٠م ، والتى لم ترد فيها اشارة الى الله الا مرة واحدة ، وتتميز بطابع النصيحة فى منهج الحياة ، وهناك مواعظ أخرى سابقة لهذه فى الزمن ، شبيهة بها .

خاتمة

والخلاصة أن المصريين القدماء آمنوا بآلهة متعددة ، وظلت هذه العقيدة تستبد بهم وتسيطر على نفوسهم ، آمنوا بأوزيريس واعتقدوا أنه روح هذه الحياة المثمرة فى مصر ، وكانوا يرون فى هـــذا الاله رمزا للموت ثم الحياة مرة أخرى ، وتطورت هذه العقيدة فيما يقول المؤرخون فاعتقدوا أن أوزيريس هو النيل ، وآمنوا بالشمس على أنها اله وسموها رع وسموها أمون ، وأقاموا لهذا الاله لعبادته أفخم معابدهم ، ورع — كما يقول المؤرخين وكما تدل النصوص التى أوردناها — كان أعظم الآلهة المصرية ، وبلغ من عمق هذه الديانة فى نفوس المصريين القدماءورسوخها فى قلوبهم ، أنه حين امتد نفوذ مصر خارج أراضيها ، اعتقدوا بأن الاله الشمس مد أيضا نفوذه على تلك البلاد التى خضعت لسلطانهم ، ومعنى هذا أن محاولة تكوين عقيدة فى اله عالمى، لا يقتصر سلطانه على البيئـة المحلية ، أخذت تغزو العقول مع الغزو الحربى ، ويذهب المؤرخون الى أن هذه أقدم صورة فى التاريخ لمحاولة فرض فكرة التوحيد على العالم ، وكان ذلك حوالى سنة ١٤٠٠ ق٠م٠

وفى عام ١٣٧٥ ق٠م تولى امنحوتب الرابع عرش مصر ، وحاول أن يحطم عقيدة تعدد الآلهة ، وذلك بالدعوة الى اله واحد هو الاله الشمس الذى سماه أتون ، ولكن هذا العمل من جانب هذا الملك المصلح لم يلق ترحابا ، وربما كان من أسباب فشله المنهج الذى اتخذه فى ســـبيل توطيد ما أراد من عقيدة ، فشل هذا الملك فى دعوته ولقيت مصيرهـــا المحتوم لها ، بالعودة الى عبادة أمون ٠ ومما يلاحظ فى عقيدة أتون أنها تصور هذا الاله أتون بأنه اله العالم ، خالق الانسان والحيوانوالنبات وكل مظاهر الحياة من أرض ومياه وفصول تختلف مظاهر الحياة فيهـا باختلافها وكانت العودة الى عبادة أمون انتكاسا لفكرة الاله ذى السلطة الشاملة لكل شيء ٠ حقا ان فكرة أو عقيدة أمون تصور لونا من اله كبير

ذى سلطان واسع ، ولكن سلطته أو قل ادراكه لا يصل الى مستوى أتون فى شموله وعالميته ، ويقول برستد بترجمة الدكتور أحمد فخرى (فى انتصار الحضارة ص ١٣٨) « ولقد تتبعنا تطور الانسان وتقدمه فى خلال آلاف السنين ولكننا لم نر أحدا قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للاله الواحد الرحيم بكل الكائنات » .

ويرى الباحث فى جلاء أن صورة الاله فى ذهن اخناتون لم تصل الى التجريد المطلق ، الذى هو طابع الديانات السماوية كما ينص القرآن الكريم ، بل ظلت هذه الصورة ملاصقة أو على الاصح مرتبطة بصورة هذا الكوكب السماوى الشمس ، ومن ثم فان كان اخناتون قد توصل بذكائه الى قدرة الله وصفاته فانه ظل وثنيا يبنى الهياكل والمعابد له ، ويجهد نفسه فى تزيينها وفى ايجاد ما يرمز الى هذا الاله ، وتقام الصلوات على صورة وثنية له .

وخلاصة القول ان تعدد الآلهة عند قدماء المصريين تطور كعقيدة أخذت تسعى نحو الوحدانية ثم التوحيد ، وهذا التوحيد كله ينصب على قدرة الله دون ادراكه أنه اله ليس كمثله شىء ، بل أصابه التمثيل والرمز اليه بصورة لا تدع مجالا للشك فى أنه اله وثنى يتصور فى مظاهر الشمس .

ثانيا ـ العقائد فى أرض الرافدين

أ ـ اله سومر

ان الشطر الاكبر من النصوص التى عثر عليها الباحثون تتضمن تراتيل وأدعية ، على أن بطن الأرض لا تزال تحتفظ بكثير من الأسرار والمفاجآت ، التي قد تكشف عن هذا الغموض ، الذى لايمكننا من أن ندرك ادراكا واضحا كثيرا من العقائد والأديان القديمة ، وخاصة عقائد أهل سومر ، وسنقدم هنا نصين يمكناننا من معرفة شىء من عقائد السومريين .

ولكنا قبل أن نذهب الى هذين النصين يجب علينا أن نشير الى أن المؤرخين قد استدلوا من النقوش التى اكتشفها الأثريون ، على أنه فى الأسرة الأولى فى أور حوالى سنة ٢٣٠٠ ق‌م‌‌.. وما بعدها استطاع

الملوك من تشييد معبد للالهة عشتر ، وهى المعبودة التى كانت تقام لهـا العبـادات ، ولقـد كان لهذه الالهة معابد كشف عن أهم واحد منها على مقربة من مدينة أور ويجب ألا يغيب عن البال أن هذا المعبود لم يكن وحده الذى يعبد ، بل اكتشفت أيضا معابد ذات أبراج ، أهمها المعبـد الذى كان فى مدينة نيبور (Nippur) وهى معابد أقيمت لإله الهواء انليـل (Enlil) ، وكان لاقامة هذا المعبد العظيم فى نيبور ماأضفى على المدينة قداسة خاصة بين جميع المدن السومرية ٠

وأول نص نقدمه هو للالهة عشتر ، تلك الالهة التى ورث البابليون الايمان بها بعد أسلافهم السومريين ، ومهما يكن من أمر فان أساس هذه العقيدة قد تضمنه النص الآتى وهو :

أنت ، أيتها العذراء ، أقدس ، وعليك بالنشيد أثنى
الزبد واللبن المطبوخ ، والكعكات السبع المخبوزة ،
على مائدة أرض سومر أكوم ٠
لك أسكب النبيذ الداكن ٠
لك أسكب النبيذ الأبيض ٠
النبيذ الداكن والجعة ،
اليك سيدتى ، الجعة
للتقديم اليك ، مشروبات تثبت القلب ،
محدثة أناشيد التقديس ، دفعت للحضور ٠
لأبعث فيك الهدوء ، عسل وزبد وشراب متلألىء ،
لأبعث فيك الارتياح ، عسل (؟) وزبد وشراب داكن (؟)
خبز أسمر وعسل وزبد و ٠٠٠
نبيذ متلألىء ٠٠ أسكبه لك ٠

لأبعث رب الانسان ليشترك فى الطعام فى سـبيل روح الميت أحضرتها لك ٠

انت أيتها العذراء أقدس ، عليك اثنى بالنشيد ٠
سيدتى فى السماء والأرض أرى
الى أنينى (Innini) المقدسة الى حضرتها آتى
سيدة الحماية ، انينى التى هى ذات جلالة ،

فتاة السماء (أمجد ؟)

سيدة الحماية ، الالهة التي هي عظيمة ..

المعبد العظيم ، بيت الرب (؟) ، أقمته لك ،

المعبد العظيم لالهة النهر ، اللسبجو (Lusubgu) التي يعبدها بخوف

شعب سومر سود الرءوس

أما النص الثاني فهو لصلاة سومرية للقمر الاله ، ولقد وجد هذا النص باللغة الاشورية مترجما عن السومرية وعلى لوحة في قاعة نينوى ، وهذه اللوحة محفوظة بالمتحف البريطاني ، ونحن ننقل هنا شطرا من هذه الصلاة الطويلة ، وهذا الجزء يصور بوضوح كيف كانوا يدركون الاله ومدى سلطانه .

من هو العظيم في السماء ؟ أنت وحدك العظيم . من هو العظيم على الأرض ؟ أنت وحدك العظيم ، مشيئتك صارت معروفة في السماء والأرواح فيها تسجد أمامك ، مشيئتك صارت معروفة على الأرض والأرواح فيها يقبلون الأرض أمامك .. كلمتك القوية تحدث الحق وتشرع العدالة للبشر ، وشريعتك القوية تصل الى أقصى أرجاء السماء والارض ، من يستطيع أن يعرف ارادتك ومن يستطيع أن يمارى فيها ، أيها الرب سلطانك في السماء وعلى الارض ، من بين الآلهة اخوانك لا أحد يشبهك الا انك ملك الملوك الذى حكوماته عويصة وقداسته فائقة .

من هذين النصين يمكننا أن نرى بوضوح أن السومريين اعتقدوا في تعدد الآلهة مثلهم في ذلك مثل قدماء المصريين ، يخلعون على أحد الآلهة صفات تصوره أقوى الآلهة ، وهي نزعة كما رأينا تتجه نحو الاعتراف باله ذى سلطان شامل ، على أن قصور ما لدينا من نصوص لا يتيح لنا أن نتبين التطور الذى وصلت اليه العقائد السومرية الى هذا المنحى ، يضاف الى هذا أن سومر وكانت دويلات من جنس غير سامى تبدو في المدن التي قامت فيها الحضارة مثل أور ولجش وغيرهما ، وكان النزاع يكثر ويشتد أمره بين هذه الدويلات ، حتى هاجم الاقليم غزاة ساميون ، كانوا بدوا فتحضروا بالاقامة في شمال سومر ، وأطلق على المنطقة الخاضعة لنفوذ الغزاة بلاد أكاد (Akkad)

ثم ظهر في القرن السادس والعشرين في قول أو الرابع والعشرين قبل الميلاد في قول آخر فاتح من الجنس السامى في أكاد اسمه

سرجون ، وتمكن هذا الزعيم من هزيمة السومريين ، ولم يقف أمر سلطانه عند هذا الحد بل امتد الى منطقة الخليج الفارسى ، وامتد الى الشمال ، حتى أصبحت مملكته واسعة الارجاء تمتد من عيلام فى الشرق الى كنعان وشمال الصحراء فى الغرب وآخذة الى أعالى نهرى دجـلة والفرات فى الشمال ، واقتبس الفاتحون الأكاديون حضارة السـومريين المغلوبين ، واختلط هؤلاء الساميون بغيرهم من غير الساميين وتكونت دولة ، كان الجنود فيها الذين من أصل سومرى غير الساميين يحملون الحـراب والدروع بينما كان الساميون يحملون القسى ، على أنه فى وقت السلم لم يستطع السادة الساميون الاستغناء عن الكتاب السومريين الحذاق ، ولكن شأن هذه الدولة لم يستقر لما امتاز الامر فيها بالثورات والاغتيالات فاستطاعت سومر بعد قرن ونصف بزعامة مدينة أور أن تستعيد ماضيها على أن هذا العهد الجديد قد أفسح المجال للساميين ، فتكونت أمة جديدة عرفت باسم سومر وأكد ، ونجحت هذه الامة فى الأمور التجارية ، ومما يلفت النظر بحق أنهم كانوا يستعملون عبارات ما زلنا نستعملهـا حتى اليوم ٠

فى هذه الفترة التى تطورت فيها سياسيا سومر وامتزجت فيها بأكد ، نعثر على نص مقدس عثر عليه بأوروك (Uruk) بأكد ، يتحدث عن توجيهات لنقل تمثال آله واليك النص :

١ ــ ٠٠ بعد أن يترك (صنم) الاله آنو المعبد (المسمى) أنامنـا (Enamenna) ويصـل الى الباب المقدس يرتل كل كهنة مسمسو (Masmasu) ثلاث مرات التعزيمة (المعنونة « سرو اتسا Sarru ittasa

٢ ــ يتوقف كهنة المسمسو (عن الترتيل) ، ويدعو الكهنـة الاوريجللو (Urigallu) والكهنة المسمسو والكهنة الاريبيتى (eribbiti) وعاصرو الشراب ــ المسرجون بالدعامتين (الحاملتين صنم آنو المتحرك) بالدعاء من أجل آنو (المعنون) » انوربو سـاما ارستو لكربوك « « Anu rabû samâ u ersetu likrubûka »

وتمضى التعليمات فى توجيه الكهنة فى سبع فقرات وتنتهى بالقول :

وما يأتى هو الدعاء الذى يردده الكهنـة الاوريجللو والكهنـة المسمسو والكهنة الاريبتى وعاصرو الشراب من أجل آنو سبع مرات وهم فى طريقهم الى معبد أكيتو (Akitu) من معبد رش (Resh) :) «

آنو العظيم ، تباركك السماء والأرض

تباركك الآلهة أنليل وايا (Ea) وبلتيل (Beletile) بابتهاج
يباركك كلا الالهين سن (Sin) وشمش حين تبدو
تباركك الهة السـماء ايجيجى (Igigi) والهة الأرض انونكى (Anunnaki)

يباركك الالهان نرجل وسيبى بقلبين ثابتين ٠
تباركك الهة الغور والهة الحرم المقدس
تباركك يوميا (وكل) يوم ، وشهر ، وسنة

ومما يدل على أن هذا النص مقدس وأنه كان يؤدى بصورته هذه في الطقوس الدينية والصلوات في المناسبات التى تتطلبه ، هو ماكتب في خاتمته التى تقول :

نقل من لوحة قديمة بعد المراجعة والتحقيق ، ومن لوحة قديمة من محتـويات (معبد) آنو وأنتـو ، وهـذه اللوحة ملك لأنهوشبشى Anahaushabshi بن كيدينو سليل اكورزكير الكاهن المسمسو لأنو وأنتو والكاهن الاوريجللو لمعبد رش من أهل مدينة أوروك الخ ٠

ومن الملاحظ أن الاحتفال بنقل صنم مقدس لاله كان أمرا شائعـا عند الامم القديمة ، وكان لكل أمة طريقتها الدينية الخاصة فى هـذا الاحتفال ، وقد كان يحدث أحيانا فى مصر القديمة أن ينقل صنم مقدس فى مركب فى النيل أو فى بحيرة ، وكان أمرا مألوفا فى بعض أجزاء من الهند وفى الاجزاء التى تدين بالهندوستانية فى سيلان ، وكان كذلك فى العقيدة الشنتية القديمة فى اليابان ٠

خاتمة

كانت العقيدة السومرية تتجه الى الاعتقاد فى الهة ، ويبدو أن اختلاط الشعبين السومرى والاكدى قد كثر الآلهة كثرة نلاحظهـا فى الاحتفال بنقل صنم الاله أنو ، وهذه الكثرة فى الآلهة مألوفة فى العقائد القديمة ، ولا نزال فى حاجة الى نصوص دينية مقدسة لنحكم أى اله من الآلهة كان أقوى سلطانا ، أهو اله سومير القديمة أو أحد الآلهـة التى استحدثت مع مرور الزمن ٠

(ب) اله بابل :

يبدو أن الآلهة فى بابل لم تكن لتختلف كثيرا من حيث تصور فكرة الاله عن اله سومير وأكد ، ذلك لأن بابل ورثت الحضارة السومرية الاكدية بكل ما تمتاز به من تقدم فكرى وعقائد ، ويبدو أن هذه الوراثة لم تكن قاصرة على التراث الفكرى والدينى وحدهما بل كانت شاملة لكثير من مناحى الحياة المختلفة .

رزئت بلاد سومير واكد بغزو أتاها من الشرق ، جاء العيلاميون واستولوا على المدن القريبة منهم وهى السومرية ، وجاء من الغرب العموريون ، وهم قوم ساميون ، وغزوا بلاد أكد ، وهى المنطقة التى كانت فى شمال سومير وتمكن الغزاة فى نهاية الامر من فرض سلطانهم عليها .

وفى منتصف القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد نصب أحد الزعماء من هؤلاء الساميين نفسه ملكا على بابل ، ولم تكن آنئذ ذات أهمية ، ولكنها بعد ثلاثة قرون أصبحت هذه المدينة ـ بفضل امتداد نفوذ ملوك بابل ـ مركزا هاما تجمعت فيها القوى الحربية والحضارية للاقليم الذى اتخذ أسمها علما عليه .

وفى سنة ١٩٤٨ ق٠م تولى ملك بابل حمورابى ، وهو الملك السادس من ملوك بابل ، وكان ملكا عظيما ، إستطاع فى الثلاثين سنة الأولى من حكمه ـ الذى طال الى سبعة وخمسين عاما ـ أن يوطد مركزه فى الجزء الشمالى من بابل ، ثم اتجه الى الجنوب الذى كان لا يزال تحت سيطرة الحاكم العيلامى ، فضمه الى مملكته بالقوة ، ولما استقر له الامر فى الاقليم كله وهدأت الامور ، عاش الاثنى عشر عاما الاخيرة من حكمه فى هدوء وطمأنينة ، ودون هذا الملك فى سجل التاريخ مجدا لا يبلى على مدى الزمن ، وقام باصلاحات وتنظيمات كانت ذات شأن عظيم فى الحياة الاجتماعية بوجه خاص .

أدرك هذا الملك العظيم أن الضرورة تقضى بتوحيد القوانين وقواعد المعاملات التجارية فى البلاد ، وكان بعضها يتعارض مع بعضها الآخر ، فجمع هذه القوانين وأدخل عليها تعديلات ألهمته بها حكمته وذكاؤه ، وجعلها كلها مجموعة واحدة ، كتبها باللغة السامية التى كان يتكلم بها الأكديون والعموريون ، ثم أمر بنقشها على لوحة عظيمة من الحجر ،

يرى فى أعلاها يتلقى هذه القوانين من شمش - الاله الشمس ، وأمر بأن تحفظ فى معبد الاله العظيم مردوخ فى مدينة بابل ٠

كان لا بد لحمورابى أن يضع هذا الشعار لمجموعة القوانين التى عرفت به ، ذلك لأن عقيدة الأمم القديمة كانت تؤمن بأن الآلهة هم مصدر التشريع واصدار القوانين ، وكانت هذه أيضا عقيدة قدماء المصريين فيما يختص بالتشريعات التى تنظم أمور حياتهم ، وعقيدة قدماء اليونان ، ذلك لأن هؤلاء اليونان نظروا الى القوانين على أنها منحة من ثيوس ، ومضى هذا النظر الى الرومان ، الذين كانوا ينظرون الى القانون على أنه من صنع البشر ولكنه منبعث عن العقل المقدس ، وقد كان شيشرون يرى أن القانون ما هو الا الاتجاه السليم المستمد من الآلهة ، وكذلك اليهود كانوا ينظرون الى يهوه (Yahweh) الاله كما سموه - أنه مصدر القوانين ، وكذلك الامر فى الهند فقد كان لمصدرى القوانين من البراهمة صفات القداسة ، لأن الهنود نظروا الى البراهمة على أنهم السادة وأنهم كائنات مقدسة فوق كل اعتبار فعاملوهم معاملة أشباه الآلهة ، وكذلك مجموعة مانو (Manu) نفسها التى هى مجموعة ضخمة من القوانين سجلت فى اثنى عشر مجلدا بعد أن مارس الهنود الكتابة - يتضح فيها هذه القداسة ، ذلك وان كانت هذه القوانين مؤرخة من ٢٠٠ ق٠م الى ٢٠٠ بعد الميلاد الا أنه قد نظر اليها أنها صادرة من مانو أبى الجنس البشرى عندهم ، ومهما يكن من أمر فان قوانين حمورابى نظر اليها البابليون على أنها مقدسة وصادرة من الاله ويجب الخضوع لها ، وتاريخ القانون فى بابل حافل لأنه اكتشفت قوانين مماثلة لقوانين حمورابى هى قوانين اشنونا (Eshnunna) صدرت قبل حمورابى وفيها الاشارة الى الاله الشمس ، وأسفر الكشف أيضا عن قوانين مماثلة فى العصر الاشورى الوسيط والبابلى الحديث ٠

اكتشف قوانين حمورابى أثرى فرنسى سنة ١٩٠١ م على كتلة من حجر الديوريت الأسود ، وسنقدم منها أجزاء تعنينا فى هذه الدراسة وهى :

١ - جزء من المقدمة التى فيها يعلن حمورابى أنه يحكم بأمر الهى
٢ - القوانين المتصلة بمهنة الطب ، والتى تحدد أجور الاطباء ٠
٣ - القوانين المنظمة للزراعة ٠
٤ - لعنة الاله للحكام الذين لا ينجحون فى تنفيذ هذه الشريعة ٠

١ ـ من مقدمة القانون :

حينما قرر أنو السامى ـ ملك أنناكى (Anunnaki) ـ وانليل ـ سيد السماء والأرض ، وهو الذى يقرر مصير الارض ، نقل حكم البشر الى ماردك (Marduk) ـ أكبر ابناء ايا (Ea) ، وحينما جعلاه عظيما بين الايجيجى (Igigi) وحينما أعلنا اسم بابل السـامى وحينما جعلاه مشهورا فى بقاع الارض وفى الوسط أقاما مملكة خالدة، أساسها ثابت ثبات الارض والسماء ، فى هذا الوقت نادى انو وانليل يا حمورابى ، الامير العظيم ، عابد الآلهة ، لتجعل العدالة تسود فى الأرض ، ولتقضى على المجرمين والشر ، ولتمنع القوى من اضطهاد الضعيف ولتنشط كالشمس فوق رؤوس الجنس الاسود ، ولتضىء الارض وتزيد من سعادة الناس ، يا حمورابى الحاكم باسم انليل ـ أنا الذى جلبت الرخاء والوفرة ، وجعلت كل شىء لنبور (Nippur) ودوريلو (Durilu) كاملا ... الخ .

٢ ـ القانون المنظم لأجور الأطباء

اذا عالج طبيب جرحا عميقا لانسان (أو أحدث جرحا عميقا بانسان) بمبضع برونزى وأنقذ حياة الانسان ، أو اذا فتح خراجـا (فى عين) انسان بمبضع برونزى وأنقذ عين الانسان ، يجب أن يأخذ عشرة شكلات من فضة (أجرا له) .

اذا (عالج) حرا يجب أن يتقاضى خمسة شكلات (Shekels) .

واذا (عالج) عبدا يجب أن يدفع سـيد العبد شـكلين من الفضة للطبيب .

واذا عالج طبيب جرحا عميقا فى انسان بمبضع برونزى ، وتسبب فى وفاة الرجل ، أو فتح خراجا (فى عين) انسان بمبضع برونزى وأتلف عين الانسان ، يجب قطع أصابعه .

واذا عالج طبيب جرحا عميقا لعبد بمبضع برونزى ، وتسبب فى وفاته ، يجب أن يقدم عبدا بنفس القيمة .

واذا فتح خراجا (فى عينه) بمبضع برونزى وأتلف عينه ، يجب أن يدفع من الفضة ما أقصاه نصف ثمنه .

واذا جبر طبيب عظمة مكسورة لانسان ، أو عالج امعاءه المريضة ، يجب أن يدفع المريض للطبيب خمسة شكلات من الفضة ٠

اذا داوى حرا يجب أن يدفع ثلاثة شكلات من الفضة ٠

اذا داوى عبدا دفع صاحب العبد للطبيب شكلين من الفضة ٠

٣ – القانون المنظم للزراعة

اذا اكترى رجل رجلا ليقوم بأمور زراعة مزرعته ، وزوده بالبذور وعهد اليه بالثيران ، واتفق على زراعة الحقل ، وسرق ذلك الرجل البذور أو المحصول ، ووجدت فى حوزته ، يجب أن يقطعوا أصابعه ٠

اذا أخذ البذور وأرهق الثيران وجب أن يكون أجره مقـــدارا من الحبوب بقدر ما أفلح ٠

فاذا أكرى ثيران الرجل المؤجر أو سرق البذور ، ولم يكن فى الحقل محصول ، يجب محاسبة ذلك الرجل ويجب أن يكيل لكل جن (gan) ٦٠ جورا (gur).

واذا لم يستطع أن يفى بالتزامه يجب أن يتركوه فى ذلك الحقل مع الماشية ٠

واذا اكترى رجل فلاحا يجب أن يدفع له ٨ جور من الحبــوب فى السنة ٠

واذا اكترى رجل راعيا يجب أن يدفع له ٦ جور من الحبوب فى السنة ٠

واذا سرق رجل من حقل آلة رفع بهـا الماء كان المقـابل أن يدفع ٥ شكلات من الفضة لصاحب الآلة ٠

واذا سرق رجل دلو الماء أو آلة العزق يجب أن يدفع ٣ شكلات من الفضة ٠

واذا اكترى رجل راعيا ليرعى ثيرانه أو غنمه يجب أن يدفع ٨ جور من الحبوب فى السنة ٠

٤ ـ خاتمة القانون

فى الأيـــام التى لم تأت بعد وفى كل الأزمان المستقبلة أرجو أن يراعى الملك الذى يكون فى البلد كلمات العدالة التى سجلتها على نصب تذكارى ، والا يغير من أحكام البلاد التى أعلنتها أو قرارات الدولة التى قدمتها ، والا يزيل تماثيلى ، واذا كان لدى ذلك الرجل حكمة ، واذا رغب فى اقامة حكومة رشيدة فى بلده ، فليتيقظ الى الكلمات التى كتبتها على نصـب تذكـــارى ، وأرجو أن يضىء له هذا التذكار للتصرف والادارة بالأحكام التى أعلنتها والقرارات التى قدمتها للبلد ، وليسس بعـدالة شعبه من سود الرءوس ، وليعلن الأحكام لهم ويقـدم لهم القرارات ، وليقض على النذل والشرير فى أرضه ، وليرق بسعادة شعبه ٠

انا حمورابى ، الملك العدل ، ألست أنا شمش الذى وهبه العدالة ، كلماتى ذات وزن وأعمالى لا تجارى ٠٠ فاذا وعى ذلك الرجـل كلماتى التى كتبتها على تذكارى ، ولم يمح أحكامى ، ولم يتحكم فى كلماتى ، ولم يغير تماثيلى ، عندئذ أرجو شمش أن يمد فى حكم ذلك الرجل لأن فيه ما فى ، أنا الملك العدل ـ ليحكم شعبه بعدالة ٠

أما اذا أهمل ذلك الرجل كلماتى التى سجلتها على تذكارى ، واذا نسى لعنتى ولم يخش لعنة الرب ، واذا أبطل أحكامى التى كونتها ، وتحكم فى كلماتى ، وغير تماثيلى ، ومحا اسمى المكتوب عليها ووضع اسمه هو ، مرتكبا هذه الموبقات أو آمرا غيره أن يفعل ذلك ، فلذلك الرجل ـ ملكا كان أو سيدا ، كاهنا للملك أو من العامة ، أو أيا من كان ـ أرجو أن يزيل الله العظيم ـ أبو الآلهة ، الذى أقام حكمى عنه ـ مجد سلطانه ، ويحطم صولجانه ، ويسىء مصيره ٠

قصـــة الخلق

وهى قصة تبين بوضوح تصور البابليين للاله ، وهذه القصـــة وجدت فى الواح اكتشفت بين اطلال مكتبة أشوربانيبال سنة ١٨٧٣ م ، وهى وان كانت غير كاملة الا أن مابقى منها يكفى لأن يصور أن خلق العالم كان نتيجة انتصار ماردك ـ اله بابل العظيم ـ على تيامت ـ اله الفوضى والظلام ٠ ويذهب بعض الباحثين الى احتمال أن تكون قصـة الخلق الموجودة فى العهد القديم من الكتاب المقدس تطورا لقصة الخلق

البابلية مع مراعاة عقيدة التوحيد فى الاله ، ويؤرخ العلماء القصـــة البابلية بأنها ترجع الى القرن الثانى والعشرين أو الثالث والعشرين قبل الميلاد ، ونحن لا نقدم القصة بأكملها كما وجدت وانما نقدم اللوحتين الأولى والخامسة ، لأن ما يعنينا منها هنا تصور البابليين لفكرة الاله فى قصيدة الخليقة ٠

اللوحـــة الأولى :

حينما كان فوق السماء لم يسم بعد ؛
والأرض تحت لا تحمل اسما ،
والأول أبسو (Abyss or Apsu) والدهما ؛
والعماء وتيامت أم كليهما
كانت مياههما مختلطة معا ،
ولم يكن حقل قد تكون ولا مستنقع يرى ،
وحين لا يزال لا أحد من الآلهة قد وجد ،
ولا اسم قد تسمى بعد ، ولا قدر قد تعين بعد ٠
آنئذ خلقت الآلهة فى وسط السماء ٠

اللوحـــة الخامســـة :

هو (ماردك) وضع للآلهة العظام منازلها ،
ولشبه الاجرام بها ، حدد علامات البروج ،
رسم السنة ، وحدد الاجزاء ،
اثنى عشر شهرا بأجرام ، عين ثلاثة لكل ٠٠
جعل القمر الاله يضيء على التتابع ، وألزمه بالليل ،
أقامه جسما ليليا ليقرر الأيام ٠

هذه الصورة التى نتبينها من هذه النصوص تجعلنا نذكر بتاح اله المصريين القدماء ، ذلك لأن كلا من ماردك وبتاح هو خالق الآلهة الآخرين، الذين عهد لكل واحد منهم بأمر معين من مظـــاهر الحياة المختلفة ، مع الاحتفاظ بأنه كائن له مقومات السلطان الآلهى ؛ وهذا النظر الى الآلهة وتكوينها لا تستقل به الاساطير المصرية القديمة والبابلية وحدهما ، بل نجده شائعا فى الاساطير الدينية لكل من سومر وأكد وبلاد الحيثيين وغيرها ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول على ضوء هذه النصوص بتعدد الآلهة فى العقائد القديمة لاقليم الرافدين ٠

قصة الطوفان البابلية

هذه القصة اكتشفت على الواح وجدت بأطلال مكتبة أشور بانيبال بنينوى اكتشفها الأثرى جورج سميث ، تضمنها الشـعر القصصى عن البطل جلجامش (Gilgamesh) فى الجزء الثانى عشر من القصيدة ،الذى يقص خوارق هذا البطل الاروكى ، وما أصاب أرض الرافدين من دمار نتيجة الطوفان ، ولعل أهم ما تتميز به هذه القصة هو سعى هذا البطل للظفر بسر الخلود ، الأمر الذى يدل على أن هذا الطلب كان أمنية البشر منذ القدم ، ويصور أملهم فى الحصول على وسيلة يتغلبون بها على الموت • تحكى القصـة أن جلجامش ذهب الى أحـد أفراد أهله وهو أوتنبشتم (Ut-Napishtim) ليدله على سر الخلود، فقص عليه قصة الطوفان التى تبدو فى أساسها مشابهة لقصة الطوفان المعروفة فى بعض الأديان المعاصرة ، وأن كانت القصة البابلية تختلف فى تعدد الآلهـة ، الذين يظهرون بنزعات متعارضة ، جعلت بعضهم أخيارا وبعضهم أشرارا ، عرف جلجامش – وهو يستمع الى الحديث – أن الخلود يمكن الظفر به بالحصول على أعشاب خاصة تؤدى اليه ، وهذه الأعشاب موجودة فى أعماق البحر نابتة على أحجار تعلق بالأقدام ، فغاص عليها جلجامش وحصل على الأعشاب ، ولكنه فى طريقه الى البيت وقف على نبع ليشرب ، فخرج أفعى والتهم الأعشاب، ومن ثم أفقده الخلود ، والقصة هنا ربما تشابهت بقصة الحية فى سفر التكوين بالعهد القديم ، وعلى أية حال فقصة جلجامش موجودة فى كثير من آداب أمم الشرق الأوسط القديمة ، واليك جانبا من هذه القصة :

وضعت على السفينة كل أهلى وأقاربى ،
وكل ماشية الحقل ، ووحوش الحقل ،
ورجال الحرف كلهم ، وضعت على السفينة •
فى وقت معين كان شمش قد عينه (قائلا) :
حينما يرسل حاكم الظلام مطرا ثقيلا من الماء ،
حينئذ ادخل فى السفينة واغلق بابك ،
جاء الوقت المحدد ،
أرسل حاكم الظلام أفواج المياه مطرا ثقيلا ،
تبين لى مظهر الجو ،

فخفت أن أرى الجو ،
دخلت السفينة وأغلقت بابى ،
الى سيد السفينة ـ الى بوزور ـ أمورى (Puzur-Amurri) ـ الربان
البناء العظيم (يعنى السفينة) سلمتها بأحمالها
حينما بدر أول ضوء للفجر ،
جاء من الأفق سحابة داكنة ،
فى وسطها زأر أدد(١) (Adad)
بينما نبو(٢) (Nabû) وشرو(٣) (Sharru) فى المقدمة ،
مرا كالرسولين فوق الجبل والسهل ،
أطاح نرجل(٤) (Nergal) (بشبكة المرساة (؟) بالصارى ،
ونتب (Ninib) باستمرار يجعل العاصفة تنزل ·
رفعت انتكى(٥) (Anunnaki) مشاعلها ،
وبضيائها ألهبت الأرض ·
وصل هياج أدد الى السماء ،
فانقلب كل ضوء الى ظلام ·
(أغرقت) الأرض مثل ···
فى يوم العاصفة ····
بشدة هبت و ···
مثل هجمة فى حرب اندفعت الى الناس ·
ما من انسان رأى صاحبه ،
ولم يعد الناس يعرفون بعضهم بعضا · وفى السماء
فزعت الآلهة من الطوفان ،
فانسحبوا ، وصعدوا الى سماء أنو (Anu).
ذعرت الآلهة مثل (ذعر) الكلاب تربض بجانب الحيطان ··

---

(١) اله الاعاصير ·

(٢) المنادى الحربى للآلهة ·

(٣) الاسماء فى هذه القصيدة تختلف فى ترجمة عن أخرى ، ولكى يتبين القارىء ذلك يستطيع أن يرجع على سبيل المثال الى كتاب ديلابورت (بلاد مابين النهرين) الترجمة العربية ص ٢٤٩ وهذا نتيجة الاختلاف فى القراءة ·

(٤) اله الجحيم ·

(٥) الارواح الجهنمية ·

... لستة أيام وليال ،
هبت الريح وعم الطوفان واجتاحت العاصفة الأرض .
حينما أخذ اليوم السابع يدنو توقفت العاصفة والطوفان عن الصراع
الذى حاربت فيه كغول .
وعندئذ هدأ البحر واستقر ، وسكنت الريح والعاصفة والطوفان
حينما نظرت الى البحر ، كان الهول قد توقف ،
وتحول كل البشر الى طين .
وأصبحت الأرض المزروعة كالمستنقع .
فتحت النافذة ووقع ضوء النهار على وجهى .
خررت ساجدا ثم جلست (فى حالة) باك ،
على وجهى انهمرت دموعى .
تطلعت الى بقاع (العالم) - مخيفا كان البحر .
بعد اثنى عشر يوما ظهرت جزيرة ،
الى أرض نيصير (Nisir) اتخذت السفينة مجراها .
أمسكت أرض جبل نيصير السفينة بقوة ، ولم تسمح لها أن تضطرب ،
يوما وثانى يوم أمسكها بقوة جبل أرض نيصير ولم يسمح لها أن
تضطرب
ويوما ثالثا ورابع يوم أمسكها بقوة جبل أرض نيصير ولم يسمح
لها أن تضطرب ،
ويوما خامسا وسادس يوم أمسكها بقوة جبل أرض نيصير ولم
يسمح لها أن تضطرب .
وحينما اقترب اليوم السابع
أخرجت حمامة وأطلقتها ،
أخذت الحمامة تروح وتجىء ،
ولكن لم يكن هناك مكان لنزول ، فعادت ،
ثم أخرجت عصفور الجنة وأطلقته
أخذ عصفور الجنة يروح ويجىء ،
ولكن لم يكن هناك مكان تزول ، فعاد .
ثم أخرجت غدافا ، وأطلقته ،
طار الغداف بعيدا ، ورأى غور المياه ،
ودنا قريبا ، يخوض وينعق ، ولكن لم يعد .
حينئذ أطلقت كل شىء نحو جهات السماء الأربع ،
قدمت قربانا ،

سكبت خمرا على قمة الجبل ،
سبعا سبعا وضعت الأوانى ،
وكومت تحتها قصبا وخشب أرز وآسا ·
شم الآلهة العبير ،
شم الآلهة العبير الذكى ،
تجمعت الآلهة كالذباب حول الذى قدم القربان ،
حينما اقتربت أخيرا (١) بلت النى (Bêlit-ilâni)
رفعت الجوهرة العظيمة التى صاغها أنو وفق رغبتها (وقالت :)
لن أنسى هذه الآلهة — بحق جوهرة رقبتى !
وهذه الأيام ستظل فى ذاكرتى ولن أنساها !
دع الآلهة تأتى الى القربان ،
لكن لا تدع انليل يأتى الى القربان ،
لأنه لم يأخذ بمشورة ، وأحدث الطوفان ،
وأرسل شعبى الى الفناء ·

ومن الواضح فى القصة تعدد الآلهة وتخصص كل اله لناحية ينفذ فيها سلطانه رغم اعتراض غيره من الآلهة ، هذا بالاضـــافة الى أن من الآلهة ماهو خير وما هو شرير ·

الثـــالوث الأول

كان السومريون يرون أن لم يكن هناك شيء كائن عند نشأة العالم، ولكنهم على الرغم من ذلك اعتقدوا أنه كان يمكن فى هذا اللاشيء تمييز عنصرين من الرطوبة مختلفين ، أحدهما ذكر وسموه « أبسو (Apsu) والآخر أنثى وسموه تيامت (البحر — Tiamat) ، ومنهـــا جاءت كل الكائنات ، وهذا واضح فى قصيدة الخليقة التى ذكرناها ، هذا المذهب فى ادخال عنصر الرطوبة فى الخلق انتقل الى الكلدانيين ، فقالوا انه خرج من الزوج الأول أولا « لاهمو » وزوجه « لاهامو » ثم مرت فترة وانبثق من الزوج الأول أيضا انشار وكيشار وهما يمثلان كل السماء والأرض ، ومنهما جاء ثلاثة من الآلهة هم الثالوث أنو ، وانليل (٢)وايا — وهو ثالوث الآلهة البابلية الأول ·

---

(١) هى الالهة العظيمة عشتر ·

(٢) انليل : سيد الجو والارض ، آيا هى المسماة انكى فى السومرية ·

كان ينظر الى أنو على أنـه الالـــه الاعظم ، وكان ذلك منذ أقدم العصور التاريخية ، وكانت عبادته فى أكد فى مدينة دير ، أما عبادته فى سومير فقد كانت باسم أى ـ أنا فى أوروك ، ثم حلت عبادة ابنتـــه عشتر الهة اللذة محل عبادته منذ زمن قديم ، قدما يرجع الى عصر أقدم الآثار المكتشفة ، وحدث مثل ذلك فى لجش ، فقد كان يعبد أى ـ أنا ثم عبدت ابنته تحت اسم ننى (Ninni) وعلى ذلك ، فالاتجاه الدينى فى سومير وفى لجش يسير على نمط واحد ، واذا انتقلنا الى بابل وجدنا حمورابى يجعل أنو أكبر الآلهة كما ترى ذلك فى مقدمة القانون ، ونجـــد فى قصة الطوفان أن الآلهة انسحبوا وصـــــعدوا الى سماء أنو ، وظلوا بعيدين عن الماء وأهوال الطوفان حتى شموا رائحة القربان الذكية فعادوا، ومن هذا كله يتبين ان أنو هو أكبر الآلهة أو أبوهم ، ولكن على الرغم من هذا السمو الذى اتخذه الاله انو فانه لم يحتفظ بالسلطة ، وانما انتقلت منه الى غيره ، ومن هـــذا يمكن القول بان التفكـير الدينى لم يستطع تصور اله هو الأول والآخر ، وان تصورهم للاله كان قـــريب الشبه بتصور البدائيين للاله ٠

وبانتقال السلطة الى بابل وبصيرورتها المركز الســياسى فى الاقليم كان لا بد من تعظيم اله بابل ، لأن تعظيمه يتبعه حتما ـ وفق العقليـة الدينية آنئذ سمو بابل على غيرها من مدن الاقليم ، ولهذا نرى ماردك يرتفع شأنه فيصبح سيد الآلهة ، ويقول ديلابورت (الترجمة العربية ص ١٦٨) ، وأصبحت كلمة مردوك مثل كلمة أنو ، وكان يشار الى خلع هذا الأخير منـذ بدء الزمان ، فحين كلف انشـار العجوز أنو بان يحـارب الثائرة تيامت لم يجد فى نفسه الشجاعة لمواجهتها فكر راجعا ، ولكن مردوك على نقيضه أصبح البطل المنتقم لاخوته ،و فى مأدبة علنية وقد أسلموا أنفسهم أثناءها للسكر رسموا له مصيرا لايبارى وأعلنوه ملكا عليهم » ٠

أما انليل فقد اغتصب أحيانا ألقاب أنو ، وهو على أية حال سيد الجو والأرض ، وهو فوق كل شىء مستشار الآلهـــة ، وهو الذى أحـــدث الطوفان ، وفى قصيدة الطوفان نرى عشتر غاضبة عليه ، وحانقة لاحداثه هذا الحدث الجلل الذى أهلك شعبها ، وطلبت الا يحضر الى القربان ، وفى كتاب بلاد ما بين النهرين لديلابورت الترجمة العربية ص ١٦٩ ترجمة محرم كمال) « وقد أنبه أيا كذلك من أجل نفس العمل : انت أعقل الرجال أيها البطل ، لم لم تمعن الفكر وأحدثت الطوفان ؟ وعلى أية حال فانه

جدد مصير اوتانا بشتيم(١) ، وجعله يسكن مصب الأنهار ، وقد كان في الواقع سيد الكائنات البشرية ، وعهـــد بهم الى أمراء يقودونهم في مسالك العدالة ٠٠ هو اله نيبور سيد سومير » ٠

أما ثالث الآلهة في هذا العقد فهو أيا وهي كلمة معناها بيت الماء ، واسمه السومري انكي أى سيد الأرض ، وكان يرمز له بكائن برمـــائي هو العنزة السمكة ، ويقول عنه ديلابورت فى كتابه بلاد ما بين النهرين (ص ١٦٩ من الترجمة العربية ترجمة محرم كمال) « وكاله للحكمة خلق الانسان بتشكيل كتلة من الطمى منحها الحياة بنسمته الالهية ، وهو الذى انقذ البشر من الهلاك الكامل فى زمن الطوفان ، ولقد كشف عن صناعات مختلفة للانسان ومنح الذكاء للملوك ، وساعد الكهنة على تأدية وظائفهم المقدسة ، وخاصة فى طقوس السحر التى كان يستعمل لممارستها ماء مقدسا ، يؤخذ من حوض أبسو فى معبد أريدو » ٠

الثالوث الثـــانى :

كان هناك ثالوث آخر مكون من اله وولديه ، وهذا الاله الأب هو سن ، أما الولدان فهما شماش وعشتر ، هذا الثالوث هـــو فى حقيقـــة الأمر مأخوذ من مظاهر الطبيعة فسن هو القمر وشمش هـــو الشـــمس وعشتر هو الزهرة ٠

ويتحدث ديلابورت عن سن فيقول (بلاد ما بين النهرين ص١٧٠ من الترجمة العربية لمحرم كمال) « وكان سن يقيس الزمن ، وهو الذى ينهى الأيام والشهور والسنين للملوك المذنبين بالدموع والتأوهـــات ، وكان رمزه الهلال ، وكان يعبد فى أور تحت اسم نانا ٠ ولقد انتشرت من معبده فى حران (٢) (Harran) عبادته فى البلاد الأرامية » ٠

أما الاله شمش (الشمس) فهو القاضى الأعظم ، وله ولدان أحدهما كنو والآخر ميشارو أى العدالة والحق ، ورمزه قرص مزين بنجم ذى أربعة أطراف ، تفصلها عن بعضها مجاميع من الأشعة المتوجة ، وهـــذا الاله هو المرسوم على عامود وحجر الديوريت وهو جالس ، وأمامه يقف

(١) هو نوح البابلى فيما يظن ٠

(٢) يترجم الدكتور احمد فخرى هذا الاسم فى انتصار الحضارة ص ١٩١ هران او خران مرجعا الكلمة الى أصلها البابلى ٠

حمورابى فى اجلال عظيم يتلقى منه القانون المعروف بقانون حمورابى ، والذى سبق أن أشرنا اليه وترجمنا بعض نصوصه ٠

أما عشتر فمعبود هو اله ذكر فى الصباح والهة أنثى فى المساء، ولقد سبق أن ذكرنا أن عشتر هى الهة اللذة عند السومريين القدماء ، ويجب علينا الا نخلط بين هذا المعبود البابلى عشتر وبين عشتر فى عبادات أخرى ، فهى فى عبادة : عشتر الهة اللذة ابنة أنو ، وفى عبادة أخرى ابنة سن الهة الحرب والهة اللذة ، وهى أخت شمش اله النور ، وفى الوقت نفسه أخت ايرشكيجال معبودة العالم السفلى ٠ ويقول ديلابورت فى بلاد مابين النهرين (ص ١٧٠ ، ص ١٧١ من الترجمة العربية لمحرم كمال) « وقد حلت عباداتها فى اوروك محل عبادة أبيها ، وكان محبوها لا يحصيهم العد ، وكانت تسعى لغواية البشر ٠ وكانت تعتبر فى هالاب ابنة ل « سن » وسيدة المعارك ٠ وأما فى اجادة وسيبار فانها تحت اسم أنونيتوم كانت على ما يظهر تمزج بين الشخصيتين وذلك فى عهد نابونيد على الأقل لأنه يسميها « سيدة العراك التى تحمل الجعبة والقوس » وكانت فى نفس الوقت تصنع له الفأل المناسب عند شروق الشمس وغروبها ٠ وقد طغت شخصيتها على الالهات الأخريات ، وكان اسمها المفرد يعنى أى واحدة منهن ، اما مدلول اسمها الجمع فهو الالهات عامة ٠ وكابنة ل « سن » كان رمزها نجما ، وكانت تمثل كالهة للحروب واقفة منتصبة على اسد أو اثنين وهى تحمل الجعبة ، وفى احدى يديها سلاح مقوس وفى الأخرى صولج ، مكون من عصا تتصل بسلاحين مقوسين يعلوها رؤس أسود » ٠ احتلت الالهة عشتر السامية مكانها بين الآلهة الرئيسية فى بابل ، على أنها اله الحب ، وانتقلت عبادتها بعد ذلك الى بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وأطلق عليها الاغريق القدماء اسم أفروديت ٠ وتتميز الالهة عشتر بأن الآلهة منحتها هبة التنبؤ بالغيب، ومن ثم كان التنجيم وكان الكاهن الذى يقوم به يعرف بالمنجم ، وكان ينظر الى اماكن النجوم والكواكب ويعرف منها الذى أمرت به الآلهة ، ثم يتحدث عن المستقبل ، وكان القدماء فى سومر وأكد يؤمنون بأن فى استطاعة المنجم أن يحدثهم عن المستقبل ٠ ومن المعروف أن هذا التنجيم تطور أيام الكلدانيين وصار علما قائما بذاته ، ثم صار هذا العلم أساسا لعلم الفلك ٠

ويقول جيمس هنرى برستد فى انتصار الحضارة ص ٢٣٣ من ترجمة أحمد فخرى) « ٠٠٠ فقد واصل البابليون العادة القديمة فى

محاولة قراءة المستقبل مستدلين بالأجرام السماوية ، وكانوا ينظرون الى الكواكب المعروفة اذ ذاك (عطارد) والزهرة والمريخ ، والمشترى ، وزحل) على أنها القوى التى تتحكم فى مصائر البشر ، كما أن الآلهة البابلية الخمسة الرئيسية كانوا يمثلون الكواكب السيارة الخمسة • ووصلت الينا أسماء هؤلاء الآلهة البابليين على أنها أسماء الكواكب الخمسة ، ولكنها تغيرت عندما وصلت الى أوروبا فترجموها الى كلمات تلائم الحياة الرومانية ، فأصبح كوكب عشتر الهة الحب هو فينوس (الزهرة) ، بينما بات الاله الاعظم مردوخ كوكب جوبيتر (المشترى) وهكذا دواليك ••• ولما كانت العبادة الكلدانية قد انتشرت فى سوريا وذاعت ، فقد جرت العادة أخيرا على العبادة والتغنى بمدح كل اله منها فى يوم خاص معين ، وهكذا كانت عبادة كل اله من هذه الآلهة تتكرر بعد مرور سبعة أيام ، ثم اطلق اسم الاله الذى يعبد فى يوم ما على ذلك اليوم نفسه ، وهكذا أصبح اليوم المكرس لعبادة الشمس الأحد (يوم الشمس ـ Sun day) وبات اليوم الخاص بعبادة القمر الاثنين (يوم القمر ـ Mon day) وهكذا حتى نهاية الاسبوع وعرف اليوم الأخير المخصص لعبادة زحل باسم يوم ساتورن وهو السبت » وبعد ان يتحدث عن يومى الأربعاء والخميس يقول : « ومع هذا فان هذه الأسماء جميعها ترجع الى الآلهة البابلية القديمة التى مازالت أسماؤها محفوظة بين الشعوب الغربية يذكرونها كلما نطقوا باسم أى يوم من أيام الأسبوع » •

الاله مردوك :

كان عدد الآلهة عند السومير والأكاديين كبيرا جدا ، ذلك لأن كل قوى الطبيعة ومظاهرها العاملة فى أنحاء الحياة وتطورها أو اختلافها تؤله عندهم ، وكان لكل مدينة معبودها الخاص بها ، قد تستقل به وقد يكون معبودا فى غيرها ، ولكنها كانت تنظر اليه على أنه معبودها هى ، وعلى هذا النمط كان لكل رجل معبوده ، والمعبود مكون من زوجين الهيين ، ولكن على الرغم من هذه الكثرة فى الآلهة فقد ظفرت بعض الآلهة بسلطان أقوى فى النفوس من غيرها ، وأخذ هذا السلطان يعظم وتشتد سيطرته حتى بلغ الأمر ان نظر الى الآلهة التى ذوى سلطانها على أنها مظاهر للآلهة المسيطرة • هذا الأساس هو الذى دعا التفكير الدينى فى

عصر البابلية الجديدة ان يسمو أحد الآلهة على غيرها ، وجعل أحد الآلهة يتفوق حين اتحدت سومير وأكاد فى مملكة واحدة ، هذه النزعة الدينية استغلها حمورابى واستطاع أن يرفع من شأن الاله مردوك الى الدرجة الأولى مع كبار الآلهة ، وعندما تم له ذلك تألفت الأناشيد الجديدة المستقاة من القصص القديم للاشارة بهذا الاله فى وضعه الجديد • وكان أنليل صاحب لقب سيد ، وهو بذلك يملك لوحات القدر منذ زمن لا يمكن تقديره ، وأراد القصص الجديد لمردوك أن يسلب منه هذه اللوحات ، فجاء بقصة قيام مردوك بقهر تيامت (الفضاء) ، فترتب على ذلك أن الآلهة منحته حق تقرير المصير مكافأة له ، ولم يقف الخيال الدينى عند هذا الحد ، بل جعل أنو يتخلى عن سلطاته له ، وجعل أباه أيا يمنحه اسمه ، ولهذا كان مثل أبيه ساحر الآلهة واله الكهنوت وخالق البشر •

كان مردوك يمثل بأذنين كبيرتين ترمزان الى فهمه الواسع ، وكان يحمل السلاح المقوس الذى أخضع به تيامت وتحت قدميه الوحش الذى قهره ، وكانت الحربة رمزاً له •

ويقول ديلابورت (بلاد ما بين النهرين ص ١٧٢ من الترجمة العربية لمحرم كمال) « وكانت آلهة بابل وبورسيبا يأتون سنويا فى يوم عيد السنة الجديدة ليقدموا له ولاءهم ، وكان موكب عظيم ينظم فى الطريق المقدس ، وعندما كان يتوجه رسميا الى معبده اكيتى كان يتوقف فى الذهاب والعودة عند (دوازاج) ، وفى اليومين الثامن والحادى عشر كان الآلهة يجتمعون هناك ، ويحيونه فى رهبة ويركعون أمامه ، وكانت المصائر تحدد أثناء ذلك تحديدا قاطعا للسنة بأكملها • وكان توقف هذه الاحتفالات فى زمن الحرب أو عند حدوث مصاب تذكر بصفة خاصة فى حوليات المدينة » •

آلهة أخرى

كان الى جانب هذه الآلهة التى ذكرتها قصيدة الطوفان ، وهى أدد ــ اله الجو ، ونبو ــ المنادى الحربى ، وشروه ونرجل ــ اله الجحيم ، وننب واننكى كان الى جانب هذه الآلهة غيرها من الآلهة ، فقد كان لانليل ولد يسمى اينورتا هو أول مولود له وهو بطله ، وكان اله حرب خبيرا فى العراك « لا تستطيع البلاد أن تحتمل وطأته الثقيلة » ، ومن عادة هذا الاله أن يمتزج بالهة بعض المدن فيطلق عليه اسم المكان ، ففى لجش

كان يسمى في جيرسو اسم ننجرسو أي سيد جرسلو ، وفي اسنوسننة سمي « أن شوشيفاك » السوسي وهكذا ، وكان لاينوزنا عشرون سلاحا على الأقل ، اذ كان يمسك في يمناه حزمة من العصي والأسلحة ذات الأسنة المحدبة تعلوها رأس أسد ، وهذا الحيوان الرمزي الأسد كثيرا ما يظهر مقدمه على كتفيه أو يكون مستقرا بين قوائم عرشه أو تحت قدميه ٠

وكبرى بنات أنو هي باو تزوجت ننجرسو ، وكانت تلقب بالمرأة الخيرة ، وكانت أما لسبع توأمات ، وفي عصر حمورابي اتخذت اسم ننكراك ، كما تسمت في عصر الكاسيين جولا ، وبهذين الاسمين ننكراك وجولا عرفت بأنها الهة الطب ، تضمد الجراح التي يسببها الاله ، وتشفي الأمراض ٠

وكما عبد قدماء المصريين النيل وقدس الاغريق النهر وجعلوا له الهياكل يعبد فيها اله النهر ، فقد قدس السومير أكاديون النهر ، واختاروه مع جيبيل ــ اله النار ــ ليفصل بقضائه بين البشر ، ووفقا لقانون حمورابي كان من يهتم بالسحر يلقى به في النهر المقدس والنهر وحده كفيل بكشف براءته أو ادانته ، وكان من قداسة النهر عند السوميرأكاديين أنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة هي التي حفرته ، وهي التي أقامت الخير على ضفتيه ، وأنها منحته قوة التمييز بين العدل والظلم ٠

وكان للماء الهة هي نينا التي هي ابنة ايا ، وكان يرمز لها بسمكة في وسط حوض ، وكان لها هيكل في لجش ، وفي بعض أيام الأعياد كانوا يعتقدون أنها تخرج في الموكب ، وأن قاربها المقدس يبحر فوق القناة ٠

وللجو اله هو أدد ، الذي أرسل الأعاصير في قصيدة الطوفان ، كان له مكانة عجيبة ، كان مبعث خوف واحترام في نفس الوقت ، مصدر خوف لانه يلقي الرعب في النفوس حين يطلق الرعد ، ولقد كان يصور لابسا ثيابا قصيرة ويقف فوق ثور ، وهو مسلح بصاعقة رافعا سلاحا فوق رأسه ، وكان مصدر احترام لانه كان يرسل الغيث ٠

وكان لنينا الهة الماء أخت هي نيسابا ، كانت الالهة المسئولة عن نمو القصب العظيم الذي كان أحد مصادر ثراء الاقليم ، والذي استعمل في تشييد الأكواخ وعمل الحصر وصنع الكراسي والموائد والسلال ، والذي

اتخذ أيضا للوقود ولم تقتصر فائدته عند هذا الحد بل اتخذوا من سيقان القصب أقلام الكتابة على ألواح الطين ، واستخدم رماده فى غسل الثياب، ولقد تصوروا هذه الالهة نيسابا جالسة فوق كومة من القصب ، مرسلة شعرها حتى يسقط متموجا على كتفيها اللتين تبين منهما سيقان القصب، ممسكة فى يدها اناء يفيض ، هو رمز الخير الذى توزعه ٠

الحكم والأمثال

ننتقل بعد ذلك الى هذا اللون الأدبى ، الذى هو غالبا ما يكون ثمرة تجارب شعبية ، صقلتها الحياة فأخرجتها فى ألفاظ قليلة ، تصور النظرة النافذة والعقل الواعى ، ولكنى فى هذا العرض لن أتناول هذا الموضوع من ناحيته الأدبية ، ذلك لأنها لا تعنى الموضوع المخصص له هذا الكتاب، ولكنى أتناولها من حيث دلالاتها الدينية وتصديها لفكرة الخير والشر ، تلك الفكرة التى كانت فيما يبدو أساس الخيال فى خلق الآلهة ، وهى على أية حال الأساس الدينى الذى يميز الها عن اله فى أرض الرافدين ٠

والدارس لهذه الأمثال والحكم فى هذه المنطقة من العالم تروعه حقيقة لابد من ايرادها ، هى أن رغم الافتراض بوجودها ، قياسا على ما كشفت عنه الآثار المصرية القديمة ، فانها قليلة قلة لا تعطى فكرة شاملة ، وذلك راجع فيما أعتقد الى قلة ما اكتشف منها فى أرض الرافدين ، أو الى عدم عناية البابليين بتسجيلها ، على ان هذا القليل يعطينا فكرة ما ، فكـرة وان كانت ناقصة الا أنهادالة ، وأورد هنا نصين يصوران منطق العقل واتجاهه فى هذه الناحية ، واختيارى لهذين النصين يتفق والمنهج الدينى الذى سار عليه الناس ويدلان على تطور دينى ٠

النص الأول ــ مأخوذ من مجموعة أشورية يرجع تاريخها الى حكم اسرحدن (Esarhaddon) من ٦٨٠ ــ ٦٦٩ ق٠م

« ليس الانسان الا الظل لاله ، وليس العبد الا الظل لانســـان ، ولكن الملك هو الصورة لاله » ٠

فانت تلاحظ ان هذا التقسيم يقوم على المنطق الدينى لسوميرواكد وبابل ، فالانسان ظل للالهة ، والآلهة منهم الخير ومنهم الشرير ، ولما كان العبد خاضعا لسيده ، وتابعا لأوامره ، فهو ظل لسيده ، ان خيرا فهو خير ، وان شريرا فهو شرير ، أما الملك فانه يتميز عن بنى البشر فى أنه

يتلقى حكمه من الاله ، فهو اذن صورة حية لهذا الاله الذى أقامه على الأرض ملكا ، كما ترى ذلك واضحا من مقدمة قوانين حمورابى وخاتمتها .

والنص الثانى وان كان مأخوذا من لوحة يرجع تاريخها الى ما قبل سنة ٧٠٠ م الا انها فيما يرى الباحثون ذات أصل بابلى أصيل ، وهو يتصدى لاعطاء نصائح للعيش فى الحياة ، وهذه التعاليم يروعنا منها مقابلة الشر بالخير والاساءة بالاحسان .

كرجل عاقل ، دع فهمك يضىء فى تواضع ،
اجعل فمك محكوما ، وكلامك محفوظا .
مثل ثروة الانسان . اجعل شفتيك ثمينتين ،
لتكن الاهانة والعداوة مبغوضتين عندك .
لا تنطق بشىء ناب ، ولا تشر (ب) نصيحة كاذبة .
فمن يفعل شيئا قبيحا — فرأسه محتقرة .
لا تسرع بالوقوف فى جمع عام ،
لا تسع الى مكان خصام ،
لانه فى الخصام ، يتحتم عليك أن تعطى حكما ،
وستجبر على أن تكون شاهدهم ،
سيدعونك للشهادة فى قضية لا تعنيك .
حينما ترى شجارا ، ابتعد عنه دون مراقبته .
ولكن اذا كان حقا فأصابك ، فاطفىء اللهب .
لأن الشجار اهمال لما هو حق ،
جدار واق ... (ل) عرى الخصم :
كل من يحسم يجول فى الخاطر أنه لمصلحة صديق .
نحو خصمك لا تفعل شرا .
عوض مؤذيك بالاحسان
نحو عدوك ، دع العدالة (تمضى)
نحو ظالمك ...
دعه يفرح انه فوقك ، .... عد اليه .
لا تدع قلبك يوعز اليك بفعل الشر

(هنا سطور ضائعة)
قدم الغذاء للإطعام ، وقدم نبيذ التمر للشراب
من يستجدى الاحسان ، احترمه واكسه
وفوق ذلك فان ربه يفرح
هذا يسر الاله شمش ويجزى عنه الحسنى
كن معينا وافعل الخير
سيدة فى البيت لا ٠٠٠٠٠٠
لا تتزوج بغيا أزواجها ستة آلاف ٠

هذه المقابلة الواضحة للشر بالخير ، وهذه الدعوة الصريحة لتجنب الشر مهما كان الأمر ، والاحسان الى من أساء شيء لا يمكن أن يغفل عنه قارىء ، وهى دعوة شبيهة بدعوة المسيحية كما تبدو فى الأناجيل ، ومن الخير أن نقف عند هذا الحد ، وندع للباحثين فى علم الأديان المقارن الدراسة التفصيلية ، ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن النصين المذكورين هنا يدلان على أنهما من ايحاء عقليتين مختلفتين فى المنهج الدينى بل وفى تصور مثل هذه الحياة العليا ، يضاف الى هذا ان الاشارة الى الشمس فى النص الثانى لا يدع مجالا للشك فيه وفى نسبته الى العقيدة البابلية ، وهذا يدل على أن تطورا فى العقيدة البابلية اتخذ مجراه ، ولكنا لا نجد السبيل اليه لندرة النصوص التى تدل عليه ٠

ثالثا ـ العقائد على أرض الهند

(أ) الهندوستانية

ان النصوص الدينية التى تمثل عقائد سكان الهند متنوعة ومعقدة، ويعنينا منها بادىء ذى بدء الهندوستانية ، والنصوص الخاصة بها تقع فى مجموعتين ، تسمى احداهما سروتى (Sruti) وهى النصوص التى انتقلت من جيل الى جيل عن طريق السماع والحفظ ، والأخرى تسمى سمريتى (Smriti) ، وهى التى احتفظ بها عن طريق التقاليد ٠

من المجموعة الأولى ما يعرف بالفيدات (Védas) ٠ وهى سجل للأناشيد التى كانت ترتلها القبائل الآرية القادمة من الشمال الى الهند ، وكلمة فيدا معناها المعرفة ، والمقصود بالمعرفة هى المعرفة المقدسة التى تتأتى من قيام حالة خاصة فى الوعى ٠ وكلمة فيدات تشير فى الاستعمال

العام الى معنيين ، أحدهما الاشارة الى النصوص الفيدية سواء أكانت مسجلة أو شفوية ، والآخر الاشارة الى الكتب الأربعة وهي :

١ ــ رج فيدا أو راجا فيدا (أي الفيدا الملكية) وهي التي كانت تسمى قبل اتخاذ هذا الاسم باسم رتشه (rchah) أي المدايح .

٢ ــ سم فيدا (Sama-Veda) وهذا الكتاب كان مضمونه من قبل يسمى سمنى (Samani) أي الأنغام المطربة ، وهو عبارة عن تراتيل يتغنى بها الكاهن .

٣ ــ يجور فيدا (Yajur-Veda) وقد كان من قبل يسمى يجمسى (Yajumsi) ، وهو يتضمن عبارات خاصة يتلوها الكاهن لمنح البركات .

٤ ــ والرابع والأخير هو أثروا فيدا (Atharva-Veda) وقد كان يسمى في الأصل أثروا سنجيره (Atharvasanjirah) أي النعم والنقم ، وهو يتضمن التعاويذ التي تعمل على تغيير المصائب .

والرج فيدا يتضمن ١٠٢٨ نشيدا دينيا ، وهو مقسم الى عشرة كتب أو فصول ، ستة منها : يتحدث كل واحد منها عن أسرة من أسرات المنجمين (rishis) وينسب اليها أمورا مزعومة . ويتميز الكتاب العاشر بأن النظرة فيه أوسع شمولا من غيره . ويقول الباحثون ان هذه التراتيل مصاغة بلغة سنسكريتية قديمة ، هي بالنسبة للسنسكريتية المعروفة كنسبة لغة هوميروس الى اللغةاليونانية المألوفة في الآداب اليونانيةالقديمة، ويرون أيضا ان هذه التراتيل اتخذت شكلها النهائي فيما بين سنة ١٠٠٠ ق.م وسنة ٨٠٠ ق.م ، ومن ثم فهي لا تتضمن العقائد الهندية العريقة في القدم ، وأنها ليست أقدم من عقائد قدماء المصريين التي ذكرناها ، على أنه لا يفوتنا أن نذكر انها ظلت سنين طويلة غير مدونة حتى تم تسجيلها وكتابتها ، لأنه كان ينظر اليها على أنها من القداسة بحيث لايجوز كتابتها، ولا يجوز لشخص لا يعرف هذه المكانة المقدسة أن يحوزها ؛ ومن هنا ظلت سرية عند الكهان ، وبلغ من أمرها أنها حين كتبت ظلت بعيدة عن الطبقات الدنيا ، ولا يؤذن لأحدهم أن يقرأها .

ويذهب الباحثون أيضا الى أن بعض هذه التراتيل كان ثمرة تأليف أشخاص ، وانها ليست ثمرة وحي الهي بالمعنى الذي نستعمل فيه الكلمة،

وهذا على الرغم من اعتقاد الهنود من حوالى سنة ٧٠٠ م أنها جاءت عن طريق الوحى ، يريدون بهذا التعبير أنها ألقيت فى روع المنجمين ، وبدت على ألسنتهم فى أحاديث شفوية ، والدراسة لهذه التراتيل وغيرها أدت الى القول أنه بعد الفيدات الأربع الأولى قامت الشروح والحواشى البرهمية لهذه الفيدات ، ثم أصبحت جزءا مكملا لها واتخذت ما لها من قداسة ، وهى غالبا ما تكون توضيحات لشعائر دينية تضمنتها هذه الفيدات ، ثم تحولت هذه البرهميات بمرور الزمن الى يوبانيشادات (Upanishads) أو رسائل فلسفية ، وعند هذا الحد ينتهى أمر « السروتى » الأصيل ونصل الى « السمرتى » أو التقاليد الدينية التى يعد الجانب الأكبر منها كتبا طائفية ، والتى تتضمن رسائل فى الأخلاق تعرف بالسوترا (Sutras) وهى تنقسم الى قسمين : الشعائر أو كتب العبادة وكتب قوانين الشريعة .

بعد هذه المقدمة نتحدث عن الاله كما يبدو فى هذه الكتب المقدسة، ونبدأ بأنشودتين لمناجاة الاله الأكبر المسمى فارونا (Varuna) ، وهو رب السماء وحامى النظم الأخلاقية ، ونستطيع أن نلحظ أنه اله يرقى الى مستوى اله اليهود يهوه . والأنشودتان مأخوذتان من الكتاب السابع من الرج فيدا :

الأنشـــودة الأولى

الحكماء هم الأجيال فى طريق العظمة
عنه الذى جعل العالمين الواسعين مشطورين .
ودفع عقد السماء الى العظمة والارتفاع
وكذلك كوكب النهار ، وبسط الأرض عريضة .

*

مع نفسى بذاتها ، تأملت هذا السؤال :
متى سأكون مع فارونا متحدا ؟
أية موهبة عندى سيتمتع بها بغير سخط ؟
متى ــ بقلب سعيد ــ أحظى برحمته ؟

*

رغبة منى فى معرفة خطيئتى أتجرى
فأطوف على جميع الحكماء وأسألهم ،
شىء واحد ونفس هذا الشىء قاله الحكماء لى :
« فارونا معك على سخط شديد » .

يا فارونا ، ما هو ذنبى الأساسى ،
أهو القضاء على صديق يتغنى بمدائحك ؟
خبرنى ، فالله غير خداع وذو سلطان ، وبلا أخطاء
هل أسترضيك اذن بالتسبيح ؟

خلصنا من أخطاء آبائنا
ومن تلك التى اقترفناها بأنفسنا
كمثل سارق الأنعام ، أيها الملك ، وكمثل وثاق العجل ،
اذن ، فانطلق حرا ، يا فاسستا (Vasistha) من القيد .

*

لم تكن هى ارادتى يا فارونا انه الضلال
ترتب على الشراب ، والغضب ، والمقامرة ، وقصر التفكير .
رجل أسن ضلل صغيرا
وحتى النوم لا يقى الانسان من السوء .

*

اجعلنى كعبد حينما يجعل مرة بلا ذنوب
أعبد الرحمن قبل زمن الغضب .
صاغ الاله النبيل الغبى مفكرا
يسرع بالحكماء الى الثراء انه لحكيم

*

ارجو بنشيدى هذا يا فارونا الحاكم القهار
ان اقترب منك وأجعل قلبك راضيا
أرجو أن تحسن الينا فى الراحة والعمل .
فحصنا دائما بنعمائك

*

من الواضح فى هذه الأنشودة رغبة ملحة فى افناء ذات الانسان مع فارونا لتكون منهما وحدة ، وهذا يشير الى أن نظرية وحدة الوجود القائلة بأن الرب والطبيعة والكون شىء واحد — لم تكن قد وصلت بعد الى كيانها الكامل فى العقيدة الهندية .

الأنشـودة الثـانية

لا أرغب ، أيها الملك فارونا ،
أن أنزل الى منزل الطين •
كن غفورا ، أيها الرب القوى ، واعف •

*

ما دمت كالمترنح أتحرك
ومثل القربة المنفوخة ، أيها القاذف ،
كن غفورا ، أيها الرب القوى ، واعف •

*

مهما يكن فعن ضعف ارادتى ،
رحت فى الضلال ، أيها الواحد المتلألىء
كن غفورا ، أيها الرب القوى ، واعف •

*

وجد المترنم بك العطش حتى حينما ،
يكون واقفا فى وسط المياه
كن غفورا ، أيها الرب القوى ، واعف

*

مهما نرتكب نحن الرجال من أخطاء ، ضد الجنس
ومهما يكن قانون المؤلهين يا فارونا
فقد خالفنا الخاص بك بطيشنا
فعن تلك الجريرة لا تعاقبنا أيها الاله •

*

ذلك فارونا رسـم الاله فى العقيدة القديمة كما يبدو فى الكتاب السابع من الرج فيدا ، ومن الواضح أنه شبيه بالاله يهوه عند اليهود ، وهو يختلف اختلافا واضحا عن الاله أجنى ـ اله النار ، الذى يطلب أو يبتغى أن يتحد به ، وهى العقيدة فى الاله التى تتبين من الكتاب الأول من الرج فيدا أنها تطور راق لعقيدة سابقة ، أخذت تتدرج فى السـمو حتى وصلت الى هذا التصور الموجود فى الكتاب الأول ، ثم أخذت فى الرقى حتى وصلت الى القمة فى الكتاب السابع •

ونحن حين ننظر أو نلتمس هذه العقيدة التى سبقت تصور أجنى على هذا الوجه نجدها فى التراتيل أيضا التى تشير الى أجنى (Agni) اله النار بمسماه عند الأمم الأخرى نجد أنها عقيدة قديمة ، ويذهب الباحثون الى أنها عريقة فى القدم ، مستدلين على ذلك بأن كلمة أجنى Agni هى أجنس Ignis الاله فى اللاتينية القديمة ، وهى أجنى (Ugni) الاله فى اللغة اللتوانية ، وقالوا ان اطلاق هذه الكلمة مشيرة الى اله النار عند هذه الأمم القديمة يدل على أنها ترجع الى العصر الذى كانت فيه القبائل الهندو أوروبية غير منقسمة ، أى حينما كانوا يعيشون فى موطنهم الأصلى ، وحينما كانت للنار عندهم مكانة كبرى ، أى حين كان يهجم عليهم الشتاء بقسوة برده وطوله وعواصفه الثلجية .

واليك نشيدا موجها الى أجنى ومنه يستدل بوضوح على عقيدة أجنى الاله Agni ، كما يصوره هذا النشيد أنها قديمة موروثة ، وأنه اله كما تتصوره قبائل بدائية ، وهذا مما يعزز الرأى بقدم العقيدة . وهذا هو :

قابضا على طعامه لنفسه ـ الواحد الفتى
أجنى يقف شرها وسط الأجمة وكله تعطش
حينما تلمع حبات الزبد المنثورة على ظهره تخطف خطف فرس الرهان
فانه يزأر مرعدا محدثا خطا عاليا فى السماء

❋

الريح المسيرة ـ بالمنجل ـ غارفة طعام أجنى
تنتشر بسهولة فى الأجمة بزئيره القوى ،
وحينما أنت تنقض متعطشا الى العصى انقضاض العجل ،
يكون مسلكك أسود ، أيها الرب الفتى ذو الأمواج النارية ،

❋

من فكى النار ريح مسيرة تنزل متأججة على الغابة ،
أجنى ـ كثور قوى مندفع نحو القطيع ،
يصعد على الهواء الدائم نورا جاريا ،
ثم يمتزج الشيئان محدثين خوفا للمجنح

ومن الملاحظ أن هـذا الاله أجنى مخيف ورهيب ، طبيعتـه نارية وينزل الأذى بالعصـــاة ، فمهمته الالاهية كما تبـدو تأديب العصاة ؛ ونلاحظ أن الاله فى الأنشودتين اللتين تسمى الاله فارونا أنهما تصورانه الها أرقى بكثير من تصوير الاله فى هذه الأنشودة التى تسميه أجنى ، ومن ثم فان تطورا عظيما فى تصور الاله قد حدث على مدى الزمن ، وأن هذا التطور لابد أنه مر ـ فيما يبدو ـ باتجاهات دينية انتهت به ، ومن هذه الاتجاهات الاعتراف بآلهة ، أعنى أن التطور الذى وصل الى تصور فارونا كاله مر ـ أو ربما بدأ ـ بدور تعدد الآلهة ، ولدينا من النصوص الدينية فى الرج فيدا ما يؤيد هذا الرأى ، فمنها :

نشيد قداسة الخمر

عرف الانسان منذ عصر مبكر من تاريخه ما جعله يقدس هذا الشراب الكحولى لما له من سلطان على شاربه ، ولقد خصص الكتاب التاسع من الرج فيدا لهذ االشراب المقدس وطقوسه ، الذى يسميه سوما (Soma) أناشيد منها هذا النشيد :

بتيار دفاق (مصحوب) بنشوة
وبرقة عظيمة ملأتك سوما ،
عصرت لاندرا (Indra) شرابا له ٠

❋

الشيطان السفاح ، حاضر فى كل مكان
وصل فى الحوض الخشبى
الى مقره ، المنزل المعدنى المنقوش ٠

❋

كن أنت خير سفاح لفرترا (Vritra) ، خير
مانح للهناء ، عظيم السخاء ،
فثروة سادتنا النبلاء فى نماء ٠

❋

تقدم بعصيرك الى
مأدبة الآلهة الأقوياء

اسكب للنصر وللشهرة

❋

يا اندو (Indu) نتقرب اليك ·
هذه غايتنا يوما بعد يوم ،
اليه نتوجه برغباتنا ·

❋

بوساطة الجزازة الصائبة
تطهر ابنة الشمس
سومتك التى تنسكب

❋

يقبض عليه ويمسك بقوة فى القتال
عشر جوار هيفاوات ، كلهن أخوات ،
فى يوم القتال الفاصل ·

❋

يرسلونه مقدما بجماعة العذارى
ينفخون فى القربة الموسيقية
أضعافا مضاعفة من الوقاية يعطى العصير ·

❋

لبن البقر دهان مصون
سوما الصغيرة بألبانها
سوما لاندرا شراب له

❋

فى الهيام الجنونى بهذا الشراب ،
أندرا يقتل كل أعدائه ،
والواحد القوى يهب لها ثروته ·

❋

من الواضح تعدد الآلهة فى هذا النشيد ، وتصور تعدد الآلهة جعل الليل والصباح بنتين للسماء ، ومن ثم فهما الاهتان صغيرتان · ومن

الملاحظ أن اندرا أعظم هذه الآلهة فى النشيد ، وأن التقرب اليه يكون بالخمر ، التى يحبها حبا جنونيا ، كما تبدو فيه فتنة بالعذارى ، وان لم تصل هذه الفتنة الى درجة فتنته بالخمر ، وهو اله حرب يقاتل فتاك ، واليك أنشودة أخرى لا تصف الليل على أنه ظلام حالك ، وانما تصفه على أنه ذو عيون كثير هى بالطبع النجوم :

بدت الليل فى الخارج تقترب ،
فى أماكن كثيرة بعيونها
اتخذت الآن كل بهائها ٠

*

شملت الخالدة ،
الأعماق والمرتفعات والفضاء الواسع
وبضوئها أبعدت الكآبة ٠

*

الالهة الليل على وشك الانتهاء
أختها الفجر أبعدتها تماما
وسوف يختفى الظلام أيضا

*

أظهرت لنا هذا اليوم
وعند قدومك نسعى الى بيوتنا
وكذلك الطير الى أوكارها على الشجرة ٠

*

والى المنزل ذهب القرويون أيضا ،
والى المنزل كذلك ذوات الأقدام والأجنحة
والى المنزل كذلك الصقور الجشعة تذهب

*

ابعدى الذئب والذئبة ،
ابعدى اللص ، أيتها الليل المتأملة ٠
وبعدئذ فاعبرى بيسر ٠

دنا الظلام قريبا منى
أسود ، واضحا ، راسما صورا خفية
فيا أيتها الفجر بدديه تبديد دين

*

مثل ترتيلتى مثل الأبقار أقدمها لك
خذيها ، أيتها الليل ، ابنة السماء
كأغنية تمجيد لفاتح ٠

*

ومن هذين النشيدين اللذين اتخذناهما مثـــالا ـ يتبين أن الهنود القدماء مروا بمرحلة تعدد الآلهة ، وأنهم ككل أمة قديمة بدأت حياتها كما يعيش البدائيون ، اعتقدوا فى اله مثل أجنى أن لم يكن هو أجنى نفسه ، ثم تطورت هذه العقيدة البدائية فكان التعدد ، ثم ارتفعت أو أخذوا فى الرقى الدينى حتى تصوروا الاله على نحو ما هو مرسوم فى الكتاب السابع من الرج فيدا (Rig-Veda) ولقد ذكرنا من النصوص ما يؤيد هـــذا القول ٠

الاله الشمس

وكما كانت الشمس ذات روعة وقوة فى نفوس القدماء ، اعتبرها المصريون القدماء الها وتعصب لها كهنتها تعصبا أطاح بالفكرة الاصلاحية التى جاء بها اخناتون ، كانت أيضا عند البابليين الها كبيرا عظيما لا يقل فى مركزه عما كان عند المصريين القدماء ، وهذه المكانة الكبرى نفسها نجدها واضحة فى نفوس الهنود القدماء ، ذلك لانه على الرغم من تطور فكرة تصـــور الاله على نحو ما أشرنا فان النصـــوص الدينية الموجهة الى الشمس تعد أقدس ما فى الرج فيدا ، وهذا أمر له دلالته يبين السلطان العظيم الذى كانت تحتله هذه العقيدة فى قلوب الناس ٠

ومن الملاحظ أنه فى جماعة الآلهة الهندوستانية يذكر الاله الشمس بأسماء مختلفة ، فهو يسمى تارة سوريا (Surya) ويسمى أيضـــا سفتر (Savitar) ، ويطلق عليه فشنو (Vishnu) ، كما يطلق عليه بوسن (Pusan) وربما سمى أيضا مترا (Mitra) ؛ ويرى بعض الباحثين أن هذه الأسماء كانت آلهـــة لقبائل استوطنت الهند ،

وبمرور الزمن أصبحت تشير الى الشمس فى منازلها المختلفة وفى أوقات معينة ، واليك أقدس نص فى الرج فيدا ، يمثل تصورهم وعقيدتهم فى الاله الشمس :

ذلك المضى فى التوهج لسفتر ،
الواحد المقدس نرجو أن نحظى به ،
حتى يثير أفكارنا •

فأنت تلاحظ فى هذا النص أن قدرة سفتر تتركز فى اثار الأفكار ، بمعنى أنه يوحى فتثار الأفكار ، ذلك لان الشمس كما توقظ النـاس للعمل ، كذلك توقظ روح الانسان ، وعلى ذلك فشعاعها فى الصباح رمز لنور باطنى ، يبتغى العابد انبثاقه فى نفسه فى مطلع اليوم ، ومن هذا يمكن أن يقال كما تبعث سوما (الخمر) المبهجة للفكر المقدس وللعبادة ، فكذلك يفعل سـفتر فى اثارة العـابد ، اثارة ينتهى به سـفتر بطريق الانعاش والنور الباطنى الى أن يصبح العابد بلا خطيئة • ذلك لأن النص يقول :

واذا اقترفنا شيئا ضد الآلهة بلا وعى ،
فبضعف الارادة أو بالسفاهة ونحن بشر ،
وسواء أكنا آثمين ضد الآلهة أو ضد البشر الأموات
فخلصنا من الخطيئة والاثم يا سفتر

ومن هذا يتضح أن سفتر قادر على تحريرهم من الذنب ، وقادر أيضا كما يقول النص على تخليصهم من الهم •

وسفتر بضوء صباحه يبعد هموم الليل وكل الأحلام السيئة •

فهذه النصوص تدل على أن الشمس اله قادر أن يفعل الخير ، وأنه فى مكانة ارتفعت فى قلوب أصحاب العقيدة ، الى أن أصبحت النصوص الدينية الخاصة به أعظم من غيرها تقديسا •

الاله ردرا (Rudra) .

وكما كانت الشمس الها يبتغى خيره ، كان ردرا الها يخشى ويتقى شره ، ويذهب بعض الباحثين الى أنه ربما كان فى الأصل اله العواصف ، ثم أصبح الها للقسوة والقوى المدمرة ، واتخذ العجل رمزا له ، ولما كان هذا الاله ذا خلق مدمر خشوا بطشه وسموه تملقا له سيفا (Siva) أى المبارك ، وهذا الصنيع من الهنود يشابه صنيع اليونان الأقدمين حين تملقوا

ايرنيس فســموه يومنيــديس أى الشفيق ، على أن الهندوستانية بمرور الزمن وفى وقت متأخرنسيت الاسم الأصلى وبقى اللقب ، أى أن اســم ردرا اختفى واحتفظت العقيدة باللقب سيفا وصار علما ، واليك نشــيدا يبين لك ملامح هذه العقيدة (وهى رباعية) :

دع ارادتك الخيرة ، يا سيد مروتس (Maruts) ، تدركنا
من مشهد الشمس لا تبعدنا يا رودرا ·
بحق الرحمة يستغنى البطل عن خيلنا
لنتكاثر بذريتنا يا ردرا ·

*

بتلك الأدوية السريعة الاشفاء المعطاة منك
أحظى بمائة شتاء يا رودرا ·
أزح بعيدا عنا الهم والحقد
اطرد الأمراض الى كل الاتجاهات ·

*

فى المجد أنت خير من ولد ،
محكم السياسة يا رودرا ، أقوى الأقوياء ·
فى النائبات جز بنا الى النجاة ،
ادفع عنا كل فتكات السوء ·

*

نرجو ألا نسخطك ، يا ردرا القوى
بعبادة ضعيفة وسوء ثناء وابتهالات مرتبطة ·
فأنت تعلى من شأن أبطالنا بالأدوية
وأسمع أنك خير الأطباء جميعا

*

يتوسل الى رودرا بالهدايا والابتهالات ·
سأسترضيه بالتراتيل والترانيم
المنعم ، رقيق الشفاه ، المنال ، المورد ،
أرجو ألا يعرضنا لغضبه القاسى ·

*

أرجو أن يجعلنى العجل سعيدا مستجديا منه الغوث ،

بسلطانه القوى يطوق مروتس (Maruts)
سأحظى بالظل فى الحر فعلا
سأسعد بنيل رحمة رودرا وبالسلامة

*

أين يدك المنعمة يا رودرا ،
التى هى لنا معالجة ومهدئة ،
حامل الأذى عنا الموقع من الآلهة ،
كن لى أيها العجل رحيما وحاميا

*

عندى للعجل ـ ذى الحمرة الداكنة والبياض
بصوت قوى مدائح قوية
سبح الواحد اللامع بتعبد خافت
فنحن نثنى على اسمه ، الاسم الرهيب لرودرا ٠

*

بأعضاء ثابتة ، وبتعدد الصور ، القوى ، الأحمر ،
زين نفسه بحلى براقة وذهبية ٠
رودرا ، هذا الحاكم العظيم للعالم ،
لا تدع الاقليم المقدس يختفى ٠

*

أنت عن جدارة أعظم حامل للقوس والنشاب ،
ولك العقد الحبيب ذو كل الألوان ٠
أنت عن جدارة أعظم سائس لكل هذا الخوف
لا شىء أقوى منك يا رودرا ٠

*

تجد ذائع الصيت ، الشاب ، الجالس فى العربة ،
مثل وحش مخيف منقض على فريسته ، القوى ،
كن رقيقا مع المترنم حين يتغنى بك يا رودرا
على غيرنا لا علينا فلتقع قذائفك

كمثل ابن ينحنى باحترام انحناءة كبيرة ،
حينما يقترب منه سيده محييه تحية رقيقة
كذلك أنا أسبح السيد الحق ، الذى يهب بسخاء
أنت تمنحنا الأدوية حينما نتغنى بك

*

أدويتك ، يا مروتس ، التى تطهر ،
والتى هى أعظم برء وذات القوة والفائدة ،
تلك التى اختيرت لأبينا مانو
هى التى أريدها ، هى بلسم رودرا والشفاء

*

أن تتجنبنا قذيفة رودرا وتتجاوزنا ،
أرجو أن تستغنى عنا ارادة المفترس الشريرة البعيدة المدى ،
ارخ حبل قوسك من أجل سادتنا الأحرار ،
أيها الجواد ، كن شفيقا بأبنائنا •

*

وعلى ذلك فأيها العجل ـ الداكن الحمرة والواسع الشهرة ،
بما أنك ، أيها الرب ، لست غاضبا ولست قاتلا ،
فالتفت الى توسلاتنا هذه •
فسنرفع مع أبنائنا الأقوياء الصوت عاليا فى العبادة

*

الآن وقد قدمنا صور الآلهة التى يتضمنها الرج فيدا ، وهى كما يتضح وفيما يبدو متدرجة من الاله البسيط ذى المعالم الساذجة الى آلهة قوية كل منها مختص بناحية من نواحى الخير أو الشر ، يتملقها الانسان ابتغاء خيرها أو تجنبا لشرها، نريد أن نختم هذا العرض بقصيدة مشهورة مأخوذة من الكتاب العاشر ، ونحن نختم بهذه الترتيلة لسببين ، أحدهما أننا نرى فيها مسحة صوفية وفلسفية ، وهى فيما يرى الباحثون سليلة عصر انتقال فى التفكير الدينى بعيد كل البعد عن عصر التراتيل الساذجة، والثانى أنها تتشكك فى آلهة الرج فيدا التى تحدثنا عنها متسائلة : أيها الخالق الحقيقى ؟ وتنتهى بنتيجة أن هذه الآلهة ربما لم تكن سـابقة فى الوجود من العالم، وأنها نتاج كائن دنيوى علوى خفى أوجد نفسه بنفسه،

أعنى أنه على الرغم من أن السواد الأعظم كان يستسلم لهذه المعتقدات الا أن الفكر الهندى لم يخل من تشكك فيهـا حين ارتقى وتجـاوز المرحلة الساذجة ·

أنشودة الخلق (وهى رباعية)

حينما لم يكن عدم ولا وجود
ولم يكن عالم الهواء ولا سماء وراءه ·
أى شىء كان محجوبا وأين ؟ ومن آوى ؟
أكان هناك ماء ـ ماء لا قرار له ؟

*

اذن لم يكن هناك موت ، ولا هناك خلود
لا دليل هناك على قاسم للنهار والليل ·
شىء واحد غير متنفس ، متنفس بطبيعته هو ،
خلاه لا شىء من أى نوع كان ·

*

كان ظلام : فى أول أمره كان مختفيا فى الظلام ،
هذا الكل كان عماء غير مميز
كل ماوجد آنئذ هو الفضاء واللاشكل :
وبالقوة العظمى الباعثة للحرارة وجدت الوحدة (unit)

*

بعد ذلك نشأت الرغبة فى البداية ،
الرغبة ـ البذرة الأولى وجرثومة الروح ·
اكتشف الحكماء الذين يبحثون بفطنة قلوبهم
قرابة الوجود بالعدم ·

*

كان الخط الفاصل بينهما ممتدا باعتراض ،
فماذا كان فوقه وماذا كان تحته ؟

كان المنتجون وكانت القوى القوية ،
هنا حرية فعل ، وهناك فى الأعالى نشاط ٠

*

من يعرف يقينا ومن يستطيع أن يعلنها هنا ،
من أين ولد ، ومن أين يجيء هذا الخلق ؟
فالآلهة متأخرة عن نتاج العالم هذا ،
فمن يعرف اذن ، من أين جاء أولا الى الوجود ؟

*

هو ، الأصل الأول لهذا الخلق ،
سواء كونها جميعا أو لم يكونها ،
الذى عينه تضبط هذا العالم فى الملكوت الأعلى ،
هو يقينا يعرفه ، أو ربما لا يعرفه ٠

وبعد فاذا تركنا تصور الآلهة قديما ـ كما تنبيء عنه هذه النصوص التى سقناها ـ والتقينا بالعقائد الهندوستانيه المشهورة ، نجد ثالوث الآلهة العظيم ، القائم على : براهما وفشنو ، وسيفا ، أما براهما فقد سبق أن ذكرنا أمره أنه كبير الآلهة ، وأنه قوة خالقة فى الطبيعة ، أما فشـنو فمعروف بأنه اله الحب ، الذى كثيرا ما ينزل الى الأرض ، ليتفقد شئون الناس ، ينزل فى صورة انسان يعين البشر ليتخلصوا مما يشقيهم ، ولهذا الاله فشنو زوجتان ، تتصفان مثله بالخيرية ، تسميان لاكشمى وسرى ، وهما تمنحان الحظ السعيد والبركة للمؤمنين ، وتذهب العقيدة الى أن فشنو يتجسد أحيـانا فى صورة شخصية يسمونها كرشنا ، ولكرشنا تلميذ حبيب الى نفســه وحبيب الى كثرة الناس ، هو أرجونا ، ويتميز المؤمن بهذه العقيدة بأنه يرسم على جبهته ثلاثة خطوط أفقية برماد مبلل بروث البقر ، أما شيفا فهو اله القسوة والتدمير، ومهمته تبدو أبان ميادين القتال وفى المعارك وفى المنازعات الفتاكة ، حيث تزهق الأرواح وتتمزق الأجساد ، ولهذا الاله زوجة ، من خصائصها أنها تمنح الدفقة الجارفة نحو التناسل حتى لا يفنى الانسان ومن صفاتها أنها وهى فى حالة الرضى تمنح الحب والتسامح ، وفى حالة الغضب تصب نقمتها على المجرمين والمذنبين ٠

وبعد الآلهة يعتقد الهندوكيون القـــداسة فى أنـواع من الحيوان والزواحف كالقردة والأفاعى والبقرة وغيرها ، والبقرة (١) تتمتع من بينها جميعا بقداسة تعلو على أى قداسة تمنح فى هذا الميدان ، ولها تماثيل فى المعابد والمنازل والميادين ، ولها من الحرية المطلقة ما يجعلها تنتقل كيف تشاء ، ولايجوز للهندوكى ـ مهما كانت الظروف والاعتبارات ـ أن يمسها بأذى أو بذبح ، واذا ماتت دفنها بطقوس دينية ، دون أن ينتفع بلحمها أو جلدها أو أى شىء يتصل بجسمها •

اليوبانشادات

سبق أن ذكرنا أن الفيدات الأربع أثارت شروحا وحواشي قام بها براهمة ، وأن هذه الحواشي والشروح صارت بعد زمن جزءا مكملا لهـذه الفيدات الأربع ، وأنها الى جانب ذلك شروح لشعائر دينية تضمنتها هذه الفيدات ، وقلنا ان هذه الشروح البرهمية تحولت الى يوبانيشـادات أو رسائل فلسفية •

ويقـــول المفسرون ان معنى كلمـــة يوبانيشاد (Upanishad) هو « الجلوس بقرب أو الجلوس مقابلا » وهذا يعنى عدم الاتصال المباشر بها ومن ثم يؤخذ من هذا التعبير الاشارة الى أنها على درجة ما من السرية • ولدينا من هذا اليوبانيشادات مائتان وخمسون يوبانيشادة أو أكثر ، منها خمسون ذات أهمية خاصة ، وتتميز على غيرها بأنها قديمة ، كما أن منها ما يرجع الى عصر متأخر قد يكون بعد ميلاد المسيح عليه السلام • من هذه الخمسين المشهود لها بالقدم والتى لا شك فى وجودها قبل المسيح عليه السلام ست بلغة منثورة وخمس منظومة بأوزان عريقة فى القدم ،

---

(١) ظاهرة التقديس لانواع بعينها من الحيوان أو الزواحف أو بعض مظـاهر الطبيعة شائعة فى العقائد القديمة ، ويمكن أن نلحظ فيها المشاركة بين الامم ، وان كان تصور القداسة مختلف من أمة لأمة أخرى ، فشعب يرى التقديس لنوع معين فى الانثى، وشعب آخر يرى هذه القداسة فى الذكر من هـذا النوع ، فالهندوكيون مثـلا يقدسون البقرة ، والمصريون القدماء كانوا يقدسون العجل ، بل ان المشاركة تبدو فى تقديس نوع واحد ، تجعله أمة مذكرا وأمة أخرى تجعله هو نفسه مؤنثا ، كمـا نلحظ ذلك فى المقابلة بين عقائد العرب الجاهليين وعقائد الذين عاشوا على أرض العراق ، وفى الايمان بقداسة الزهرة متصورة فى ألوان مختلفة عند الشعوب القديمة مقنع لهذا الرأى (راجع فى هذا كتاب محاضرات فى الديانات السامية ـ لمؤلفه و • روبرتسن سمث

وثلاث بلغة النثر الكلاسيكية المتأخرة ، وكل هذه اليوبانيشادات الأربع عشرة تتميز بالاضطراب والتكرار .

وتتميز اليوبانيشادات بأنها جميعا - أو الأغلبية العظمى منها على الأقل - كانت فى الواقع فى منقولات مدرسية (ashramas) غالبا ما تلقن للطلاب شفويا ، وتحتفظ كل مدرسة بمجموعة منها ، فى صورة مذكرات تعين على حفظها ، أو فى صورة تراتيل للطقوس الدينية أو فى صورة حوار ، على أن تكون حاشية للأثروافيدا (Atharva-Veda) ومن الملاحظ ان لم يكن هناك مانع أو اعتراض عام اذا ما ألفت يوبانيشادة أضيفت الى أخواتها ويستنتج ذلك من مسلك رابندرانات تاجور الذى ألف واحدة سنة ١٨٤٨ م وسماها اليوبانيشادة البرهمية ، كما ألف غيره من رجال الدين يوبانيشادات فيما بين سنة ٤٠٠ م وسنة ١٢٠٠ م ليربطوا فرقهم بالفيدات ، نقول اعتراض عام لأن هذا الاتجاه العام كان يعارضه براهمة متعصبون ، كانوا يرون هذه اليوبانيشادات المضافة غير شرعية ، وأن اليوبانيشادات الشرعية هى وحدها الملحقة بالفيدات قديما ، ولكن هذا التعصب لم يمنع من الحاق اثنتين بالرج فيدا ، واثنتين بالسموافيدا ، وسبعا بياجورفيدا ، والبقية بالاثروافيدا (Atharva-Veda) ، وهذا ما دعا الى القول بأنه من الممكن الحاق يوبانيشادات جديدة الى القديمة ، ويفسر لنا وجود هذه الحواشى العجيبة التى تتصدى لعلاج الحب بطريقة تبدو غير فلسفية وغير متجانسة مع نصوص الفيدات .

ونحن حين نتصفح هذه اليوبانيشادات التى ترجمها الباحثون نجد أن الواحدة منهما لا تستقل وحدها بفكرة بعينها ، بل نلاحظ أن الفكرة الواحدة تتكرر فى أكثر من واحدة ، فأنت تجد مثلا القول الدال على أن النفس ضرورة حيوية للكائن البشرى يتكرر فى خمس يوبانشادات ، هذه الفكرة يرويها كاهن عن ملك فى التشاندجيا (Chandogya) والبريهدرنيكا (Brihadaranyaka) والكوشيتكى (Kaushitaki) وان كانت الأوليان دالتين فى ذلك ، وتناقش اليوبانيشادة كاثا (Katha) نظرية حالة الروح بعد الموت ، وهذه الفكرة عينها موجودة أيضا فى البريهدرنيكا والكوشيتكى .

وجدير بالذكر أن من يحاول أن يستخلص مذهبا فلسفيا تام المعالم من هذه اليوبانيشادات لن يجد بغيته ، ذلك لأنه سيلاحظ أن الآراء الفلسفية التى تتضمنها اليوبانيشادات غالبا ما تكون آراء

منقولة عن المدارس المختلفة ، وان آراء كل مدرسة تنسب الى حكيم ربما ذكر اسمه فى اليوبانيشادة ، ومن ثم فهذه الآراء الفلسفية لا تكون وحدة أو مذاهب فضلا عن أن توافق الآراء أدى الى التكرار ، ولكن هذا لن يدعونا الى اهمال اليوبانيشادات ، ذلك لأن الدراسة العميقة تؤدى بوضوح الى انها بدايات ثورة فكرية روحية فى المواضيع التى عالجتها ، وان كانت هذه اليوبانيشادات لم تصل الى رأى نهائى فيما تعرضت له الا فى أمرين أحدهما تمييز براهما ـ الواحد المطلق ـ عن أتمن Atman ، الواحد ، والآخر نظرية أن كل شيء هو برهمن (Brahman) والقول بهذه النظرية يحل كثيرا من ألغاز الحياة ، وهذه النظرية هى التى تعرف بوحدة الوجود (١) . ولئن اتفق الرأى على هذا فقد اختلف الباحثون فى تطور الآراء اليوبانيشادية فى نظرية الخلق ، اذ ذهب البعض أنها قائمة عليها ، وبذلك فهى قديمة ، وذهب آخرون الى أنها ليست على هذا الوجه لأنها لا تتفق مع التيار الفكرى فى اليوبانيشادات ، وعلى ذلك فان ظهور نظريات الخلق متأخر ، وأنها فى اليوبانيشادة سفتسفترا (Svetasvatara) التى يرجع تأليفها الى ما قبل ظهور المسيح عليه السلام ، نجد فيها المقطوعة المشهورة التى تنادى (أنت هو Thou art It

ومن الواضح أن المفكرين والشراح والمتأخرين هم الذين طوروا آراء المدارس القديمة ، وألفوا منها مذهبا تاما ومتناسقا . ويبدو هذا واضحا فى فلسفة التعدد Samkhya Philosophy ، وفلسفة الوحدة (Vedanta Philosophy)، وتطوير الوحدة فى الرمنوجا (Ramanuja) ونظرية مذوا(Madhva) فان كان الأمر على هذا الوجه فى تكوين المذاهب

---

(١) قال الاستاذ سليمان مظهر فى كتابه : قصة العقائد بين السماء والأرض ص ٢٦ ، ٢٧ ط . القاهرة ١٩٦٢ عن براهما وأتمن ، قال :

ان جوهر النفس ليس هو الجسم ولا العقل ولا الذات الفردية ولكنه الوجود العميق الصامت الذى لا صورة له والكامن فى دخيلة انفسنا .. واسمه أتمان .

أما جوهر العالم الواحد الشامل الذىلا هو بالذكر ولا بالانثى ، اى روح العالم غير المشخص فى صفاته والمحتوى لكل شيء والكامن فى كل شيء والذى لاتدركه الحواس.. فاسمه براهما» .

ومن هذا يتبين أنهما متميزان ، ومع هذا يذهب الاستاذ سليمان مظهر الىالقول «ان هما الا اله واحد بعينه لان الروح اللافردية هى القوة الكائنة فى الانسان ـ هى بعينها روح العالم » والملاحظ أن عدم التمييز بين براهما وأتمن يؤدى الى هذا القول . مع أن النظرة الفاحصة والتميز الذى يبدو لى واضحا بين الالهين يجعلهما الهين هما براهما الواحد المطلق وأتمن الذات العليا .

الفلسفية من اليوبانيشادات فانها تتميز بآية واضحة لا يمكن اغفالها ،هى تطور التعاليم فيها بالاتجاه نحو التمييز الخلقى بين الخير والشر ٠

عالم الفكر المحض :

ومن بين الآراء الحرة التى قالت بها المدارس اليوبانيشادية القديمة ترديد القول بأن عالم الفكر المحض ، الذى اليه ترجع المعرفة العليا (Vidya) ، عار عن كل الاختلافات ، وهذا يبدو بوضوح بوجه خاص فى اليوبانيشادتين العظيميتين بريهدرنيكا وتشاندجيا فى قولهما :

فى البريهدرنيكا

فقرة ٤ ـ ٤ ـ ٢٢ : عليه (من يعرف هذا) ألا يتغلب هذان عليه وهما : الخاطر « اذن اقترفت ذنبا » وكذلك الخاطر « اذن فعلت حقا » فهو يقينا يتغلب عليهما ولا يؤثر فيه ما يفعله وما لم يفعله ٠

فقرة ـ ١٤ ـ ٨ : يقينا لو ألقوا كثيرا (من الحطب) فى النار لأحرقته جميعا ، وعلى ذلك ، فمن يعرف هذا ـ ولو أنى أقترف كثيرا جدا من السيئات ـ فانه يفنيها جميعا ، ويصبح نظيفا ونقيا غير مسن وخالد٠

فقرة ٤ ـ ٣ ـ ٢١ و ٢٢ : مثل رجل حينما يكون بين أحضان زوجة معشوقة لا يفقه شيئا فى الداخل أو فى الخارج ، مثل هذا الشخص حينما يكون بين أحضان النفس الذكية (أعنى أتمن الواحد العظيم) لا يعرف شيئا فى الداخل أو فى الخارج ٠ حقا هذه صورته (الحقيقية) ٠٠ هناك يصبح الأب غير أب ، والأم غير أم ، والعوالم ليست بعوالم ، والآلهة غير آلهة ، والفيدات ليست فيدات ، واللص غير لص ٠٠ لايتبعه الخير ، ولا يتبعه الشر ، لأنه آنئذ قد مضى وراء أحزان القلب ٠

وتشاندجيا

تصرح بوضوح للعارف المتنور أن الخير والشر فكرتان آتيتان من معرفة جزئية لا يمكن أن يتحصلا فى ضوء المعرفة الكاملة ، لأن تباينهما لفظى ليس غير ، تقول :

فقرة ٧ ــ ٢ ــ ١ ــ : حقا لو لم يكن كلام ما عــرف صـــواب ولا خطأ ، ولا حق ولا زائف ، ولا حسن ولا قبيح ، ولا محبوب ولا كريه ، فالكلام بحق يجعل كل هذا معروفا ٠

فقرة ٥ ــ ٢٤ ــ ٣ : كمثل قش يلقى فى النار فيحترق عن آخره كذلك تحترق جميع سيئاته الذى يقدم القربان لأجنى هترا (Agni-hotra) ، وهو عارف بذلك (أى على انه تعبير روحى) ٠

فقرة ٨ ــ ٤ ــ ١ ، ٢ : فوق ذلك الجسر (يعنى فى عالم يراهما) لا يعبر نهار ولا ليل ، ولا كبر سن ولا موت ، ولا حزن ، ولا فعل خير ولا فعل شر ، فكل السيئات تعود من حيث أتت ، لأن عالم براهما خال من الشر ٠

هذا المعنى الذى تتفق عليه اليوبانيشاتادتان لا ينسجم وما تذهب اليه اليوبانيشادة كوشتكى فى قولها :

فقرة ٣ ــ ١ : الذى يعرفنى (اندرا هو المتحـدث نيابة عن أتمن العظيم) بعدم فعله أى شىء كان هو العالم المصاب بغير السرقة وبغير قتل جنين وبغير قتل أمه وبغير قتل أبيه ، فاذا ارتكب سيئة فان اللون الأسود لا يفارق وجهه (يعنى لا يصيبه الخزى من جريرته) ٠

فالاختـلاف بين هـذه اليوبانيشـاده والأولين قائم على أن الأولين تجيز المعرفة العليا مهما أتى الشخص من ذنوب ، أما الاخيرة فتقصر هذه المعرفة على براءة الشخص من الذنوب ، ولكنها جميعا تتفق فى أنه اذا تمت المعرفة فلا تثريب على الشخص مهما اقترف من سيئات (١) ٠

وأساس هذه النظرية التى تتضمنها هذه اليونيشادات أن الفضيلة توجد فى المعرفة ، فمن أراد الحياة الطيبة بحث عنها فى هذه المعرفة ، ثم تختلف النظرية بعد ذلك فمن اليوبانيشادات ــ كمـا ذكرنا ــ ما تذهب الى أن المعرفة تطهر الشخص من كل ذنوبه فى الماضى وتخول للعارف أن يفعل ما يحلو له ٠ وذهب بعض الباحثين الى القول بأنه يجب ألا تؤخذ العبارات على ظاهرها ، ذلك لان الروح المسـتنيرة التى أخذت حظهـا من المعرفة العليا (Vidya) تصبح فى حالة لا يفعل فيها الذنب أو الاثم ، ولكن

---

(١) هــذه النظرية نقلها الغلاة الذين انتسـبوا الى الشيعة ظلما وعـدوانا الى عقائدهم ، وصوروها فى قولهم ان معرفة الامام تجيز للشخص ان يفعل اى شىء دون ان يأثم ، وتسقط عنه الالتزام بالفرائض التى يتحتم على كل مسلم أداؤها .

الخطر فى مثل هذه النظريات يكمن فى النظر الى قواعد الاخلاق ، التى اتفقت عليها الديانات والتقاليد والعقل الاجتماعى ، من أنها تنزل الى مستوى تصبح فيه لا معنى لها ، ويصبح الشخص الذى يصل الى الدرجة المقول عنها انسـانا لا ينظر الى الفعـل الذى يقوم به أنه خلقى أو غير خلقى (٢) ٠

على أن تطور العقلية الهندوستانية دفع بعض المفكرين أن يروا فى هذا المنطق خطرا عظيم البلاء فعارضوه ، كمـا نجد ذلك واضـحا فى اليوبانيشاده الكاثية (Katha) على سبيل المثال ، فقد طعنت فى هذه النظرية ، وقالت بأن الفضيلة والنظر اليهـا فى كل فعل ضرورة لابدمنها ، لأن الفضيلة والفيديا ضرورتان اذا أريد الوصول الى الكمال ، وفى ذلك تقول الكاثا :

فقرة ٢ ـ ٢٤ : الذى لا يتوقف عن خلقه السيء لا يحظى ببراهما بالفيديا ٠

فقرة ٣ ـ ٧ ، ٨ : الذى ليس لديه فهـم ، الذى هو غافل وأبدا دنس ، لا يصل الى الهدف المولود منه لا غير ٠

نهاية الروح الكاملة :

تصور عادة نهاية الروح الكاملة التى فيها تتحد المادة والروح بحالة شخص فى نوم عميق بلا أحلام (Susupta والهندوستانية لا تعنى بذلك عدم وجود الروح او فنائها ، ذلك لأن الروح عندهم خالدة ، وانما يعنون بذلك (الدخول فى النفس العظيمة going into the Great self) وعلى ذلك فهى فيها بلا مادة ، تلك المـادة التى كانت مجـال نشاطها ، وتصبح لأغراض عملية فى حالة لا وعى (turiya) وتذهب الهندوستانية والبوذية تتفق معها ـ الى أن هذه الحالة للروح البشرية هى حالة السعادة المذهلة ، وهى النرفانا عند الهندوستانية والنبانا (Nibbana)عند البوذية، وكلاهما يعنيان أنها حالة انطفاء لهيب الرغبة ، ومن ثم فان الموت لا دخل له

---

(٢) وهـذه جناية على المجتمع نسـتطيع أن نرى أثرها فى الكوفة غيرها ، فى أعمال الغلاة ومن سـعوا سـعيهم حين أرتكبوا جرائمهم الخلقية وسفكوا الدماء وعملوا على انساد الشباب فى عصر المنصور والمهدى (راجع كتاب المؤلف حركات الشيعة المتطرفين ط ٠ ١٩٦٧م دار المعرفة) ٠

فى هذه الحالة ، ولا يتأتى الا فى حالة من له طبع خاص • والذى يتوقع السوسبتا (Susupta) فى هذه الحياة الدنيا يقتضيه ذلك رياضة نفسه حتى يصل الى حالة النوم ، وهى المرحلة النهائية فى اليوجا، وذلك عند ماينال (Samadhi) التى معناها الحرفى هو الجمع معا (أو الفناء) ، وهذه الحالة تكون اما وقتية واما دائمة ، ومن الواضح أن هذه العبارات تصور حالة الروح الكاملة بعد خلاصها من الجسد • واليك النصوص التى تبين هذه النظرية •

فى البريهدرينكا

فقرة ٤ ـ ٣ ـ ١٧ : فى حالة اليقظة هذه يسرع مرة ثانية ـ بعد طوافه ورؤيته الحسن والقبيح ـ الى العودة لحالة النوم (Susupta) وفقا للمدخل وموضع الأصل •

وتبين البريهدرينكا السوسبتا فى الفقرة من ٢٣ الى ٣٢ :

حقا انه حينما لا يرى هناك بعينيه فهو على التحقيق راء ، وان لم يكن يرى ما هو (عادة) يرى ، لأنه لم يكن هناك توقف لرؤية (راء) بسبب عدم فقدانه (أنه راء) ما يرى لا يكون شيئا آخر غير نفسه ومنفصلا •• حقا انه حينما لا يفكر هناك فهو على التحقيق مفكر ، وان كان لا يفكر بما تعوده من تفكير ، لأنه لم يكن هناك توقف لتفكير (مفكر) ، مايفكر فيه لا يكون فى شىء آخر غير فى نفسه ومنفصلا •

وهذا التعبير نفسه يتكرر بالنسبة الى الشم والذوق والكلام والسمع واللمس والتعرف على نحو ما قيل فى الرؤية والتفكير ، وينهى الحكيم هذا الجزء من حديثه للملك قائلا :

حقا حيثما يبدو أنه شىء آخر فان المرء يرى ويشم ويذوق ويتكلم ويسمع ويفكر ويلمس ويعرف هذا الشىء الآخر ، ولكن ـ أيها الملك ـ اذا توحدت لراء رؤية بحر من غير تعدد فانه يصبح هو الذى عالمه براهما ، وبذلك يكون يجنفلكيا (Yajñavalkya) قد وجهه ، وهذا أعلى طريق للانسان ، وهذا أقصى ما يبتغى ، وهذا أسمى عالمه ، وهذا أعظم سعادة له ، أما المخلوقات الأخرى فلا تحظى فى حياتها الا بجانب من هذه السعادة •

ويبدو أن هذا الحكيم يجنفلكيا مقتنع بأن الانسان لا يستطيع أن يكون دائما فى حالة سوسبتا ، ذلك لأنه يمضى قائلا ان الانســان وقد طاف واستمتع بحالة السوسبتا وبما فيها من سعادة كاملة يقول انه وفقا للمدخل وموضع الأصل يعود المرء سريعا الى حالة اليقظة ٠

تصور براهما

واليوبانيشادة المعـــروفة بكنه (Kena) فى الخانده الأولى تتصدى لهذه النظرية نظرية التقاء الروح ببراهما وتوقعهــا له ، مثيرة اياها على صورة أسئلة ، تجيب عنها ، قالت :

من دفع العقل المدبر يحلق ؟
من حتم على النفس الأول أن يخرج ؟
من دفع هذا الكلام فينطق الناس ؟
والعين والأذن ، أتساءل ، ما الذى حتم عليهما الرب ؟

*

الذى هو سمع للأذن وفكر للعقل ،
وصوت للكلام وكذلك التنفس للنفس
والنظر للعين ! ماضى هذه عند الحكماء وهو منفلت ،
عند فراق هذا العالم ، يصبح خالدا ٠

*

هناك العين لا تعمل ،
والكلام لا يخرج ، وكذلك العقل ٠
نحن لا نعرف ولا نفقه ،
كيف الفرد يتلقنه ٠

*

هو بحق شىء آخر غير المعروف ،
زد على ذلك أم هو أكثر جهالة من المجهول ،
لذلك استمعنا للاقدمين ،
الذين فسروه لنا ٠

هو غير المعبر بالكلام ،
هو الذى به الكلام يعبر ،
ألا فاعرفه أنه براهما ،
ما هذا كهذا الذى يعبد الناس ٠

*

الذى يراه الفرد لا بالفكر (أو الذى يفكر لا بعقل)
هو ما به يقولون الفكر يفكر ،
الا فاعرفه أنه براهما
ما هذا كهذا الذى يعبد الناس ٠

*

الذى يراه المرء لا بالنظر ، (أو : الذى يرى لا بعين)
الذى به يرى المرء المرئيات
ألا فاعرفه أنه براهما
ما هذا كهذا الذى يعبد الناس ٠

*

الذى يسمعه المرء لا بالسمع ، (أو : الذى يسمع لا بأذن)
الذى به السمع هنا يسمع ،
ألا فاعرفه أنه براهما
ما هذا كهذا الذى يعبد الناس ٠

*

الذى يتنفسه المرء لا بالنفس ، (أو : الذى يتنفس لا ينفس)
الذى به النفس يخرج
ألا فاعرفه أنه براهما
ما هذا كهذا الذى يعبد الناس ٠

نظرية الخلود بعد الموت
(نظرية اليوجا)

هذه النظرية ذات صلة وثيقة ببراهما ، وتصف لنا اليوبانيشادة كثا (Katha) فى جزئها الخاص بالتعليمات عن الموت المسلك الى الخلود عن طريق اليوجا ((Yoga)) ، وهى تعليمات يصدرها اله باطن الأرض ، قالت فى هذا الجزء (من ١٠ الى ١٨) :

حينما تقف الخمس
(حواس) المعارف مع (توقف العقل) ،
والذهن لا يتحرك ،
ذلك ـ على ما يقولون « أسمى السبل » ٠

*

هذا ما يرون اليوجا
حاجزة الحواس بقوة ٠
عندئذ يصبح المرء غير حائز
اليوجا بحق هى الأصل والمنتهى ٠

*

لا بالكلام ولا بالعقل
ولا بالنظر يمكن فهمه ٠
كيف يمكن فهمه
الا بقول المرء « كائن » ؟

*

حقا يمكن فهمه بفكرة هو « كائن »
و (بالتسليم) بالطبيعة الحقيقية لكلتيهما (الادراكية واللاادراكية)
حينما كان يدرك بفكرة « كائن »
طبيعته الحقيقية تظهر نفسها ٠

*

متى تحرر كل
الرغبات المستقرة فى قلب المرء ،
ثم يصير الفانى خالدا !!
وعندئذ يصل الى براهما
متى تنقطع جميع
عقد القلب هنا على الأرض ،
ثم يصير الفانى خالدا !!
الى هذا الحد يكون التوجيه ٠

*

للقلب مائة مسلك ومسلك ،
أحد هذه يمضى صاعدا الى تاج الرأس ،

صاعدا اليه يمضى المرء الى الخلود
والأخرى تتفرق فى مختلف السبل .

*

النفس الباطنية تكون بمقدار ابهام أمرىء ،
مستقرة أبدا فى قلب المخلوقات ،
يجب أن يخرجها المرء من ذات جسمه ،
بتصميم ، مثلما يخرج سهم قوس من عود قصب ،
يجب أن نعرفه بالطاهر الخالد ،
نعم يجب أن نعرفه بالطاهر الخالد .

*

ثم بتسلم نسيكتس (Naciketas) هذا العلم
مبلغا بالموت ، وقانون يوجا الشامل ،
يحظى ببراهما ويتحرر من العاطفة ويتحرر من الموت .
وكذلك أى شخص آخر يعرف هذا بالنسبة للنفس (أتمن) .

مظهر الحياة

وكما احتفلت الهندوستانية وأولت عناية كبرى لما بعد الموت ، فقد احتفلت بمظهر الحياة منذ أقدم عصورها ، ذلك المظهر الذى يبدو فى الشمس كقوة عاملة فى نشاط الحياة على الأرض ، وهذه العقيدة هى فيما يرى الباحثون أساس من أسس الفلسفة الهندوستانية الدينية ، والباحثون يستدلون على ذلك بهذه النصوص المشهورة من الكتاب الأول من الرج فيدا .

يسمونه اندرا ومترا وفارونا وأجنى
والمقدس أيضا ، جروتمن المجنح الجميل
الحق هو واحد وان أطلق عليه الحكماء أسماء مختلفة
يسمونه آجنى وياما ومتريسفن (Matarisvan)

احتفلت العقيدة الهندوستانية بعبادة هذا الكوكب فى مختلف عصورها ، وفى اليوبانيشادة برسنا (Prasna) نشيد مشهور يقول (من ٥ الى ١٣) :

كالنار (أجنى) يبعث الدفء ، هو الشمس ،
هو المطر السخى ، هو الريح ،
هو الأرض ، المادة ، الله
هو الوجود وعدم الوجود وما هو خالد

❋

كالبرامق فى اطار عجلة
كل شيء مؤسس على الحياة :
قصائد الرج وقواعد اليجس (Yajus) وتراتيل السامن(Saman)
والقربان والنبالة والكهانة

❋

أنت تتحرك فى الفرج الها للخلق
أنت بنفسك المولود ثانية
لك أيتها الحياة هنا تدين المخلوقات
أنت التى تقطنين مع الكائنات الحية

❋

انت أول حامل (للقرابين) الى الآلهة
أنت أول هدية الى الآباء !
انت الممارسة الحقة للحكماء ،
ابناء أثرفن (Atharvan) وأنجرس (Angiras)
أنت اندرا ، أيتها الحياة ، ببهائك !
رودرا أنت كحام !
أنت تتحرك فى الجو
كشمس فأنت سيد الأضواء !

❋

حينما تمطر عليهم
حينئذ مخلوقاتك ، أيتها الحياة
يكونون سعداء ، معتقدين :
أن سيوجد الغذاء للرغبة الشاملة
أنت فراتيا (Vrâtya) ، أيتها الحياة ، الحكيم الأوحد
آكل ، والسيد الحق للجميع !

نحن مانحو طعامك !
أنت أبو الريح .

*

صورتك التى تتحيز فى الكلام
التى تتحيز فى السمع والتى تتحيز فى النظر
والتى تتسع فى الذهن ،
كن رحيما ! ولا تبتعد !

*

هذا العالم كله هو فى قبضة الحياة
وان كان قائما فى السماء الثالثة !
ابق (علينا) كما تبقى أم على ولدها !
امنحنا السعادة والحكمة !

ننتقل بعد ذلك الى بعض اليوبانيشادات التى تصور وتكمل العقيدة أو تبين معالمها .

اليوبانيشادة مندكا (Mundaka)

فى هذه اليوبانيشادة (الاجزاء من ٧ الى ١١) تدعو الى تحريم تقديم القربان ، وتحدثنا عن مصير المغضوب عليهم انهم يعودون الى هذه الدنيا والى احط منها ، وتصف لنا ايضا الصالحين ، قالت :

القوارب غير الصالحة (كهذه) الطقوس القربانية الثمانية عشر التى فيها يتمثل أوضع عمل .

الحمقى الذين يوافقون على ذلك على أنه حسن .
يعتريهم مرة أخرى كبر السن والموت .

*

الذين يعيشون فى أعماق (وسط) الجهل
معتقدين فى أنفسهم العلم والحكمة
يهيمون فى الضلال فى ابتلاء عظيم ،
مثل العميان يقودهم أمرؤ هو نفسه أعمى

يعيشون فى جهالة مطبقة
يوهمون أنفسهم (بقول) صبيانى « لقد حققنا هدفنا »
بما أن فاعلى الأفعال لا يفقهون بسبب العاطفة
لذلك يغوصون فى التعاسة حينما تفنى عوالمهم .

*

معتقدين أن القربان واستحقاقه أهم شيء
أو يعلمون أن عدمه خير ـ (انهم) ضالون
حصولهم على اللذة فى أعلى السماء كان ينال بالأعمال الطيبة
يعودون ثانية الى هذه الدنيا أو الى أدنى منها

*

الذين يعيشون فى شظف وايمان فى الغابة
العارفون المسالمون الذين يعيشون على الصدقات
يرحلون بلا عاطفة فى باب الشمس

الى حيث يكون الشخص الخالد ، والى الروح الذى لا يموت أيضا (أتمن) .

وأنت تلاحظ الى جانب الفكرة الدينية بالدعوة الى عدم تقديم القربان أن اليوبانيشادة تتضمن أيضا نظرية انتقال الأرواح ، التى هى شائعة فى الأدب الهندى الدينى ، وهى عقيدة نجدها أيضا فى العقائد البدائية . وهذه النظرية الهندية تذهب الى أن روح الميت تعود الى ذاته فى جسد آخر وحياة جديدة أرفع ان كانت فعال صاحبها الميت خيرا وأحط ان كانت فعاله شرا .

وجدير بالذكر أن هذا العرض للنظر الدينى الهندوستانى لم يقف عند هذا الحد الذى رسمته هذه النصوص ، وانما أخذ يتطور ويتطور مع الزمن متأثرا بخاصة بالنظرة التصوفية التى سبق أن أشرنا اليها ، ويعنينا هنا تصور الاله فقد لحقه هذا التطور وبدا فى الاوبانيشادة سفتسفترا على سبيل المثال (Svetasvatara) ويكفى أن نختار منها الأجزاء من ٦ الى ٢٠ للتدليل قالت :

أكثر علوا ومخالف لشجر الدنيا والزمن والأشكال
هو الذى منه يأخذ هذا الامتداد
جالب الصواب ماحى السوء رب السعادة

فاعرفه فى ذات نفس المرء لان الخالد ملاذ الجميع
الذى هو رب الارباب القوى المتعالى :
قدس الأقداس العظيم ،
حاكم الحكام الكبير المتعالى ،
دعنا نعرفه أنه الرب المعبود رب العالم ٠

لا فعل له ولا عضو موجود
لم ير له نظير أو أرفع منزلة
سلطانه العالى ظاهر بحق بصور مختلفة
وبالفطرة يعمل ذكاؤه وقوته ٠

لا حاكم فى عالمه
ولا سيد ، ولا علامة عليه
هو العلة ، رب أرباب حواس الأعضاء
لا أب له ولا رب ٠

الله الواحد الذى يستر نفسه
كالعنكبوت بالخيوط
وجاء من المادة الأولى وفقا لطبيعته هو
نرجو أن يمنحنا الدخول فى براهما !
الله الواحد الكامل فى كل الاشياء
كلى الشمول ، النفس الباطنة لكل الأشياء ،
مراقب الأفعال ، قائم فى كل الاشياء
الشاهد ، الحكيم الأوحد ، العارى من الصفات ٠
المحرك الوحيد للساكنات الكثيرة ،
الذى يجعل الحبة الواحدة متكاثرة
الحكماء من يرونه قائما فى ذات المرء ٠
أولئك — لا غيرهم — ذوو سعادة أبدية ٠

الدائم بين غير الدائمين ، الفطن بين غير الفطنين ،
الواحد بين المتعددين ، الذى يهب الرغبات ،

هو العلة ، الذى يوصل اليه بالتميز والتجريد
وبمعرفة الرب يتحرر المرء من كل الأغلال ٠

هناك لا تضىء الشمس ولا القمر ولا النجوم
هذه المنيرات لا تضىء ، فضلا عن نار (الأرض) هذه
اذا أضاء فكل شىء يضىء بعده ،
وهذا العالم كله يضاء بنوره ٠

النفس الوحيدة فى وسط هذا العالم ـ
تلك بحق هى النار التى دخلت فى المحيط ٠
بمعرفته لا غير يتخطى المرء الموت
ليس من سبيل آخر للذهاب الى هناك
الذى هو خالق كل شىء ، والمحيط بكل شىء ، مصدر نفسه ،
الفطن ، مؤلف الزمن ، مالك الصفات ، العالم بكل شىء
هو حاكم المادة الأصلية ، وحاكم الروح ، وسيد الصفات
ومسبب الحلول فى الجسد والتحرر والدوام والاستعباد ٠

المشتمل على ذلك خالد موجود ربا ،
فطن ، موجود بكل مكان ، حارس هذا العالم ،
هو الذى يحكم هذا العالم على الدوام
ليست من علة أخرى توجد للحكم ٠

اليه الذى خلق براهما قديما ،
والذى هو بحق الذى أعطاه الفيدات ،
الى هذا الاله ، الذى يضىء بعقله هو ،
التمس الملاذ رغبة منى فى التحرر ٠

اليه ، الذى هو بغير أعضاء وبغير حيوية ، والهادىء
والذى لا يعاتب وغير المدنس
أعلى معبر للخلود
كنار تغذوها الوقود ٠

حينما يطوى الناس فى الفضاء
كما لو كان قطعة من الجلد
حينئذ تكون نهاية الشر
ماعدا معرفة الرب ٠

فى هذه اليوبانيشادة يصل تصور الاله درجة عظيمة من الرقى ، ذلك لأنها تعترف أنه : اله خالق لكل شىء ، محيط بكل شىء ، وعالم بكل شىء ، ولم يخلق ولم يولد ، وموجود بكل مكان ، ولئن كانت اليوبانيشادة تضمنت العقيدة الهندية الشهيرة فى انتقال الأرواح من جسم الى جسم وطريقة خلود الروح فان مركز الاهتمام فى اليوبانيشادة يقوم على فكرة تصور هذا الاله السامى العظيم ، وهى متأثرة بفكرة دينية تقــوم على التجريد والاعتراف بالوحدانية ٠

اليوبانيشادة ايسا (Isa)

ونريد أن نختم هذا العرض لليوبانيشادات بهــذه اليوبانيشادة لما ثار حولها من دراسات بعضها تذهب الى أنها أقدمها جميعا ، وبعضــها حاولت المقارنة بين بعض نصوصها وبعض نصوص العهد الجديد ، ونحن نورد هذه اليوبانيشادة لانها تصور كثيرا من المعتقدات ، ونقدمها مترجمة عن هيوم وبالتمهيد الموضوع لها ٠

القائل : ياقدير فليحفظ براهما كلينا وليمنح كلينا ثمرة المعرفة ٠

ولتتأت لنا كلينا القدرة على تحصيل المعرفة ولنتدارس معا مايكشف الحقيقة ،

ولنحتفظ بشعور غير سىء نحو بعضنا بعضا ،
يا قدير ٠ سلاما ، سلاما ، سلاما
ويتبع ذلك نص اليوبانيشادة :

(وجود الوحدة المنطوية تحت تنوع العالم)

كل هذا يتحتم أن يكون مندرجا تحت الرب
فمهما كان الشىء متحركا فهو موجود فى العالم المتحرك
بنبأ غير هذا تكون سعيدا
فلا تتطلع اطلاقا الى ثروة أحد ٠

(عدم ارتباط النابذ بالأفعال)

ولو أن اتيان الأفعال هنا
فالمرء يتمنى أن يعيش مائة عام
اذن فالتزم – ولا يكون شيء غير هذا –
ان الفعل لا يرتبط بالانسان

(المستقبل محرم على قتلة النفس)

تلك العوالم تسمى شيطانية
بظلمة عمياء تتفشى
اليها يذهب عند الموت
قتلة النفس مهما كانت شخصياتهم

(كلى السمو الكائن العالمى الموهم)

الثابت ، الواحد اسرع من العقل
لا تلحقه قوى الحواس فلا تصل اليه وان مضت أمامه
يتجاوز الغير جاريا ، هكذا يمضى الأمر
فيه يودع ماترسفان (Mâtarasvan) العمل .
هو يتحرك ، وهو لا يتحرك
هو بعيد ، وهو قريب
هو فى كل هذا
وهو خارج كل هذا

وبعد فالذى هو فوق كل الكائنات
يبدو كأنه فى النفس (أتمن) تماما ،
وهو الى النفس كما هو فى كل الكائنات
لا ينأى بعيدا عنه .

فيه كل الكائنات
أصبحت نفس المدرك تماما
ومن ثم فأى وهم وأى هم هناك
لمن يدرك وحدته !

(خصائص الحاكم العالمي)

هو قائم على الضوء ، اللاجسم ، اللاضرر ،
اللاعضل ، النقاء ، اللاطعن بالشر ،
حكيم ،فطن ، محيط موجد لنفسه ،
وزع الأشياء بتناسب في السنين الدائمة ٠

(متسام مع شمول رغم تناقض المعارف)

يدخلون فى الظلمة العمياء ،
الذين يعبدون الجهالة ٠
فى الواقع فى ظلمة أعظم من تلك الذين
يبتهجون بالمعرفة ٠

البعض يؤكدون القول أنه غير المعرفة !
والبعض يقولون أنها غير عدم المعرفة !
هكذا سمعنا من الحكماء
الذين وضحوها لنا ٠

المعرفة وعدم المعرفة
هو الذى يعرف هذين مجتمعين
بعدم المعرفة اجتياز الموت
وبالمعرفة نيل الخلود ٠

(عدم صلاحية تناقض الكائن)

يدخلون فى الظلمة العمياء
الذين يعتقدون فى عدم الصيرورة ،
فى الواقع يدخلون ظلمة أعظم من تلك الذين
يبتهجون بالصيرورة

البعض يؤكدون القول انها غير الأصل !
والبعض يقولون انها غير عدم الاصل
هكذا سمعنا من الحكماء
الذين فسروها لنا

(الصيرورة والخراب أصلان أساسيان)

الصيرورة والخراب •
هو الذى يعرف هذين مجتمعين
بالخراب اجتياز الموت
وبالصيرورة نيل الخلود

(صلاة على الميت)

بوعاء ذهبى
وجه الحقيقة مغطى
ألا فلا تكشفه يا بوشان (Pûshan)
لترى من قانونه الحقيقة •

أيها الطاعم ، الناظر الوحيد ، أيها المنظم ، أيها الشمس ، سليل برجابتى (Prajâpati) انشر أشعتك ، اجمع ضياءك ! ما شكلك الوضاح الذى أراه منك ؟ من هو الذى من وراء ، من الوراء شخص ، أنا بنفسى هو !

نفس (ى) الى الريح السرمد
ثم ينتهى هذا الجسم الى تراب ! يا قدير !
أيها المقصود تذكر ! تذكر العمل !
أيها المقصود تذكر ! تذكر العمل !

(صلاة للتوسل والعبادة)

يا أجنى : اهدنا السراط الطيب للسعادة
فأنت رب تعرف كل الطرق
ابعد عنا الأساليب الملتوية للخطيئة !
فنقدم لك أعظم عبارات التمجيد !

أثارت هذه اليوبانيشادة دراسات مقارنة بينها وبين النصوص المسيحية ، وليس هنا مجال لتلخيص هذه الدراسات أو الحديث عنها ، لأن هدف هذا الكتاب هو عرض العقائد ، لا الدراسة المقارنة ، ونحن لا نستطيع أن نختم هذه الدراسة دون اشارة الى أن العقيدة البرهمية أو

الهندوكيــة قاصرة على من يولد هندوكيا ، ومن ثم فهى عقيــدة محددة الاتباع • وليس هذا يعنى براءة هذه اليوبانيشادة من المسحة المسيحية•

(ب) البــوذية :

ثانى الديانات الكبرى فى الهند بعد الهندســتانية ، والنصــوص الدينية التى خلفتها البوذية كثيرة جدا الى حــد أن قيل أن ليس هناك كاهن بوذى استطاع قراءتها كلها ، ومهما يكن من أمر فانه من المستطاع ضم هذه النصوص فى مجموعات فتــكون أربع أو خمس مجموعات ، أشهرها جميعا ولعلها أهمها أيضا هى المجموعة البالية (Pali) وميزتها أنها تتضمن النصوص التى جمعها المجلس الذى عقده الامبراطور أسوكا (Asoka) ويرى الباحثون أنها تبدو أكثر تناسقا من غيرها رغم ما فيهــا من نصــوص ذات أوجه مختلفة فى التفسير وفى الشروح ولقد حاولت مسزريس دافيدز (Mrs Rhys Davids) أن تستخرج أقدم هذه النصوص ، ولكن يبدو أن دراسة هذه النصوص لم تصل بعد الى هذا الهدف ، اما المجموعات الأخرى فهى باللهجات المحلية •

نشرت معظم هذه النصوص البالية جمعية (Pali Text Society) من مخطوطات وجدت فى أكبر وأهم معبد فى سيلان ، وهى مخطوطات منقولة عن أصول ألفت بالهند ، ومن المعروف أن البالية لم تكن اللغــة الأصلية للبوذية ، ولكن الصلة بينها وبين السنسكرتية موجودة ، ويذهب سير تشارلز اليوت Sir Charles Eliot الى أن صلة البالية بالسنسكريتية شبيهة بالصلة بين الايطالية واللاتينية ، فقيمة هــذه المخطوطات لا يهدرها أنها لم تكتب بالسنسكريتية وأنها كتبت بالبالية ، لأن السنسكريتية القديمة كانت قد ماتت وكانت البالية زمن الامبراطور أسوكا هى المعروفة فى أكثر بقاع الهند ، ثم ماتت هذه اللغة بدورها فى الهند، وانتقلت العقيدة الى بقاع أخرى هى بورما وسيلان وكمبوديا وسيام، وكتبت باللغات المحلية •

والنصوص البوذية ليست على نمط اليوبانيشادات التى يتدارسها تلاميذها ، وانما هى نصوص تتلى فى صلوات ، توجه الى جمع من الناس ، لا كما هو الشأن فى اليوبانيشادات التى غالبــا ما تتلى على الفرد وفى اجتماعات خاصة ، ولا يزال أمر البوذية على هذا الوضع الى الآن ، وتتخذ البوذية من القاء النصوص القديمة وسيلة لبعث الروح التى أتى بهــا مؤسس عقيدتهم ، وكلما عمق ايمان البوذى بأن روح بوذا العظيم ، أو

بتعبير آخر روح الاله بوذا حالة في صنمه كلما نظر اليه على أنه متمسك بعقيدته ٠

ويقول الباحثون أن لديهم من الأدلة ما يثبت أن النصوص البوذية ظلت مدة طويلة بغير تدوين ، مدة قد تصل الى أربعمائة سنة بعد وفاة بوذا ، ومن ثم فهي نصوص ليست بعيدة من الريبة فيها ، وتشير المصادر البوذية الى « القراء » والى القول بأنه اذا لم تكن التلاوة مستمرة ضاعت الصلوات (Suttas) والرأى المشهور أن كتابتها حدثت سنة ٨٠ ق ٠ م ، ويذهب اليوت الى أن الزمن تأخر بها الى سنة ٢٠ ق ٠ م ٠

والمجموعة البالية الشبيهة بتلك التي وجدت بسيلان تعرف بالسلات الثلاث (Tripitaka) ، وهى على التتابع :

١ ـ الفينايا أو سفر النظام (Vinaya) وهو يتضمن المحظورات، وعليه شروح متصلة بالأصل ، ويقارن اليوت بينه وبين سفر اللاويين ، ويحاول بوكيه أن يبعد التشابه بينهما فيقول ان الأجدر والأصوب أن يقارن بالكتيبات اليهودية أو الكاثوليكية ذات المنحى الأخلاقي ٠

٢ ـ سوتابيتكا (Sutta Pitaka) وهو الذى يتضمن الخطب ، وهى تنقسم الى خمس مجموعات ، وثانى هـذه المجموعات وهى مجهيما نيكايا (Majjhima Nikaya) اجملها جميعا ، وتتضمن مائة واثنين وخمسين خطابا ، وهى في نظر اليوت وبعض الباحثين المادة الموثوق بها التى يعتمد عليها الباحث، وثالث المجموعات السميوتا (Samyutta) وهى مواعظ قصـيرة ، بعضهـا منظوم ، أما المجموعة الرابعـة فهى (Anguttara) وأحاديثها طويلة ومرتبة مجموعات مرقمة ، والخامسة بعضها منظوم ، تتضمن تراتيل كتبها رهبان أو راهبات ، وقصص الميلاد التى هى غالبا ما تكون أساطير شعبية ، صاغها مبشرون لبيان تعاليم بوذا ، وهنا نعثر على قصص لها نظير فى الكتاب المقدس ، ويمكن أن يرد هذا الى أن كلا منهما قد تأثر بالقصص الشعبى الموروث شفويا ، أو الى تأثير القصص الهندى الذى انتقل الى أماكن بعيدة ، والذى لم يقتصر أثره على البيئة المحلية ٠

٣ ـ ابهيدهما (Abhidhamma) التى تتميز بالطول والتعقيد لانها نظرات فلسفية ، ولا يمكن أن توصف هذه المجموعة بأنها قديمة أى من البدايات ، وأغلب الظن أنها ثمرة المجتمع البوذى ٠

أما المجموعات البوذية غير البالية فهى السنسكريتية وتتكون من :

(أ) مجموعة نصوص نيبال المهاينية ·

(ب) مجموعة نصوص وسط آسيا وبعضها بالمهاينى

(ج) مجموعة النصوص الصينية وهى التى جمعت تحت اشراف بعض الاباطرة ، وهى مترجمـــة من السنسكريتية الى الصينية ، باضافة بعض نصوص صينية أصيلة ·

(د) مجموعة نصوص التبت ·

وليست هذه النصـــوص وحدها هى التى أودع فيهـــا البوذيون عقيدتهم ، وانما هناك نصـــوص أخرى كثيرة باللغـــات المحلية المختلفة فى وسط آسيا ، يضاف الى هذا أن النصوص المهاينية لا تقف عند حد ، ذلك لان الوحى ينزل على الشخص فينطق بالنصوص ، والبوذى فى ذلك مثيل للهندوستانى الذىيتلقى الوحىأيضا فيقول اليوبانيشادة، ومن ثم فلايوجد بوذى يخطر على باله أن يستوعب أو يتقصى جميع النصوص ، وعلى ذلك فالبوذيون يختارون لدراساتهم مجموعات تبدو فى نظرهم أوثق من غيرها، من هذه المجموعات الموثوق بها قطعة قاطع الماس (Diamond-cutter Sutra) وقطعة اللوتس (Lotus Sutra) ، وقطعتان أخريان تبتغى للشفاعة لدخول جنة أرض الغرب الطاهرة ، وفى اليابان طائفة بوذية تســـمى نيشيرن (Nichiren) تنظر الى قطعة اللوتس الســـابق ذكرها باحترام وتقديس عظيمين ·

ذكرنا أن البوذى ينطق بالنصوص المهـــاينية عندما يتلقى الوحى ، والمقصود بالوحى هنا المعنى اللغوى لا الاصـــطلاحى ، ذلك لأن نظرية الوحى بمعناها الاصطلاحى لا يستطاع القول بها فى هذا المجال البوذى، وان كان ما ينطق به يعد مقدسا ، لأنهم ينظرون الى النصوص الواردة على هذا الوجه على أنها من جهد بشرى ، وأن جوتاما (Gautama) بصرهم بها ، أما الوحى الاصطلاحى فهو كما هو معروف فى الاسلام من عند الله، ولا فضل للقائل به الا النطق ، أما ما عدا ذلك فمرده الى الله ·

بعد هذه المقدمة نورد بعض النصوص التى تعطى فكرة عن البوذية ومعتقداتها ·

نظرية النفس العظيمـــة

ان ادراك النفس العظيمة كشىء عظيم مســـتقل فى جسم البوذى ومســـتقل فى نفس الوقت عن نفسه الصـــغرى هو هـــدف البوذى

للاطمئنان الى صيرورته فى هـــذه الدنيا ، يدلك على ذلك ما جاء فى الانجترانيكايا (Anguttara Nikaya)الرابعة :

(أ) هنا رجل خلق صيرورة أفعاله أخلاقا وعقلا وحكمة ، فلم يصر صغيرا وانما هو نفس عظيمة ٠

(ب) لا مكان لأحد يستطيع اخفاء جريرته

فالنفس فيك أيها الانسان تعرف ما هو صحيح وما هو زائف ،

حقا يا صديقى فانت تزدرى النفس النبيلة ،
ظانا اخفاء النفس الشريرة فيك ،
من النفس التى تشهدها ،
وعلى ذلك فمن كان ذا نفس ،
كسيد ، فدعه يمضى بلا اكتراث ٠

(ج) جزء من السميوتانيكايا (Samyutta Nikaya)وهى منظومـة كالسابقة ، وهى تتضمن الى جانب ذلك عدم الاعتراف بالقرابين :

يا برهمى أنا لا ألقى الخشب للنيران على المذابح ،
للوقود فحسب، أشعل النار ،
نارى أبدا تشتعل ، ابدا ثابتة وحامية ،
انا ـ كأرهنت (Arahant) أتهيأ للحياة ذات القداسة
٠٠٠ القلب هو المذبح ،
والنار عليه هى نفس الانسان مروضة ٠

الحســـاب

والعقيدة البوذية ـ فيما يبدو ـ تستغل الفكر الدينى القائم فى الهند ، فكما أن العقيدة الهندوستانية تخصص لها الهـــا تحت الأرض تسميه ديفا (Diva) كما ذكرنا ، فكذلك للبوذية اله مشابه ، وكل منهما هو اله الموت ، واليك قطعة قديمة تصور ما يحدث بعد موت العاصى من حساب :

« يخطىء المرء فى الفعل وفى الكلمة وفى التفكير ، ثم حالما يتفتت الجسد بعد الموت يقوم بطريقة مفزعة ، مقدمة اياه للعقاب الحفظة أمام ياما (Yama) مجردا عن بنيه خلوا من الاحترام للأشياء

الجليلة والمقدسة والاحترام لرأس الأسرة يؤنبه ياما قائلا : اذكر أيها الانسان ألم تر ظاهرا بين الناس رسولنا الأول ··· فالثانى ··· فالثالث ؟ لا ياسيدى ، ألم تر شيخا أو مسنة أو مريضا أو مريضة أو ميتا أو ميتة ؟ رأيت ياسيدى اذكر أيها الانسان ، ألم يحدث هذا لك تحذيرا وعبرة فتقول : سأكون مثلهم أيضا ، تعالوا سأفعل الطيبات فى العمل والقول والتفكير ؟ لم أفعل يا سيدى ، كنت مهملا · اذكر أيها الانسان أنه بناء على اهمالك يفعلون بك ، وأسفاه ! فهذه أفعال لم تقم بها أم ولا أب ولا أخ ولا أخت ولا صديق أو زميل أو قريب سواك ، نعم أتيت بهذه الأفعال ، فأنت الآن تجنى نتائج ما كان » ·

نظرية النرفانا (Nirvana) والصيرورة

ونظرية النرفانا تشرحها بوضوح وتبين معالمها السوتا الشهيرة (Sutta) المعروفة بدوران العجلة (The Turning of the Wheel) وتذهب مسز ريس دافيدز أنها نشيد ألقاه جوتاما على تلاميذه الخمسة الأول بحديقة الغزال فى بنارس ، وهى تبين بعض التعاليم البوذية ، واليك السوتا — بعد اسقاط التكرار — عن مسز ريس ·

« هاتان الغايتان — أيها المساكين — لا يتبعهما امرؤ ترك الدنيا ، فما هما ؟ التى تعلق التفانى على الارادة فى السعادة منحطة ووثنية ومن غايات الرجل العادى وخسيسة ولا تتصل بالحسن ، والتى تتفانى فى تعذيب النفس ، سيئة وخسيسة ولا تتصل بالحسن ، وبعد فعابر السبيل الذى لا يذهب الى احدى هاتين الغايتين يتأتى له فهم تام لطريق وسطى فيبصر ويعرف ، وتفضى به الى الهدوء بعد العمل ، الى المعرفة الكاملة ، الى الفهم ، الى النرفانا ، ثم ماهى هذه الطريق الوسطى التى فهمت فهما تاما؟ هى هذه الطريق النبيلة ذات الأوجه الثمانية ، أى الرؤية السليمة والقرار السليم والكلام السليم والعمل السليم والسلوك السليم والجهد السليم والعبرة السليمة والتركيز السليم ؛ هذه هى الطريق الوسطى التى تفضى الى الهدوء بعد العمل ···· الى النرفانا ·

وبعد أيها المساكين فهذا داء الحقيقة النبيلة : كلا الميلاد والهرم والمرض والموت ، والتضجر من الأشياء غير الغالية وعدم التضجر من الأشياء الغالية ، وحصوله على ما لا يريد — أمراض ، وهذا أيضا مرض:

مجموعات الوقود الخمس • يأيها المساكين فهذا أصل داء الحقيقة النبيلة: الاشتهاء وبعث الصيرورة مصحوبين باللذة والشهوة وموجدين المرح هنا وهناك ، أعنى اثارة الارادة للسعادة الحسية والشوق الى الصيرورة واشتهاء الثراء ، وهذا أيها المساكين هو نهاية داء الحقيقة النبيلة : ذبول وانتهاء هذا الاشتهاء هو الامتناع والخضوع والتحلل وعدم الاستعمال، وهذا أيها المساكين طريق نهاية داء الحقيقه النبيلة : هو هذه الطريق النبيلة ذات الثمانية أوجه ، أى الرؤية السليمة •••• التركيز السليم[1] ، وعند داء الحقيقة النبيلة هذا انبثقت فى رؤية أشياء لم تسمع عنها من قبل ، انبثقت المعرفة ، انبعثت الحكمة ، انبثقت فطنة الفيدا ، أنبثق الضياء ، ولكن داء الحقيقة النبيلة هذا يجب أن تعرف تماما لأنى عرفته تماما ، فانبثقت فى رؤية •••• انبثق ضياء ، عند أصل داء الحقيقة النبيلة هذا انبثقت فى رؤية أشياء لم يسمع عنها من قبل ••••• انبثق فى ضياء ، والآن يجب القضاء على أصل داء الحقيقة النبيلة هذا ، أما وقد تخلصت منها فقد انبثقت فى رؤية ••• انبثق[1] ضياء ، وبعد فان نهاية داء الحقيقة النبيلة هذا المحتم تحققى له ، أما وقد أدركته فقد انبثقت فى رؤية ••••• انبثق ضياء[1] ، وعند اتخاذ هذا الطريق لانهاء داء الحقيقة النبيلة انبثقت فى رؤية ••• انبثق ضياء[1]، وكذلك هذه الطريق لأنهاء داء الحقيقة يجب أن يجعل للصيرورة ، اما وقد جعلته للصيرورة فقد انبثقت فى رؤية ••••• انبثق ضياء ، وبعد فيأيها المساكين مادامت عندى هذه الحقائق النبيلة الأربع متعلقة بالمعرفة والفراسة على النحو الذى جاءت به بحق ، فمن ثم فان تلاوتها ثلاثا واثنتى عشرة مرة لا يجعلها واضحة ما دمت قد اعترفت أننى لم أتيقظ للادراك السامى من حيث العالم بديفاته وبشياطينه وبالديفات البرهمية ، ومن حيث (هذا) الجيل من المترهبين والبرهميين بديفاته ورجاله ، ولكن اذا ما بدت المعرفة والفراسة بالطريق السابق ذكره عندئذ أكون اعترفت أننى كنت يقظا تماما للادراك السامى من حيث العلاقة بالعالم ••• ومن حيث العلاقة (بهذا) الجيل من المترهبين والبرهميين بديفاته ورجاله ، وعندئذ كانت المعرفة والرؤية منبثقة فى على نحو أن التحرر من الغرض لا يتزعزع ، وهذا هو الميلاد الأخير ، ولم تبق بعد صيرورة أخرى » •

وملخص الطريق الوسط ذى الشعب الثمانية ، التى هى قواعد الحياة الحقة عند البوذية ، فكما يأتى : ـ

---

(١) على نحو ماذكر سابقا فى الاوجه الثمانية ، ونكتفى بالاشارة لعدم الحاجة الى التكرار وهذه النصوص سبق ذكرها .

١ ـ الرؤية السليمة : تكون بالهدوء الدائم وعدم الاستسلام للفرح أو الحزن ·

٢ ـ وبالقرار السليم : ويتأتى بهدوء المرء دائما ولا يفعل أذى بأى مخلوق ·

٣ ـ والكلام السليم : ويكون بالابتعاد عن الكذب والنميمة وعدم التلفظ بالكلمة النابية ·

٤ ـ والعمل السليم : ويتأتى بالبعد عن العمل السيء مثل التزييف وعن أخذ السلع المسروقة وعن اغتصاب المرء ما ليس له ·

٥ ـ والسلوك السليم بالابتعاد عن السرقة والقتل وفعل ما يأسف له المرء على فعله أو يخجل منه ·

٦ ـ والجهـد السليم : بأن يسعى المرء دائمـا الى كل ما هو خير والابتعاد عما هو شر ·

٧ ـ والعبرة السليمة : بأن الحقيقة هى التى تهدى المرء ·

٨ ـ والتركيز السليم : وهو لا يتأتى الا باتباع القواعد السابقـة وبلوغ الانسان مرحلة السلام الكامل ·

منهج البوذية ـ الحكمة الروحية السامية :

والبوذية تخالف الهندوستانية التى تدين بخلود المادة ووحدتها ، تخالفها فى اعتراف البوذية بفناء المادة ، ولها تعاليم لاتباعها تضمن الكتاب المقدس المعروف بسوترا قاطع الماس (The Diamond-cutter Sutra) بعضها ، وهذه السوترا تبين التصوف البوذى وتميز شخصيته وتعاليمه ، وهى من أهم النصوص الدينية المقدسة عنـد البوذيين ، وتصور الحكمة السامية عندهم ، وقد ورد فى هذا الكتاب المقدس ما يأتى : ـ

« سمعت ما يأتى عن سيدنا بوذا » :

فى احتفال مذكور أمضى الرب بوذا وقتا فى مملـــكة سرفستى Sravasti مقيما فى بستان جيتا Jeta وهى حديقة من الأملاك الامبراطورية قد أهداها جيتا ـ ولى العهد ـ لسوتانا (Sutana) وزير المملكة المحسن ، لما اشتهر به من احسان وصدقات · واجتمع عند الرب بوذا ألف ومائتان وخمسون تابعا مسكينا ، كلهم قد وصلوا الى الدرجات العليا فى الحكمة

الروحية ، فى هذه المناسبة اتخذ سبهوتى (Subhuti) المحترم مكانا فى وسط الجمع ، ثم قام من مقعده وكان لابسا عباءة بصورة تكشف عن كتفه الأيمن ثم ركع على ركبته اليمنى وضم راحتى يديه ورفعها باحترام نحو الرب بوذا قائلا : أنت ذو الحكمة السامية ، الممجد من العالمين ، ذو الدعوة الرائعة ، أنت تبقى فى العقيدة وتعلم بالقانون هذا الجمع الممتاز من الاتباع المتنورين ، أيها الممجد من العالمين ، اذا سعى تابع مخلص ــ رجلا كان أو امرأة ــ لنيل الحكمة الروحية العليا فأى قانون لا يتغير يطلب عقل ذلك التابع ويخضع كل رغبة جامحة ؟

أجاب بوذا الرب قائلا لسبهوتى : انها بحق فكرة رائعة ، كما أكدت أبقى فى العقيدة وأعلم بالقانون هذا الجمع الممتاز من الأتباع المتنورين ، انتبهوا بجد نحوى فسأعلن قانونا يكون به عقل التابع المخلص ــ رجــلا كان أو امرأة ــ اذا سعى للحصول على الحكمة الروحية العليا طلبها بسداد وتمكن من اخضاع كل رغبة جامحة ، فابتهج سبهوتى وأشار بالموافقــة مسرورا ، وعندئذ تقدم الرب بوذا بجلالته البشرية وبمنطوق سليم ألقى هذا النص المقدس قائلا :

بهذه الحكمة سيتمكن المتنورون من الأتباع من اخضاع كل رغبة جامحة ، كل نوع من أنواع الحياة سواء أتكون فى البيضة أو تكون فى الفرج ، خرج من بيض السمك أو جاء عن مسخ ، بصورة أو بغير صورة أو ذكاء ، فيه الغريزة أو عار منها ــ من هذه الحالات المختلفة للكائنات آمركم السعى للتحرر منها بفكرة النرفانا السامية ، وبذلك ستتحررون من عالم حياة حسية لا يقاس ولا يعد ولا يحد وان كان فى الواقع لا يوجد عالم حياة حسية يسـعى للتحرر منه ، ولماذا ؟ لأنه فى عقول الأتباع المتنورين توقف وجود أمثال الصور العرفية للظواهر كوحدة أو ككائن أو ككائن حى أو كشخصية .

زد على ذلك ــ يا سبهوتى ــ فان تابعا متنورا ينبغى أن يعمل طوعا فى تقديم الصدقة دون أثر بالظواهر الحسية كالصوت أو الرائحة أو الطعم أو اللمس أو القانون ، يا سبهوتى انه فرض على التابع المتنــور فى أداء الصدقة أن يعمل مستقلا عن الظواهر ، ولماذا ؟ لأن العمل دون اعتبـار للصور الخداعة للظواهرسيتحقق له فى أداء الصدقة أجرا لايقدر ولا يقاس .

يا سبهوتى ، ما ظنك ؟ هل من الممكن تقدير المسافة المتضمنة فضاء العالم غير المحدود ؟ أجاب سبهوتى قائلا : يأيها الممجد من العالمين أنه من المستحيل تقدير المسافة المتضمنة فضاء العالم غير المحدود ، عند ذلك

تحدث الرب بوذا قائلا : كذلك أيضا من المستحيل تقدير الأجر لتـــابع متنور ، يقوم بالصدقة غير مضطرب ولا مخـــدوع بمؤثرات الظواهر ، يا سبهوتى ان عقل تابع متنور ينبغى بذلك ألا يكون متأثرا بنظرية ٠

واستجوب الرب بوذا سبهوتى قائلا : ما ظنك ؟ هل من الممكن أنه بوساطة جسمه الطبيعى يمكن ادراك الرب بوذا بوضوح ؟ أجاب سبهوتى قائلا : لا أيها المجد من العالمين من المحال ذلك بوساطة جسمه الطبيعى يمكن ادراك الرب بوذا بوضوح ، ولماذا ؟ لأن الرب بوذا أشار الى الجسم الطبيعى الى أنه فى الحقيقة ليس جسما طبيعيا فحسب ٠ عند ذلك تحدث الرب بوذا قائلا : كل صورة أو صفة للظواهر زائلة وخداعة ، وحينما يدرك العقل أن ظواهر الحياة ليست ظواهر حقيقية عندئذ يمكن ادراك الرب بوذا بوضوح ٠

استوضح سبهوتى الرب بوذا قائلا : أيها المجد من العالمين ، فى العصور القادمة عندما يذاع هذا النص المقدس بين أولئك الكائنات الذين قدر لهم أن يسمعوه فهل سيدركونه فى عقولهم عقيدة خالصــــة غير مختلطة ؟ فأجاب الرب بوذا سبهوتى قائلا ، لا تكون عندهم مثل هـــذه الفكرة المدركة ، وحتى فى العصر البعيد فى القرون الخمسة التاليـــة لنرفانا الرب بوذا لا يكون هناك أتباع كثيرون يرعون قسمهم الرهبانى فيتفانون باخلاص فى الأعمال الصالحة ، أما هؤلاء الذين يستمعون الى هذا النص المقدس يتلى فسيؤمنون فى رسوخه ويدركون كذلك بعقولهم عقيدة نقية غير مختلطة ، الى جانب هذا ، من الهام أن نوقن أن العقيدة المدركة على هـذا الوجه ليست مستثناة نظرا لفكرة زمنيـــة لبوذا معين ، ولكن لصلاتها بأفكار دقيقة لألف بوذا خلال عصور غير محدودة ، وعلى ذلك فمن الكائنات المقدر لهم أن يسمعوا هذا النص المقدس يذاع سيدركون بالبديهة ولأول وهلة عقيدة مقدسة ونقية ٠

سأل الرب بوذا سبهوتى قائلا : ما ظنك ؟ هل وصل الرب بوذا الى الحكمة الروحية السامية ؟ أو هل لديه مشروع نظرية يمكن صياغتها صياغة خاصة ؟ أجاب سبهوتى قائلا : على قدر فهمى لمعنى حـــديث الرب بوذا ليس لديه مشروع نظرية يمكن صياغتها صياغة خاصة كما لا يستطيع الرب بوذا أن يعبر فى ألفاظ واضحة لونا من المعرفة يمكن وصفه على أنه الحكمة الروحية السامية ، ولماذا ؟ لأن ما أشار اليه الرب بوذا فى ألفاظ القانون هو علوى ولا يعبر عنه ، أما وهو فكرة روحية خالصة فانه لا يتطابق مع القانون ولا يرادف أى شىء خارج القانون ، ومن ثم فهى متمثلة فى المنهج

الذى به يصل حكماء الاتباع والبوذات المقدسة الى مختلف المراكز للحكمة الروحية معتبرين البديهة قانون عقولهم •

خاطب الرب بوذا سبهوتى قائلا : ما ظنك؟ اذا تصدق محسن بصدقات بكثرة الكنوز السبعة تكفى لملء العالم فهل تثمر لذلك الشخص أجرا عظيما ؟ أجاب سبهوتى قائلا : اجرا عظيما جدا أيها المجد من العالمين ، ولماذا ؟ لان ما أشير اليه لا يدخل فى طبيعة الأجر العادى ، وفى هذا المعنى ذكر الرب بوذا (أجرا عظيما) أردف الرب بوذا قائلا : اذا آمن تابع ايمانا وطيدا بجزء من هذا النص المقدس وجد فى شرحه للآخرين فان الأجر الأصلى لذلك التابع عظيم نسبيا ، ولماذا ؟ لأن البوذات المقدسة — يا سبهوتى — والقانون الذى به وصلوا الى الحكمة الروحية العليا يدينان كثيرا ببدايتهما لحقيقة هذا النص المقدس يا سبهوتى : ما اصطلح على تسميته بالقانون البوذى ليس فى الحقيقة قانونا منسوبا لبوذا •

وسأل الرب بوذا سبهوتى قائلا : ما ظنك ؟ هل بناء على ذلك يقنع السروتبتى (Srotapatti — وهو الانسان الذى يدخل المجرى فيحمله الى النرفانا) فى نفسه باعتقاده « حصلت على ثمرات تتناسب مع أجر السروتبتى » ؟ فأجاب سبهوتى قائلا : لا أيها المجد من العالمين ، ولماذا ؟ لأن سروتبتى هو ببساطة اصطلاح وصفى يعنى « دخول المجرى » والتابع الذى يتجنب الصور الخداعة للشكل والصوت والرائحة والذوق واللمس والقانون يسمى سروتبتى •

ومع ذلك أيضا سأل الرب بوذا سبهوتى قائلا ما ظنك ؟ هل بناء على ذلك يقنع الأرهات (Arhat — وهو الذى وصل الى الهدوء للعقل) فى نفسه باعتقاده « وصلت الى حالة الارهات » أجاب سبهوتى قائلا : لاأيها المجد من العالمين ، ولماذا ؟ لأنه لا يوجد فى الواقع حالة مرادفة لاصطلاح ارهات ، أيها المجد من العالمين اذا اقتنع أرهات فى نفسه بالاعتقاد • وصلت الى حالة أرهات ، فمن الواضح أن يكون اعادة جريان مثل هذه الأفكار المصطلح عليها كالوحدة والكائن الحى والشخصية •

وفى هذه المناسبة سأل سبهوتى الرب بوذا قائلا : أيها المجد من العالمين بأى اسم سيعرف هذا النص المقدس حتى ننظر اليه بتقديس ؟ فأجاب الرب بوذا قائلا : يا سبهوتى هذا النص المقدس سيعرف سوترا قاطع الماس (الحكمة السامية) التى بها نصل الى (الشاطىء الآخر) ، بهذا الاسم ستنظرون اليه مقدسين ، ولماذا ؟ ما أعلنه الرب بوذا

ـ يا سبهوتى ـ انه (الحكمة السامية) التى بها تصل الى (الشـــاطىء الآخر) ليست بالضرورة حكمة سامية ، لأنها فى جوهرها تسمو على كل حكمة .

تحدث الرب بوذا الى سبهوتى قائلا : ما ظنك ؟ أيها الاتباع لا تؤكدوا أن الرب بوذا يعتقد فى نفسه (أتيت بالخلاص لكل كائن حى) يا سبهوتى لا تتقبل مثل هذه الفكر الخداعة ، ولماذا ؟ لأنه لا توجد فى الواقع كائنات حية يمكن أن يجذب اليهم الرب بوذا الخلاص ، لأنه لو وجدت كائنات حية يمكن أن يجذب اليهم الرب بوذا الخلاص لكان من الضرورى أن ينظر الرب بوذا الى مثل هذه الأفكار المصطلح عليها كالوحدة والكائن والكائن الحى والشخصية ، يا سبهوتى ان ما أشار اليه الرب بوذا على أنه وحدة ليس فى الحقيقة وحدة ، قال بذلك لأن العوام وغير المثقفين لا يفهمونها الا على أنها وحدة ولا يعتقدون فيها الا على هذا الوضع ، يا سبهوتى ان ما يشار اليهم عادة على أنهم العوام وغير المثقفين قد أعلن الرب بوذا أنهم ليســـوا مجرد عوام وغير مثقفين .

ثم وجه الرب بوذا الخطاب الى سبهوتى قائلا : هل يمـــكن ادراك الرب بوذا بوساطة هذه الاثنتين والثلاثين ميزة جسمية ؟ أجاب سبهوتى : لو كان الأمر كذلك لأمكن ادراك الرب بوذا بوساطة هذه الاثنتين والثلاثين ميزة جسمية . وأردف الرب بوذا فقال لسبهوتى : اذا كان بوساطة هذه الاثنتين والثلاثين ميزة جسمية يمكن ادراك الرب بوذا ، اذن فالرب بوذا لا يخرج عن كونه مجرد شبيه لواحد من الملوك فى العجلة الدائرة الكبيرة ، وعندئذ توجه سبهوتى الى الرب بوذا قائلا أيها الممجد من العالمين ، تبعا لما أستطيع التعبير عنه من تعاليم الرب بوذا ليس من المحتمل ادراك الرب بوذا بوساطة هذه الاثنتين والثـــلاثين ميزة جسمية وبعـــد ذلك ألقى الممجد من العالمين هذه الجاثا (Gatha) الرفيعة .

أنا لا أدرك بأية صورة منظورة .
ولا أطلب بأى صوت مسموع .
ومن يسير فى طريق الجور .
لا يستطيع ادراك نعمة الرب بوذا .

ثم قال الرب بوذا لسبهوتى اذا اعتقدت ذلك فى نفسك . ان الرب بوذا لم يحصل على الحكمة الروحية العليا بوساطة ميزاته الجسمية الكاملة ، فانك يا سبهوتى لا يكون عندك مثل هذه الفكرة الخداعة ، أما اذا اعتقدت

ذلك فى نفسك : فى الحصول على الحكمة الروحية السامية فان الرب بوذا يعلن بطلان كل شريعة وسبهوتى لا يعتقد مثل هذه الفكرة الخداعة ، ولماذا ؟ لأن هؤلاء الأتباع الذين يحصلون على الحكمة الروحية السامية لا يصدقون بطلان أى شريعة ولا فناء أية صفة مميزة للظواهر • وعندئذ أعلن الرب بوذا لسبهوتى : الايمان بوحدة المادة أو خلودها غير معقول ولا يثق فى هذه النظرية الا لعوام والناس ذوو العقول الدنيوية لأسباب مادية خالصة (١) •

ثم وجه الرب بوذا الحديث لسبهوتى قائلا : اذا كان لدى تابع مواضع لا تقاس مليئة بالكنوز السبعة وأنفقها فى الصدقة واذا اختار تابع رجلا كان أو امرأة فيه شوق نحو الحكمة الروحية السامية قطعة شعرية من هذا النص المقدس متضمنة أربعة سطور ثم عنى بها عناية فائقة وحفظها وفسرها للآخرين باخلاص فان الأجر المضاعف لمثل هذا التابع سيكون نسبيا أعظم من ثواب غيره • ثم بأى اتجاه عقلى يجب أن يفسرها باخلاص للآخرين ؟ باتخاذ دوام الظواهر أو حقيقتها الارضية بل بالسعادة الشعورية للعقل فى الراحة الكاملة ، ولماذا ؟ لأن ظواهر الحياة يمكن تشبيهها بحلم أو طيف أو فقاعة أو خيال أو الندى البراق أو الضوء الوامض ، وعلى هذا الوضع ينبغى أن تتصورها •

وعندما أتم الرب بوذا اعلانه لهذا النص المقدس اغتبط أعظم الاغتباط المحترم سبهوتى والرهبان والراهبات وخدم المعبد والأخوات وكل البشر وجميع مملكة الكائنات الروحية تلقوه وانصرفوا وكرسوا أنفسهم للعمل به •

شخصية تاثجاتا المقدسة :

ذكرنا أهم معنيين أو صفتين تقوم عليهما الفلسفة البوذية فى تحرير النفس البشرية ، وهما سروتبتى وأرهات • وبقى بعد ذلك معنى آخر تضفى عليه العقيدة البوذية ألوانا من القداسة ، ذلك هو تاثجاتا (Tathagata) وتاثجاتا فكرة تكمل العقيدة ، ذلك لأن البوذى المتنور الذى استطاع بتعاليم البوذية أن يصل الى الشاطىء ، محتاج الى الانتقال الى الشاطىء الآخر حتى تتم النهاية التى سعى اليها ، وتاثجاتا

(١) العقيدة الهندوكية تؤمن بخلود المادة وبوحدتها وتخالفها البوذية فى هذه النظرية •

هو الموكل بالنقل من هذا الشاطىء الى الشاطىء الآخر ، ولذلك فله أهمية خاصة ومنزلة رفيعة فى العقيدة البوذية ، ولندع النصوص تصوره لنا قالت سوترا اللوتس (من المهايانا) :

أيتها الآلهة والناس ، أنا تاثجاتا ــ أرهاتى متنور كامل ، بوصولى بنفسى الى الشاطىء أحمل الغير الى الشاطىء ، وكونى متحررا أحرر وكونى سعيدا أسعد ، وكونى فى راحة تامة أقود الغير الى الراحــة ، بحكمتى الكاملة أعرف كلا من هذا العالم والعالم الآخر ، كما هما على حقيقتهما ، أنا شامل المعرفة شامل البصر ، تعالوا الى أيها الآلهة والناس واسمعوا الشريعة ، أنا الذى أوضح الطريق الذى يرى الطريق ، لمعرفتى بالطريق ولكونى ألفت الطريق • سأبعث النشــاط فى كل الكائنــات الذين ذبلت أجسامهم والذين التصقوا بالعالم الثلاثى وسأجلب الهناء لأولئــك الذين أضنتهم الاعمال ، معطيا اياهم اللذات والراحة النهائية •

استمعوا الى ــ منزلى الآلهة والناس ــ واقتربوا لتروني : أنا تاثجاتا الرب الذى لا سيد له ، والذى يظهر فى هذا العالم للخلاص ، لآلاف من الكائنات الحية أتيت بأعظم شرع وضاح ونقى ، ليس له الا اتجاه واحد أن يفطنوا للخلاص والراحة • أبشر بنفس النغمة دائما جاعلا أقوالى دائما واضحة ، وهذا للجميع فى درجة واحدة ، لا تحيز فيها ، خالية من البغض والحب وأنا لا ألين ولا أحمل حبا ولا بغضا لأحد ، وأذيع الشرع لجميع المخلوقات دون تفرقة ، لهذا المرء كما لذاك •

أعيد خلق العالم كله كسحابة تسقط ماءها دون تفرقة ، مشاعرى نحو الطبقة العليا هى نفسها نحو الطبقة الدنيا ونحو الفضلاء كما هى نحو الساقطين ، ونحو الفجرة كما هى نحو الذين يرعون قواعد الخلق الطيب ، ونحو الذين يحملون آراء طائفية وعقائد فاسدة كما هى نحو الذين آراؤهم صحيحة وسليمة ، أبشر بالشرع لقليلى الحظ فى الثقافة العقلية كما أبشر به للأشخاص ذوى القدرات الخارقة والفهم الممتاز ، وبغير اصابة بالملل أنشر فى الموسم مطر الشرع •

ويعنينا هنا أن نشير الى أن النصوص السابقة وغيرها من نصوص تؤدى الى القول بأن فى العقيدة البوذية ما يوحى بتعدد الآلهة فيها وان تركز القول فى بوذا وتجسيد الألوهية فيه • ويبدو ذلك أساسيا فى العقيدة •

طرف من حياة بوذا :

وهذا الرأى الذى سقناه هو ثمرة التصور الشعبى للعقيدة البوذية الذى يعنى بوضعها فى صور خارقة ٠

وتصور النصـــوص البوذية شخصية بوذا على أنه شخص خارق ومقدس منذ طفولته ، وتضفى على شخصيته من الخيـــال والعظمة الخارقة ما جعل القصص يتفنن فى ابدائهما ، واليك قصة تصوره فى طفولته ، وهى ان كانت مأخوذة من النصوص البالية فهى تتضمن الفكر الهايانى أيضا ، أى أنها مقبولة فى العقيدة البوذية من حيث هى جتكا (Jataka) تصور تقديم الطفل لناسك ٠

« فى نفس هذا اليوم احتفل أرباب سماء الثلاث والثلاثين فى سعادة وغبطـــة ملوحين بعبــاداتهم ومظهرين آيات أخرى من المرح لأن الملك سودهدانا (Suddhodana) فى كابيلافتثو (Kapilavatthu) قد أنجب ولدا يتحتم أن يوضع الى جذع شجرة بو ويصير بوذا ٠

وتصادف فى ذلك الوقت ان ناسكا يسمى كلادفالا (Kaladevala) الصديق المقرب للملك سودهدانا والذى كان يعمل فى الميادين الثمانية للشفاعة ، ذهب بعد طعامه اليـــومى الى السمـــاء ذات الثلاث والثلاثين ليستـــريح فى الظهيرة ، وبينما هو جالس هناك مســتريحا لاحظ هؤلاء الآلهة فقال : لماذا تمرحون هكذا بسعادة ؟ أعلمونى أيضا السبب، فأجاب الآلهة : سيدى ، لأن ولدا قد ولد للملك سودهدانا ، سيجلس الى جذع شجرة بو وسيكون بوذا ، ويجعل عجلة العقيدة دائرة ، وفيه سنتمكن أن نرى السعادة اللامحدودة والسيادة لبوذا ، ونسمع العقيدة ٠ وعند سماعه هذا نزل الناسك من عالم الآلهة على عجل ودخل منزل الملك ، وبعد أن جلس على الكرسى المعين له قال : أيها الملك العظيم سمعت أن ولدا قد ولد لك أحب أن أراه ٠ عند ذلك أمر الملك الباس الأمير فاخـــر الثيـــاب واحضاره ، وحمله اليه ليؤدى الاجلال للناسك ، ولكن قدمى بوذا المستقبل تحركتا ودخلتا فى خصل الناسك المضفورة ، لأنه لا أحد يستحق من هذا المولود تبجيل بوذا المستقبل له ، ولو نجح هؤلاء الناس الجهال فى أن يجعلوا بوذا المستقبل ينحنى لتحطمت رأس الناسك سبع قطع ٠

خطر ببال الناسك : أنه ليس صوابا أن أرصد منيتى ، ثم نهض من مقعده وبيدين مطبقتين أدى التبجيل لبوذا المستقبل ، وعندما رأى الملك هذه الأعجوبة أدى هو أيضا التبجيل لابنه ٠

ثم قال الملك : ما الذى سيراه ابني فيكون نذيرا بتركه العـــالم ؟ العلامات الاربع ، أى أربع ؟ مقعد هرم ، ورجل مريض ، ورجل ميت ، وراهب • فقال الملك : من الآن فصاعدا ، لا تسمحوا لمثل الأشخاص بالدنو من ابنى ، لن يكفى ابنى أن يصبح بوذا ، وما ابتغى أن أرى ابنى عليه أن يمارس الحكم الملكى والسلطة على القارات الاربع العظمى والالفى جزيرة الملازمة لها ، وأن يمشى فى الملكوت محاطا على شبه دائرة ببطانة من ستة وثلاثين وفدا ، وعندما قال ذلك أقام حراسا على بعد ربع مرحلة فى كل جهة من الجهات الاربع كى لا يقرب واحد من هؤلاء الانواع الاربعة من مرمى نظر ابنه •

جتكا محاولة اغراء قوة الشر لجوتاما :

ذكر مارا (Mara) جيشه الخاص لرغبته فى دحر ساكيا (Sakya) القديس ، فتزاحم عليه أتباعه لابسين مختلف الأشكال وحاملين السهام والأشجار والحراب والهراوات والعصى والسيوف فى أيديهم ، بعضهـــم لهم وجوه الخنازير والسمك والخيل والحمير والجمال ، وبعضهم لهم وجوه النمور والدببة والاسود والفيلة، مفردو العيون،مكثرو الوجوه،ثلاثيو الرءوس ـ ذوو بطون ناتئة وبطون منقطة ، خلطوا بالعنز وبذوات الركب المنفوخة كالقدور المسلحة بالأنياب والمخالب ، يحملون فى أيديهـــم خراطيم بلا رءوس ، ومتخذين صورا كثيرة بوجوه نصف مشوهة وبأفواه متوحشة ، فى لون النحاس الاحمر عليهم بقع حمراء ، يحملون فى أيديهم هراوات ، لهم شعر أصفر أو دخانى اللون بضفائر مرخاة ، وآذان طويلة تتأرجح كآذان الفيلة لابسين الجلود وبغير لباس على الاطلاق ، بوجوه انصافها بيضاء ، أو بعضهم بأجسام أنصافها خضراء ـ حمراء ودخانية اللون ، صفراء وسوداء ـ بأذرع ذات امتداد أطول من امتداد الافعى ، ولهم أحزمة ذات أجراس تطن بصليلها ذوو شعر أشعث أو معقود فوق رءوسهم ، أو صلع الرءوس ، بملابس مجدولة كالحبال أو بأغطية الرءوس جميعا بغير انتظام ، لهم وجوه الظافرين أو وجوه الغاضبين يجعلون القوى تخور ، أو مؤثرين فى العقل •

ونزيد الأمر ايضاحا بكلمة عامة عن العقيدة البوذية

اقامة الصلوات :

تختلف البوذية عن الهندوستانية فى مظهر أداء العبادة ، ذلك لأن البوذية تؤدى فيها الصلوات فى اجتماعات يحضرها عدد كبير من اتباعها

وهذا أمر لا تعرفه الهندوستانية ، لأن الشعائر الدينية فيها تؤدى بعـــدد محـدود وصغير ، اذ يقـــوم رجل الدين فيتلو لجمع صغير من الرمايانا (Ramayana) أو من البرماس (Purmas) ويتبع ذلك ببعض الشروح ، أما البوذية فتقوم على أساس نظام كهنوتى مقرر ويحضر طقوسهم جمع كبير، وان كان من المؤكد أن بوذا بدأ تبشيره بالعقيدة لعدد قليل من الاتباع ،كما هو الشأن فى حال كل داعية دينى ، ثم تقرر نظامها بعد أن جذبت عددا كبيرا لاعتناقها ٠

الصيرورة فى البوذية :

وقامت البوذية على أساس تصوفى راق ، على أساس فناء النفس الصغرى وهى نفس الانسان فى النفس الكبرى ، يريدون بها الذات العليا وسواء أكانت هذه الذات العليا هى أتمن الذى عرفته الهندوستانية ، أو هى الواحد المطلق الذى لا يحد ، فان الفكرة فى هذا التصوف البوذى تقوم على عقيدة باطنية تنبثق من أعماق المتصوف ، وتبين البوذية الطريق اليها فى قولها فى (Turning the Dhamma Wheel) : « ما هو الطريق الوسط أيها الرهبان ، اجتناب التطرفين اللذين اكتشفهما تثاجاتا (Tathagata) ذلك الطريق هو المؤدى الى هدوء العقـل ٠٠ الى التنور التـام الى النرفانا حقا انه الطريق ذو الشعب الثمانية النبيلة » وهو الذى يتـــأتى بالجانا (Jhana) أى بالتأمل ، وفى قول (Dhammapada) النص ٣٨٠ : « هذه النفس (العظيمة) هى **بالتأكيد الاله ، هى الصيرورة** ٠٠٠ وهذا بالتأكيد ما يجب أن يعرفه المرء » فالنفس الصـــــغرى تذوب فى النفس العظيمة ، فاعتقاد البوذى « الرؤية انبثقت فى ، انبثق الضوء » هـــو السبيل ، واذا تم له هذا فقد واتته الصيرورة ٠

البوذية الحديثة :

سجل الدكتور امبرى (Embree) صلاة على ميت يتلوهـــا كاهن من الشنتو فى اليابان سنة ١٩٣٦ قال الكاهن :

نحن نهمل حياتنا الروحية متبعين حياة الاثرة ، آخر شىء نعتمد عليه هو على أية حال روحنا ٠٠٠٠ انها الروح وحدها التى تذهب معنا الى العـالم

الآخر ... انه لمن المتأخر جدا أن نعرف هذا على سرير موتنا ، وأولئك الذين يعلمون انهم يدخلون أرض الطهارة حالما يموتون هم أسعد الناس فى العالم ، انه فحسب عندما نفقد كل ثقة فى أنفسنا ثم نرى يقينا بعد ذلك شيئا نعتمد عليه نسمع صوت نيوراى (Nyorai ـ باسم آخر لأميدا Amida ـ تأليه بوذا »

ونيوراى لن يخذل الذين يسألونه العون باخلاص ، ونيوراى يعيش فى ذوات نفوسنا ، ووجوده يتلاشى فقط بتفكيرنا الدنيوى أو فى طلب المال أو الشهرة أو بالحقد ، فاذا ما لاقتنا عقبات وأحسسنا بمدى ما فى قوتنا من ضعف وكيف ان كل الأشياء حولنا غير دائمة وكيف أننا جميعا خلقنا من خطايا وقعنا فى هم وحدة تامة ، وانه لفى هذه اللحظة يؤذن لنا أن نسمع صوت نيوراى ، وعندئذ تبدأ حياة مع نيوراى كمركز ، وانها لحياة مختلفة تماما عن الحياة السابقة مع الأنا كمركز .. والعقيدة الحقة ستكون التى تجعلك تضع كل شىء فى يدى نيوراى .

ومن هذا النص يظهر بعد ما بين البوذية القديمة والحديثة ،فالقديمة لا تعرف الروح والحديثة تعترف بها،بل ان الصيرورة وفناء النفس الصغرى فى النفس الكبرى التى تتميز بها البوذية القديمة لا تجدها فى هذا النص الذى يعترف بعالم آخر وبروح فى الانسان تنتقل اليه ، وهو عـــالم مخالف ، أما من حيث أداء الصلاة فقد وصف الاستاذ برات Professor) Pratt) صـلاة دينية فى معبد ببانجكوك ويبـدو أنه التقليد فيهـا ، قال : « تعقد الصلوات الدينية .. فى المعابد أربع مرات شهريا ،وسأصف احدى هذه الصلوات التى حضرتها فى معبد بنتشامبوبت (Benchambopit) ولدى من الأسباب ما يجعلنى أومن أنها نموذجية : يقع عرش الكاهن فى ثلث الطريق تقريبا من المذبح الى الباب ، وأمامه ـ عندما دخلت كان يجلس حوالى عشرين راهبا على حصير موضوع على الارض ، وخلف العرش أو المنبر كان يجلس الجمع المحتشد على حصير أيضا ، وخلف العرش مباشرة رف عليه شموع قدمها القوم عند دخولهم ، وعليه زهريتان كبيرتان فيهما زهور اللوتس وعدد كبير من أطباق الفاكهة تحفل بهدايا من الصحـاف والبتل (betel) . وحينما وصلت لم تكن الصلاة قد بدأت ، وكان الجمع الذى كان يبلغ حوالى الخمسة والاربعين يقضون معا وقتا سعيدا يتسامرون أو يلوكون البتل أو يشربون الشاى ، وواحد أو اثنان يدخنان ، وبعضهم يصلون فى خفوت ، وكان الجمع مكونا من الرجال ومن النســاء (وان كنت اعترف أنه كان من الصعب على التمييز بين أيهم الرجل وأيهم الأنثى) وعدد قليل من الأطفال ، وكل من كان يقوم كان يخلع نعليه ثم يقع على

يديه وركبتيه ثم يزحف حتى يصل الى حصيرته ، وقد تعلق فى يده صرة (ذلك لأن الجميع يحضرون متألقين وبأسلحتهم) ، وعندما يصل الى مكانه يحل اللفافة وينظم أشياءه • ثم يبدءون بتمرير الشموع الى أقرب الحاضرين الى الرف فيوقدها ويضعها ، وبعد ذلك يوضع بهدوء تام بجانب الحصير صندوق البتل والمباصق وربما أيضا أوانى الشاى والفناجين ، فاذا ما وضعت هذه الاشياء ضم كل قادم جديد راحتيه الى بعضهما ومدهما نحو بوذا وقام بصلاة خافتة • وبدأت الصلاة بترتيل من الرهبان •• وكان الترتيل باجماعهم وبنغم واحد خفيض ، واحتفظ الرهبان بالنغمة بصورة تثير الاعجاب ، وكان الرد يختلف بين القائد وبين مجموعة الرهبان ولكن النغمة ظلت دائما خفيضة وبصورة موحدة جميلة • ولم يكن معهم ناقوس أو آلة ، وكان الانشاد يتخلله انحناءات وبعد جمل معينة كان ينحنى الجميع انحناءات كبيرة حتى تمس جباههم الارض ، وبعد ذلك يواصلون الانشاد بانتباه أعظم وتعظيم أكبر مما سبق •• كل ذلك والحاضرون جميعا يضعون أيديهم الى بعضها فى هيئة من يؤدى الصلاة ويتابعون انشاد الرهبان بخفوت بشفاه تتحرك ، ومن الواضح أنهم كانوا يحفظون النصوص عن ظهر قلب ، بادين فى جد عظيم وفى تقديس لما ينشدون • وهذا الانشاد المقدس استمر عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة ثم تقدم أحد الرهبان وجلس مخالفا رجليه على عرش الكاهن مواجها الجمع ، ممسكا فى أول أمره ستارا صغيرا أو مروحة تحجب وجهه رادا على أنشودة جديدة •

وفى ختام الترديد نحى الكاهن ستارة وتناول علبة وثيقة مخطوطة مخرجا منها جريدة طويلة ، وبعد أن ترنم ببعض جمل أخذ يقرأ فيها بنغمة موحدة وبصوت خفيض وواضح ، وبدون شروح كما بدا لى ، وكان الجمع فى انتباه عظيم جدا وكلهم تقريبا يرفعون أيديهم فى هيئة الصلاة ، وبعضهم بأيد وجباه على الأرض ، واستغرقت القراءة نحو عشرين دقيقة ، ثم ترك الكاهن المنبر فأنشد الرهبان جملتين أو ثلاثا ، والجميع بجباه موضوعة على الارض ، ثم نهض الرهبان وخرجوا صفا ، وأخذ الجمع يشربون الشاى » • وقدم برات أيضا موعظة ترجمت له ، سمعها تقال ببانجكوك أيضا لجمع صغير لا يتجاوز الثلاثين ، ومن المرجح ان المترجم كان بوذيا واعتنق المسيحية ، وربما كانت ترجمته متأثرة بنحلته الجديدة على أية حال فهذه هى الموعظة ، اكمالا للمظاهر الدينية فى البوذية : « ان فائدة بوذا للعالم هو أن يجعلهم يتخلون عن أنانيتهم وحقدهم ، ويعلمنا أيضا بوذا أن الموت ليس النهاية لأن الانسان خالد والموت للجسم فحسب

وتظل الروح حية ، وستكون لنا حياة سرمدية فى نبان «النرفانا» وسنلقى سعادة أبدية هناك ، وهى السعادة التى لايمكنأن تفقد • ولكن بوذا قال اذا أردت أن تكون سعيدا فى نبان (Nibban) تحتم عليك أن تخضع للتعاليم وأن تعمل صالحا ، والمرء الذى يجعل بحق قلبه فى صلاته يحظى بالبركة منها ، وبذا يسمع ويعى صلواتنا وينفق جهده فى عوننا » •

ولدينا تسجيل هام للعقيدة البوذية فى اليـــابان ، قام به اللورد ردسديل (Lord Redesdale) حينما كان سكرتيرا للسفارة البريطانية فى طوكيو ، اذ تمكن أن يستمع الى عظة تلقى فى أحد معابد طائفـــة النيشرين (Nichiren) وكان مصطحبا معه مسجلا وفنانا ، ومن ثم فقد استطاع لا أن يسجل تصرفات القوم ومنهجهم فحسب ، بل سجل النص الدينى كاملا أيضا ، والنص الذى نورده هنا مأخوذ من كتابه قصص من اليابان القديمة (Tales of Old Japan) .

ان الجمع الذى جاء المعبد النيشرينى مماثل لذلك الذى رآه الاستاذ برات ببانجكوك فى المعبد السيامى ، فيه النساء والأطفال والرجال، وكان قبل أداء الصلاة ، منهم من كان يدخن ، ومنهم من كان يمضغ ، ومنهـــم من كان يشرب الشاى ، ويصف اللورد ردسديل المعبد فيقول ، أن البهو الذى تؤدى فيه الصلاة ينفتح على حديقة جميلة ، ويجاوره معبد صـــغير كان الرهبان يترنمون فيه • وبعد انتهاء الانشاد خرج راهب عجوز فى ثياب بيضاء وحمراء جميلة جدا ، يسبقه تابع يحمل السفر المقدس سوترا اللوتس (Lotus Sutra) ، ذا القداسة الخاصة عند الطائفـــة النيشرينية ، على صينية مغطاة بغطاء قرمزى مذهب ، وبعد أن انحنى الراهب أمام صورة مقدسة جلس الى طاولة عليها ناقوس ثم دقه ، ليثير ــ فيمـا يبدو ــ انتباه الكائن المقدس للصلاة التى كانت على وشك الاداة ، ثم أخذ يحرق بعض البخور ثم قرأ جزء من الكتاب المقدس ، وبعد ذلك تقدم هذا الجمع بهباتهم المالية والراهب يشرب الشاى ، وأخـــيرا بدأ الراهب الموعظة التى تخللتها فترات كان يصيح فيها الجمع ناميو (nammiyo) وهذا الهتاف ــ الذى يتناسب مع هتاف هلليلوجه (Hallelujah) من جانب المخلص التقى هو الكلمة الاولى فى صلاة قصيرة ، ونامو ميو هو رن جو كيو (Namu miyo ho ren go Kiyo) كان الجمع يرددها قبل دخول الراهب ، وكل طقوس الصلاة فيما يقال هى تزكية المرء لنفســـه ابتغاء رعاية أشباه الآلهة الموجه اليهم الخطاب ، وهمالذين كانوا فيما مضى آلهة وأصبحوا الآن قديسين بوذيين مبجلين أو Bodhisattvas فى الوضع البوذى •

بدأ الراهب قائلا : « انه لا مريبعث فى الرضا العميق أن أرى عددا كبيرا من الرجال والسيدات يجتمعون معا هذا اليوم باخلاص من قلوبهم ليحتفلوا بعيد كيشيموجن Khishimojin • قديسة أو Bodhisattva ثم مضى يقوم كم تسعد هذه التقوى القديسة التى تجتهد دائما فى البحث عن وسائل خلاص للبشرية من عذاب الرغبة التى ترهقهـــم ، ثم انتقل متحدثا بعض الوقت عن الفساد الذى تصنعه الرغبات الفاسدة فى الحياة الانسانية ، مبينا مدى الاسف والطيش فى تركيز رغبــة المرء على الزائل والبائد » هذه الشهوات والرغبات تؤذى قلوبنا ، فاذا تحررنا من هـــذه الرغبات فان قلوبنا تصبح صافية ونقية ، لا شيء سوى تعاليم بوذا التى تحقق لنا هذا التحرر ، فأتباع أوامر بوذا والتحرر به من كل رغباتنا يمضيان بنا الى السلام والسعادة » ، ثم مضى يفسر حالة التحرر هذه انها لا تحتاج الى شيء فى المستقبل ، وأنه من الممكن الحصول عليها هنا الآن » نحن فى غير حاجة الى أن نولد مرة أخرى فى عالم آخر بعد الموت لنصــل اليها ، فالذى ينحى عنه شهوته الحيوانية وعواطفه ، فانه فى الحال وعلى وجه التحقيق يصير صنوا لبوذا ، ونحن حينما نرتل الصلاة : نامو ميو هو رن جو كيو ـ فاننا نبتهل لدخول حالة السلام والسعادة هذه ، ولا يكون ثم فارق بين حالتنا وحالة بوذا ونشيرين » •

وتنتهى الصلاة كما بدأت بنشيد من الجميع ، وفى أثنائه يعــود الراهب مسبوقا بتابعه • ويقول اللورد ردسديل انه على الرغم من أن هذه التراتيل تؤدى كجزء من الصلاة فى أيام خاصة الا أنها تلقى كثــيرا فى حلقات الوعظ فى مدة تقرب من خمسة عشر يوما ، يلقى اثنتين منها رهبان متجولون على الأغلب ، ويجلس طول الوقت فى صحن المعبد كاتب أو خادم يرشد المصلين ويسجل أسماء القادمين ويتسلم تبرعاتهم لنفقات المعبد •

خاتمة

والمتأمل فى هذه الموعظة التى ينقلها الينا اللورد ردسديل والموعظة التى ينقلها الدكتور امبرى يلاحظ بوضوح تباينا بين الاثنتين فى الفكر الدينى ، يلاحظ فى الأولى أنها قريبة الشبه ووثيقة الصلة بالعقيـــدة البوذية القديمة ، مما يدل على المحافظة والتمسك بلب العقيدة ، رغم تطور الحياة وأوضاعها وتأثرها بعوامل طارئة جعلت مناحى الحياة المختلفـــة

تستجيب لها ، كما هو واضح فى الموعظة الثانية التى يذكرها الدكتور امبرى ، فانها عدلت عن أساس من أسس العقيدة ، وأخذت بالايمـــان بالروح وبالحياة الاخرى ، ومن ثم يمكن أن يقال ان العوامل المحلية التى هاجرت اليها البوذية أثرت فيها بقدر منهج الناس نحو المحافظة ،وبمقدار قوة هذه النزعة فى نفوس الناس ٠

راما (Rama) :

ننتقل بعد ذلك الى نتاج دينى هندى من أروع الانتاج الدينى الذى عرفه تاريخ الأديان ، وهو فوق ذلك ذو أهمية كبرى فى تاريخ التطـور الدينى الهندى ، هذا الانتاج هو المتصل بشخصيةبطل هندى قديم هو راما ، ربما كان من ابتداع الخيال ، وهذا الانتاج هو المعروف بالرمايانا (Ramayana) واتخذ هذا الادب طابعه الدينى من النظر الى هذا البطل القديم على أنه شخصية الهية بعد أن كان شخصية من البشر ٠

وأول ما نعرف من هذا الأدب الدينى يرجع الى سنة ٤٠٠ ق ٠ م حين ألف شاعر هندى قديم يسمى فالميكى (Valmiki) قصيدة من الشعر الحماسى ، استوحى مادتها من القصص الشعبى الهندى القديم تدور حول راما ، الذى يتمثل فى قلوب الهنود أنه ملك صالح وبطل ، يصور عصرهم الذهبى الغابر ، ولقد لعب الخيال دورا هـــاما فى تلوين شخصية هذا البطل ، فقد كان فى القصص القديم الذى ينعكس فىقصيدة فالميكى شخصية بشرية ، لا تخرجها عن دائرة البشرية صفة منالصفات ولكن التطور أخذ ينمى هذه الشخصية ، ويعمل لها الخيال فى ظروف اجتماعية ودينية ملائمة لعقيدة التجسيد ، حتى أصبح راما الانســـان صورة من صور فشنو (Vishnu) الاله ، نزل الى الارض واتخـــذ صورة راما فى سبيل خير البشر ، ومن هنا تبدو أهمية راما وأهمية قصيدة فالميكى ، التى ترجمت عدة ترجمات ، منها ترجمة الشاعر الدينى الهندى تلسى داس (Tulsi Das) فى القرن السادس عشر الميلادى ، ولقـــد حظيت هذه الترجمات عند الهنود باحترام واكبـــار دينى ، لا يزال يملأ قلوبهم ، وهم يقرءون الرمايانا وكأنهم يقرءون نصوصا دينية مقدسة ٠

١ ـ رمايانا فلميكى :

فى هذه القصـــيدة التى تعـــد من الملاحم نجـــد راما ـ بطل الخيال الهندى ـ شخصا بعيدا من أن يكون من الآلهة ، وبعيدا أيضا عن فكرة

التجسيد ، نراه بطلا يتميز بالتقوى ، ويقوم بواجباته الدينيه نحو ربه أو أبيه بتعبير الشاعر ، له زوجة صالحة تسمى سيتا (Sita)منحته الحب والوفاء ، ونتصور فيها كل فضائل الزوجة الصالحة ، واليك الجزء الاول من قصيدة فالميكى :

محبوا من الآلهة فى الأعالى ، راما بقوة تقواه ،
ظل يميل نحو أبيه القديم بحب لا يتزعزع ،
ظل يرعى واجبه النبيل فى وصية أبيه المقدسة ،
أقرت الأمم بشريعته الأولى فى موضوع الصلاح ،
ولقد أرضى أمه السعيدة بحب بنوى ودفاق ،
وشيوخه وآله بحب رقيق وجميل ،
باركت البراهمة راما الصالح لايمانه بالآلهة فى الأعالى
باركه الناس فى المدن والقرى بحبهم الصادق
وبكل عواطف المرأة أحبته سيتا العاشقة والثقة ،
وفى صدرها الامين عاش راما المعشوق وتحرك
ولقد أحبها ، لأن والديهما اختاراها له زوجة وفية ،
أحبها لجمالها الفذ ولحياتها الصالحة الوفية ،
أحبته وسكن صدرها وان كان فى صورة منفصلة
راما زوج رقيق عاش فى قلب سيتا الحبيبة

٢ ـ رمايانا تلسى دس (Tulsi Das)

فى الرمايانا السابقة رأينا البطل راما انسانا ، يتميز عن البشر بخصائص آكسبته البطولة ، ولكن تطور الزمن وتطور العقائد ، وخاصة اقتحام نظرية التجسيد فى الحياة الدينية كما رأينا فى البوذية ، جعل هذا البطل الهندى راما يأخذ من الصفات وبناله الخيال بالتصور ما جعله شخصية مختلفة عما رأيناها فى ملحمة فلميكى ، وهذا التطور حدث قبل الميلاد ، يؤيد هذا أن ليس هناك دليل على أن هذا التطور كان ثمرة الاتصال بين الديانة الهندية والديانة المسيحية ، ومهما يكن من أمر فان رمايانا تلسى دس ألفت فى سنة ١٥٣٢ م ، مصورة هذا التطور القديم الذى طرأ على شخصية راما ، والذى يبدو عليها مسحة صوفية ، واليك ثلاث قطع تصور لك هذا التطور من رمايانا تلسى دس .

(أ) القطعة الأولى منثورة (Canto I, Doha 17) ، وهى تصور نزول الاله وتجسده :

الجميع يعرفون أن عظمه الاله هى فوق التعبير عنها بالالفاظ ، ومع ذلك فمن يمكنه أن يقاوم اغراء التعبير عنها باللغه ؟ اله واحد موجود ، بغير انفعالات وبغير صورة موجود بنفسه ، هو النفس الكلية ، الروح العليا ، كلى الشمول ، الذى ليس هذا العالم الا ظله ، تجسد وصنع أعمالا كثيرة صادرة عن حبه الخالص لأولئك الذين يؤمنون به ، هو كلى الكرم مفعم بالعطف نحو سفلى القلوب ، وبرحمته يبعد غضبه عن الذين يحبونه وعن الذين يعرف أنهم له ، هو السيد راغوراج (the Lord Raghuraj) مبرىء الآلام القديمة وحامى الفقراء والمحسن للجميع • بهذا الايمان يترنم الحكماء بالثناء على هارى (Hari) ومن ثم يصبح ترنمهم مقدسا وكهنوتيا ، وعلى ذلك فأنا أيضا الذى انحنى أمام أقدام راما ـ أحس بالشجاعة اذا أبرز جلاله •

(ب) القطعة الثانية منثورة أيضا (Canto I, Doha 30) وهى تمجد اسم راما •

فى كل أركان المعمورة الأربعة ، وفى كل العصور ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وفى كل أجزاء العالم الثلاثة سماء وأرضا وجحيما يبارك كل مخلوق يهتف باسم راما ، وهذا معنى ما ورد فى الفيدات والبيرنات (Puranas) وكل أسفار الكتاب المقدس أن الحب نحو راما هو ثمرة كل فضيلة • كانت وسيلة الكفارة (أو الاستعطاف) فى العصر الأول التأمل ، وفى الثانى بالقربان وفى الثالث بصلاة المعبد ، ولكن فى هـذا العصر الحاضر التعس الفاسد حيث تسبح نفس الانسان كالسمكة فى بحـر من الاثم ، فى هذا الزمن الخطير يصبح اسم راما شجرة الحياة (Tree of Life) ليس الا ، وعلى ذلك فالموقف الوسط هو البحث عن عزاء من كل المقلقات ، فى عصر النذالة هذا لا جدوى فى الأعمال الصالحة وفى الاقرار بالايمان وفى الحكمة الروحية سوى فى اسم راما فحسب ،اسمه هو كمثل حكمة هنومن (Hanuman) وقوته ، هو قوى يدحر جيوش الملعونين •

(ج) القطعة الثالثة بالشعر (Canto I, Chandha 2) عن شخصية راما الالهية •

صور سيفا (الاله Siva) قائلا لزوجه :

الأنبياء والحكماء ، والقديسون والنساك نظروا اليه نظرة التقديس ، وبنبرات خافتة وجلة (وجهوا) الثناء عليه بتراتيل الكتاب المقدس ،

هو الروح الموجود فى كل مكان ــ رب السماء والأرض والجحيم ــ
ليقتدى شعبه ــ تكرم حرا بالسكنى مع الناس ٠

وهذا النص ــ لولا نسبته لتلسى دس لكان حريا أن يضم الى النصوص المسيحية ، واصرار بعض العلماء من المسيحيين ، بألا سبيل للدعوى بصلة هذه العقيدة الهندية بالمسيحية يلفت النظر ، خاصة وأن البــاحثين فى الأديان تعودوا أن يربطوا العقــائد بعضــها ببعض ، وأن يبينوا الأسس المشـــتركة ، ولقد حاول الأســـتاذ بوكيه أن يبعـــد هذه الشبهــة عن المسيحية ــ كما حاول غيره ، فقال بوكيه أن تعدد الآلهة ظاهرة فى النص بوضوح ، ولكن على فرض التسليم بصحة ما يراه الاستاذ بوكيه فانجوهر الفكرة الدينية القائمة عليها النص لا يمكن أن ترد الى التعدد ، ولقــد دلل بوكيه على صحة رأيه بأن العقيدة الدينية فى هذا النص مماثلةللعقيدة فى النص الآتى الذى ترجمه من اللغة الهندية الى الانجليزية الاستاذ ف ٠ س ٠ جروس (F.S. Growse) من رامايانا تلسى دس : انصتى يا ابنة ملك الجبل فستبدد شمس كلماتى كل الغشاوات التى على نفسك ، لا فرق بين المادة واللامادة ٠٠ اللاصورة ، الخالد غير المنظور وغير المخلوق يتحول الى مادة حبا فى المؤمنين ، وكيف يكون هذا ؟ بنفس الطريقة التى يتبلور بها الماء الى ثلج ٠٠ اسمعى يا جيريجا (Girija) الى قصة هارى الجميلة ذات الأحداث العظيمة القدسية كما وردت فى الكتب المقدسة ، ان سبب تجسد هارى (Hari) لا يمكن تحديده تحديدا تحكميا ، لأنه كما يبدو لعقلى أنا بافانى (Bhavani) : : راما فوق التصور العقلى أو النفسى أو التعبيرى ، ومع ذلك فعند القديسين والحكماء ان الفيدا والبرنات قــد فسرت الامر تفسيرا ما الى الحد الذى تحتمله طاقتهما ، وعلى ذلك فأنا ــ السيدة الجميلة ــ أبين لك الآن السبب كما أفهمه ، كلما تذوى الفضيلة وتعمل الأرواح الشريرة مزهوة بسلطانها عاملة على الفساد الذى لايوصف لازعاج البراهمة والبقر (١) والآلهة ونفس الارض فيتخذ الرب الرحيم صورة بدنية جديدة ليخلص المؤمنين من الآلام ويبعد الارواح الشريرة ويعيد للآلهة سيرتها الأولى ويعزز سبيل النجاة ويبسط ضياء عظمتــه فى العالم ، تلك هى بواعث تجسدات راما ٠

---

(١) البقرة مخلوق مقدس عند الهنود منذ أقدم عصور تاريخهم أى منذ العصر الدرافيدى ٠

المهابهارتا والباجفدجيتا :

والمهابهارتا ملحمه هندية قديمة ذائعه الصيت تقف فى صف واحد مع الياذة هوميروس ، تتناول الحرب التى قامت بين جيشين حليفين هما جيش البندفس (Pandavas) وجيش الكورس (Kurus) فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد ، ولئن كانت القصيدة لاتتصدى موضوعيا للمسائل الدينية الا أنها تضمنت شعرا له منحى دينى ، وأهم جزء فى هذا الشعر الدينى هو ما يعرف باليوبانيشسادة الباجفدجيتا (Bhagavadgita-Upanishadah) وهى ما تعرف اختصارا بالجيتا (Gita) ومعنى هذا الاسم المطول هو العقائد السرية المرسلة من الله العظيم ويرى بعض الباحثين ان الجيتا ليست جزءا من المهابهارتا ويسوقون على ذلك أدلة ، ومهما يكن من أمر نسبتها فهى من أشهر النصوص الدينية لسعة ذيوعها ، وأن كثيرين يميلون الى أنها من المهابهارتا ٠

وتاريخ الجيتا ـ فيما يذهب راذاكرشنان ـ يرجع الى القرن الخامس قبل الميلاد ، أى أنها على هذا الرأى معاصرة للرمايانا ، وبعض الباحثين يذهبون الى أنها أقدم من هذا التاريخ كما أن غيرهم يرون أنها أحدث من ذلك ، ومهما اختلف الباحثون فى التاريخ فانهم لا يختلفون فى أنها قبل الميلاد بمائتى سنة على الأقل ، وأنها ظلت أربعة قرون جزء من النصوص اليوبانيشادية الأساسية الموثوق بها ، وأن أقدم شرح لها قام به سنكارا (Sankara) فيما بين (سنة ٧٨٨ م الى سنة ٨٢٠ م) ، وهو رجل آخر غير سنكارا العظيم ، الذى كان اسمه سببا فى شهرة هذا الشرح ٠

والجيتا تتكون من أجزاء عددها ثمانية عشر ، يضم كل جزء منها أربعين أو خمسين بيتا ، وهى ببساطة لون من ألوان التعاليم الاوبانيشادية وينظر اليها الهنود فى أيامنا على أنها نصوص مقدسة ، وذلك بفضل زعمائهم أمثال : غاندى ، ورذاكرشنان وأوروبند وجوش وغيرهم ، وذلك لأن الجيتا تعمل على محاولة التوفيق بين أولئك الهنود الذين يؤمنون باله ينزل فيتجسد فى سبيل خير البشر وبين البرهمية التى تؤمن باله لا جسم له باق ومطلق، والاله فى الجيتا يعبر عنه باسم كرشنا (Krishna) وهذا الاله تجسد فى صورة فشنو (Vishnu) ٠ وبعد فنقدم أربع قطع تعطى فكرة عن الجيتا وعناصرها مأخوذة عن ترجمة الاستاذ فرانكلين ادجرتن (Franklin Edgerton) تصور هذا التوفيق ٠

(أ) والقطعة الأولى تصور العقيدة الاساسية فى اليوبانيشادات التى هى الايمان باله واحد هو أتمن (Atman) ، نرى الاله يجابه

مشكلة الحرب ، ينزل كرشنا فى صورة القائد فى عربته الحربية يعالج المشكلة :

من الجزء الثانى ١٦ ــ ٢٦
مما لا يوجد لا يتأتى منه حدث ،
ولا متأت يحدث مما لا يوجد ،
غير أن الخط الفاصل بين الاثنين مرئى ،
من أولئك الذين يرون الحقيقة من هذين الاثنين !

ألا فاعلم أن هذا لا ينقض ،
تحتها يندرج الجميع ،
تحطيم هذا الواحد الذى لا يموت ،
لا أحد يستطيعه ·

❋

هذه الأجسام لها نهاية ،
قرار معلن ، من (النفس) المجسدة الخالدة ،
التى لا تنحطم ولا تدرك ·
وعلى ذلك فحارب ، يا ابن بهارتا (Bharata) !

❋

من يعتقد أنه قاتل ،
من يظن أنه مقتول ،
فكلا هذين لا يفهمان ،
انه لا يقتل ولا هو مقتول ·

❋

هو لم يولد ولا يموت أبدا ،
لم يجىء للصيرورة ولن يأتى أبدا للصيرورة ،
غير مولود ودائم وخالد فهذا الواحد القديم
لا يموت حين تموت الأجسام ·

❋

الذى يعرف بالبقاء والدوام ،

هو هذا غير المولود ، الواحد الذى لا يموت ،
ذلك الرجل ، ابن برثا (Prtha) ، كيف
يستطاع قتله أو التسبب فى قتله ؟

*

كما تترك الثياب الخلقة ،
فيتخذ المرء غيرها ــ ثيابا جديدة ،
كذلك تترك الأجسام البالية ،
الى غيرها ، الى أجساد جديدة تذهب (النفس) المتجسدة .

*

لا تمزقه السيوف ،
ولا تحرقه النار ،
ولا تبلله المياه ،
ولا تجففه الرياح .

*

هو غير قابل للتمزيق ، وهو غير قابل للاحتراق ،
غير قابل للبلل ، وكذلك غير قابل للتجفيف ،
هو خالد ، موجود بكل مكان ، ثابت ،
غير متحرك ودائم

*

هو غير ظاهر ، هو غير مدرك ،
غير متغير ، على هذا النحو يوصف ،
وعلى ذلك فاعرفه كذلك ،
لا ينبغى عليك أن تنوح عليه .

*

زد على ذلك ، فعلى فرض تجدد مولده
أو تجدد موته فأنت تعتبره ،

على هذا الوضع المدجج بالسلاح ، وعليك
ألا تنوح عليه

❋

٢ ـ والقطعة الثانية من الجزء الرابع من القصيدة (الجيتا) ، وفيها نرى هذا الاله كرشنا ينزل الى الأرض فى سبيل خير البشر ،ونرى فيها نظرية الفعل ورسمه وانتفاء الفعل ، ونرى فيها فلسفة التضحية بالروح ٠

من الجزء الرابع من ٥ الى ١١ ، ومن ١٦ الى ٢١ ، ومن ٢٤ الى ٣٣ ٠

من أجلى ذهب كثير
من المواليد ، ومن أجلك يا أرجونا (Arjuna)
هؤلاء أعرفهم جميعا ،
وأنت لا تعرفهم يا ملهب العدو ٠

❋

رغم أننى لم أولد ، ورغم أن نفسى خالدة ،
ورغم أننى سيد الكائنات ،
فانى مرجعا لذات طبيعتى المادية ،
أتحول الى كائن بذات قدرتى السرية

❋

اذ كلما (تعاليم) الاستقامة ،
تبدو واهنة يا ابن بهارتا (Bharata)
يكون قيام الشر ،
حينئذ أبعث نفسى ٠

❋

لحماية الخير ،
وللقضاء على الآثمين ٠

لقيام مركز ثابت للحق ،
أتحول الى كائن عصرا بعد عصر .

*

ميلادى وأفعالى العجيبان ،
من يعرفهما على حقيقتهما ،
فى حالة ترك الجسم ، الى ميلاد آخر ،
لا يمضى ، بالنسبة لى يا أرجونا يمضى .

*

الخلاص من الشهوة ومن الخوف ومن السخط ،
بتحملى لها وباتخاذها ملجأ فى ،
كثيرون بالجد فى المعرفة ،
تطهروا وجاءوا الى رحابى

*

على أى وجه يأتى آت الى ،
بنفس هذا الوجه أمنحهم التأييد .
طريقى يتعقب
الناس جميعا يا ابن برثا (Prtha) .

*

ما هو الفعل ، ما انتفاء الفعل ؟
عن هذا احتار حتى الحكماء :
ولذلك سأفسر الفعل لك ،
معرفتك أيهما سيحررك من الشر .

*

لأنه يتحتم على المرء أن يفهم طبيعة الفعل من جهة ،
ويتحتم أن يفهم طبيعة الفعل الخطأ ،

ويتحتم أن يفهم طبيعة إنتفاء الفعل :
مشقة السلوك هو سبيل الفعل ٠

❋

الذى يرى انتفاء الفعل فى الفعل ،
والفعل فى انتفاء الفعل ،
هو المتنور بين الناس ،
ويقوم بكل أفعاله مهذبا ٠

❋

الذى كل تدبيراته ،
خالية من الهوى والغرض ،
تتوهج أفعاله فى نار المعرفة ،
يسميه الحكماء رجل المعرفة ٠

❋

تارك المترتب على ثمار الفعل ،
قانع دائما ومتحرر ،
حتى وهو حين يضع حدا للفعل ،
فانه مع ذلك لا يقوم بشىء (فى الواقع) أيا كان ٠

❋

متحررا من الشهوات ، متحكما فى العقل والنفس ،
تاركا كل الثروات ،
الفعل بالجسم وحده
يؤديه ، لا يتأتى منه اثم ٠٠٠

❋

الهدية (المضحاة) هى برهمن ، وبرهمن هو القربان
فى نار برهمن (المقدسة) يسكب برهمن ،
الى برهمن توا يجب أن يذهب ،
فتركيزه على الفعل (القربانى) هو برهمن ٠

قربانا للآلهة لا لشيء بعض
المريدين ينذرون أنفسهم ،
فى نار برهمن (المقدسة) النذر عند غيرهم ،
بتقديم القربان ذاته ·

❋

الحواس ، من سمع وغيره - عند غيرهم ،
يقدمونها لنيران الكبح
أغراض الحاسة ، من صوت وغيره - عند غيرهم
يقدمونها لنيران الحواس ·

❋

كل أفعال الحواس ،
وأفعال النفس ، عند غيرهم ،
فى نار نظام ضبط النفس ،
يقدمونها حينما توقد بالمعرفة ·

❋

مقدمو القرابين بالمادة ، مقدمو القرابين بالمظاهر ،
مقدمو القرابين بالنظام كذلك الآخرون ،
ومقدمو القرابين مجتهدين بالكلمة المقدسة وبالمعرفة ،
رجال الدين ، بالنذور المضبوطة ·

❋

فى نفس الحياة السفلى يمنح نفس الحياة العلوى
البعض كذلك السفلى لنفس الحياة العلوى ،
ضبطا لسبل أنفاس الحياة العلوية والسفلية
قصد ردع النفس ·

❋

البعض يحدون من طعامهم و (لذلك) ،

يقدمون أنفاس الحياة فى أنفاس الحياة ،
وكل هؤلاء يعرفون ما هو القربان ،
وخطاياهم تزول بالقربان

❋

أولئك الذين يطعمون من رحيق بقايا القربان ،
يذهبون الى برهمن الخالد ،
ليست له هذه الدنيا من لا يقدم القربان
فكيف به اذن فى العالم الآخر يا كورس الطيب (Kurus) ؟
وعلى ذلك فأنواع كثيرة من القرابين ،
تفرش فى مواجهة برهمن ،
واعلم أنها جميعا نبعت من الفعل
وبمعرفة هذا ستكون متحررا ٠

❋

خير من القربان الذى يتكون من المادة ،
قربان المعرفة حارق العدو ،
كل فعل بدون أثر يا ابن برثا (Prthâ) ،
منته كله فى المعرفة

❋

القطعة الثالثة من الجزء السادس للجيتا تتحدث عن اليوجا وملامحها الاساسية فى كيانها الفنى ، من ١٠ الى ١٩ :

دع الرجل المهذب يهذب دائما :
نفسه ، مستقرا فى مكان خفى ،
وحيدا ، ضابطا لأفكاره ونفسه ،
متحررا من مطامعه وبغير ثروات ٠

❋

واضعا فى مكان نظيف ،
مقعدا مستقرا لنفسه ،

لا شاهق الارتفاع ولا متغالى الانخفاض ،
تكسوه قطعة قماش وجلد وخشائش الكوسا (Kusa-grass)

*

وهناك يركز عضو الفكر على موضوع واحد ،
كابحا نشاط عقله وحواسه ،
يقوم وهو جالس على المقعد ،
بالتأديب لتطهير النفس ·

*

كذلك يكون الجسم والرأس والرقبة
ثابتة بدون حركة ، (محتفظا) بثباته ،
ناظرا الى ذات طرف أنفه ،
وغير ناظر الى أى اتجاه آخر ·

*

وبنفس ساكنة متخلصة من الخوف
ومقيما على نذر العفة
وضابطا العقل مركزا أفكاره على
وليكن جالسا متأدبا مستغرقا فى
وعلى هذا الوجه يؤدب نفسه دائما ،
فالرجل ذو الأدب وذو العقل المنضبط
الى الهدوء الذى يبلغ ذروته فى النرفانا
يفوز ويستقر فى

*

ولكن الذى يأكل كثيرا جدا فليس عنده أدب
وكذلك الذى لا يأكل على الاطلاق
ولا الذى يستسلم للنوم
ولا أيضا الذى (يظل) يقظا يا أرجونا

المؤدب هو (المعتدل) فى الطعام واللهو ،
وله نشاط تأديبى فى الألفاظ ،
ومتأدب فى كلا النوم واليقظة ،
واليه ينسب التأديب الذى يمنع الشقاء .

*

حينما يكون الفكر المنضبط ،
مستقرا على النفس وحدها ،
فيحرر المرء من الشوق الى الشهوات
يسمى حينئذ متأدبا .

*

كمصباح موضوع فى مكان ساكن الهواء ،
لا تهتز شعلته ، بهذه الصورة عرف ،
المرء المتأدب المضبوط فى الفكر
القائم بتأديب النفس

* * *

٤ ـ والقطعة الرابعة من الجزء الحادى عشر من الجيتا ذات أهمية كبيرة لأنها تتضمن حديثا عن البطل أرجونا أو ذنمجايا كما يسمى فى هذا الجزء ، وهذا الحديث موجه الى كرشنا الذى يبدو الها مخيفا ، كما يبدو فشنو الاله متنكرا فى صورة محارب فى عربته الحربية ، ثم يخرج فجأة من تنكره متخذا عظمته الالهية ، ومن المعروف عن هذا الاله أنه شفيق رءوف بالعباد ، ولكنه فى هذا الجزء يبدو مخالفا لطبيعته لأنه يظهر فى طبيعة ملتهبة تلك الطبيعة التى تقترن بسيفا ، وهو أيضا يغير طبيعته بدليل أن التراتيل توجه اليه مصورة حبه العظيم للمرء ، بينما فشنو يبدو فى صورة الوحش ذى الفك الهائل والأسنان الكثيرة ، يلتهم القتلى فى ميدان القتال ، كما تلتهم ألسنة النيران الفراش الهائم حولها ، هذا التغير فى طبيعة الالهين غير مفهوم وغير واضح ولعله يرمز الى شىء ، واليك هذه القطعة : ٩ ، ١٤ ـ ٣١ :

وعلى ذلك فتكلم اذن أيها الملك ،
هارى (فشنو) السيد العظيم ذو القوة الخفية ،

أبدى لابن برثا ،
صورته العلوية كخير ...

*

ثم مأخوذا بالدهشة ،
وقف شعره قائما ، ذنمجايا (Dhanamjaya)
أحنى رأسه للاله ،
وقال فى ايماءة التبجيل .

*

أرى الآلهة فى جسدك أيها الاله ،
كلهم ، ومستقبلى أنواع الكائنات المختلفة أيضا ،
والاله براهما جالسا على كرسى اللوتس
والأنبياء جميعا ، والأفاعى المقدسة .

*

بكثير الأذرع والبطون والأفواه والعيون ،
أراك ، غير متناه فى الصورة من كل الجوانب ،
لا نهاية لك ولا وسط ولا بداية أيضا
أراها ، يا كلى الالوهية ، ويا كلى التكوين !

*

بتاج وهراوة وقرص ،
وكتلة من الاشعاع متوهجة فى كل الجوانب ،
أراك وان عسرت الرؤية من كل جانب
بروعة النار والشمس المتوهجتين توهجا متناهى الحد

*

أنت الذى لا يموت ، المادة العليا للمعرفة ،
أنت الملجأ النهائى لهذا العالم ،
أنت الوصى الخالد للحق الابدى ،
أوقن أنك الروح الدائمة .

*

بقوى غير محدودة ، بدون بداية أو وسط أو نهاية ،
وبأذرع لا محدودة ، وبعيون هى القمر والشمس ،

أراك ، يا من وجهه يشتعل نارا ،
تحرق هذا العالم كله باشعاعك .

فهذا الاقليم بين السماء والأرض ،
وكل الجهات ، تتخلله أنت وحدك ،
برؤية صورتك هذه العجيبة المخيفة ،
يرتعد العالم الثلاثى ، أيها الواحد السامى !

* * *

هناك تدخل فيك جموع الآلهة ،
من الخشية يسبح لك البعض بايماءات التبجيل ،
تهتف بالتحية جموع الانبياء الكبار والفاضلون ،
مسبحين اياك بثناء كثير .

الردرات (Rudras) والآديات ((Adityas)) والفاسات (Vasus) والساذيات ((Sadhyas)) .

وكل الآلهة والآسفنات (Asvins) والماروتات ((Maruts) والسقاة (الآباء) ،

وجموع الموسيقيين السماويين والجن والعفاريت والفضلاء ،
ينظرون اليك فيصابون جميعا بالدهشة .

* * *

صورتك العظيمة ، ذات الأفواه والعيون الكثيرة ،
ياذا الأسلحة العظيمة والأذرع والأفخاذ والأقدام ،
والبطون الكثيرة ، مخيف بأنياب كثيرة ،
رؤيتها يخيف العوالم ويخيفنى أنا أيضا .

لمسك السماء يلهبها بألوان كثيرة ،
بالأفواه الفاغرة والعيون العظيمة الملتهبة ،

حقا رؤيتك تهز أغوار نفسى ،
ولا أجد استقرارا ولا سلاما يا فشنو .

*

وأفواهك مخيفة بأنيابها الهائلة ،
لا أكاد أراها ، مثل نار فناء (العالم) ،
فلا أفقه اتجاهات السماء ولا أجد الملاذ ،
فرحماك يا رب الأرباب ، انت الذى فيه يسكن العالم .

*

وتحتك أبناء ذرتارسترا (Dhrtarâstra)
هم جميعا مع جموع الملوك ،
بهصما (Bhisma) ودرونا (Drona) ، وابنك أيضا التحتانى
المحارب بعربة حربية ،
مع قوادنا للجنود أيضا .

*

أفواهك تتدخل مسرعة ،
مخيفة بالأنياب ومرهبة ،
البعض بين الاسنان ملتصقين ،
يرون برؤوسهم مهشمة .

*

كما أن تيارات مياه الأنهار ،
تندفع بحدة نحو البحر الوحيد ،
كذلك الأبطال التحتانيون لعالم الناس نحو ،
أفواهك المتقدة يدخلون .

*

كما أن الفراش الى ألسنة النيران ،
تدخل الى هلاكها بأقصى اندفاع ، . .

كذلك تماما تدخل العوالم الى هلاكها ،
الى أفواهك أيضا بأقصى اندفاع ٠

❊

بالتهامها تلعق بنهم فى كل الجوانب ،
كل العوالم بأفكاكك المتأججة ،
مالئا بالاشعاع العالم كله ٠
تحرق روعتك الهائلة يا فشنو ٠

❊

خبرنى من أنت يا ذا الصورة الرهيبة ؟
الولاء لك يا خير الآلهة فكن رحيما ،
أريد أن أعرفك أيها الأول ،
لأنى لا أدرك ما ذهبت تعمله ٠

رابعا ــ الزرادشتية

قال جيمس هنرى برستد فى انتصار الحضارة ترجمة الدكتور أحمد فخرى (ص ٢٦٠ ، ص ٢٦١) : « وكانت هذه الديانة من أنبل الديانات التى ظهرت فى العالم ، دعت هذه الديانة كل انسان واهابت به ان يختار احد الطريقين ــ اما أن يملأ قلبه بالخير والنور أو ينغمس فى الشر والظلمة ، وسواء اتخذ الانسان هذا السبيل أم ذاك فانه سيلاقى جزاءه ويحاسب على ما اتاه ٠ وكانت هذه العقيدة أقدم ديانة ظهرت فى آسيا تقول بالحساب بعد البعث ٠ ولم تكن دعوة زرادشت الا سموا بالعقائد القديمة التى كانت منتشرة بين أهـــله ، ورفعا لآلهتهم القديمة الى المثل الأعلى ، ولهذا أبقى زرادشت على احترام الآريين للنار وعبادتهم لها على أنها رمز ظاهر للخير والنور ، كما احتفظ أيضا بفكرة الكهنة مشعلى النار ٠

ولما لم يســـتطع زرادشت أن يؤثر فى قومه بدعوته الجديدة هجر الميديين وذهب الى الفرس يدعو الى دينه الجديد ، ولعله لم يجد فى السنوات الأولى الا القليل من الاستجابة اليه ، اذ تتضح آماله ومخاوفه فى تلك المجموعة الصغيرة من التراتيل التى تركها وهى على الأرجح كل ما وصل

الينا من أقوال ذلك النبى ، ونحن نعرف شـــدة شغف الآريين بتربية الخيول ، ولهذا لا ندهش عندما نقرأ أن زرادشت استطاع أخيرا أن يجعل أحد الملوك الأقوياء يؤمن به عندما شفى جوادا كسيحا كان الملك يعتز به ٠ وقبل أن تحين ساعة هذا النبى كانت عقيدته الجديدة قد لاقت نجاحا كبيرا وثبت قدمهـا ٠ ولم يحـل عـام ٥٠٠ ق٠م حتى كانت الزرادشتية هى الديانة الأولى بين الايرانيين كما قبلها اباطرة الفرس أيضا ٠ وليس من المستبعد أن يكون الملك دارا شيد مقبرة هذا النبى ٠ ولسنا نعرف من أقوال زرادشـــت غير التراتيل التى ذكرناها آنفا ، والى جانبها بعض تعاليمه التى احتفظت بها بعض المؤلفات التى جمعت فى العهد المســيحى المبكر بعد وفاة هذا النبى بعدة قرون ، ويجمع هذه التراتيل كتاب الأبستا الذى يمكننا ان نسميه (انجيل الفرس) » ٠

ويتحدث أ ٠ ميى (A. Meillet) (نشر متحف جيمى سنة ١٩٢٤) قائلا عن الافستا : « اذا حاول الانسان قراءة الافستا فانه يدرك لأول وهلة أن قراءتها مستحيلة ، ذلك لأن الفصل فيها لا يتلاءم ليكون وحدة ، ولا يتسق أى جزءمع جزء آخر ، فهى أجزاء مفـككة يتلو بعضها بعضا يصدق عليها القول أنها مجموعة جمل مفككة لا ينظمها عقد واحد٠٠٠ ولا يستطيع المترجم أن ينهض بترجمة الجاثات على وجه سليم وكامل » ٠ ويذهب بعض الباحثين ان العمل القيم فى الافستا هو تخليص النصوص الموثوق فيها من غيرها ، ثم تنسيق هذه النصوص تنسيقا يحقق الوحدة فيها ٠

والزرادشتية عقيدة البارسس (Parsis) ولايزالون يعتنقونها الى اليوم وكتابهم المقدس هو زندافستا ، والكلمة مركبة من كلمتين : زند ومعناها شرح وافســتا : النص الأصلى ، ومن ثم فمعنى الكتاب النص والشرح ، وكتاب البارسس المقدس يتضمن التاريخ الأدبى لأمة فى مدة طويلة من الزمن، مثلهم فى ذلك مثل كتاب اليهود المقدس أى العهد القديم٠ ومن المعروف أن هذا الكتاب المقدس ظل قرونا طويلة يعتمد على الرواية الشفوية قبل التدوين ، وعلى ذلك فالوصول الى النص الأصلى أمر لا يمكن القطع به وان جاز ترجيحه ، يضاف الى ذلك أنه غير مرتب ترتيبا زمنيا ، وفى الترجمة الانجليزية التى قام بها الأستاذ شبيجل (Spiegel) لتروج بين جماعة البارسس بالهند الذين يعرفون الانجليزية نجد الفنديداد هى الفصل الأول ، وفيه أهورا مزدا ، يتحدث الى زرادشت ويمنحـــه أوامر الشريعة تفصيلا ، ولكن لا يظن أحد أن هذا منقول عن النبى نفسه ، وانما هو من وضع كاهن بعد موته بقرون وأنه خلا من تعاليمه ، ويأتى بعـــد

الفنديداد (Vendidad) الفسبرد (Vispered) والياسنا (Yasna) وهذان للطقوس الدينية وهما تراتيل وكتاب صلوات ، وخاصان برجال الدين فحسب دون غيرهم من العلمانيين ، وتلاوة نصوصها لا تحتاج الى جمهور لسماعها ٠ وتتظمن الياسنا الجاثات (Gathas) التى ينظر اليها الآن على أنها أجزاء الافستا الوحيدة التى هى فى الواقع من عمل زرادشت، ويتلو هذه خوردن افستا (الافستا الصغيرة) التى تتضمن الياشات (Yashts) وهى تتضمن تمجيد ملائكة أو آلهة صغار ، كما تتضمن صلوات خاصة وبعض المقطوعات عن الشعائر ، هذا والأفستا المتأخرة ليست باللهجة القديمة وانما هى بلهجة العصر الأكمينى ٠

ولما قامت الدولة الساسانية وترتب على ذلك احياء الديانة الزرادشتية فى القرن الثالث المسيحى ، قام رجال الدين من المجوس بترجمة النصوص الدينية الزرادشتية القديمة الى اللهجة البهلوية ، فصاحب هذه الترجمة تشويه للنصوص الأصلية واضافات كثيرة هى شروحهم لهذه النصوص ، ومن ثم فلا يمكن الزعم أن هذه الترجمة البهلوية تمثل تعاليم زرادشت تمثيلا صادقا وتطور العقيدة على يديه ٠

والمصدر الذى يراه الباحثون المحدثون هاما فى تصوير العقيدة الزرادشتية هو الياسنا (Yasna) ، والياسنا تتضمن خمس مجموعات من التراتيل تسمى الجاثات (Gathas) ، وعدد التراتيل سبع عشرة ، ويذهب الباحثون الى أن الجاثات تتضمن العناصر القديمة للديانة الزرادشتية ، التى يضمها كتاب الزندافستا ، ويقولون أنها احتفظت ببعض أقوال زرادشت ، وعلى ذلك فهى من خير المصادر لعقيدته، ويقولون انها منظومة بلغة قديمة جدا ، وأوزان النظم فيها يختلف بعضها عن بعض، وأن طابع التأنق يبدو فيها، ويمثلونها بالمزامير فى أنها تضمنت بعض المعلومات عن حياة الشخصيات ٠

وتحدث جيمس هنرى برستد فى (انتصار الحضارة ترجمة الدكتور أحمد فخرى ص ٦٠) عن العقيدة الزرادشتية فقال عن عناصر تكوينها : (تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر ، هذا الصراع الذى كان يراه حوله أينما سار ، والذى رآه ممثلا فى ديانة الشعب الميدى وفى عقائدهم وفى آلهتهم ، وبدأ له ان هذا الصراع قائم بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الشر ، وأعتقد أن الخير ليس الا كائنا الاهيا أطلق عليه اسم مازدا (Mazda) ، الذى كان اسما لأحد الآلهة القدامى أو اهورامازدا ومعناها رب الحكمة ، الذى رأى فيه أنه هو الله ، وكان

يحيط باهورامازدا جماعة من الاعوان يشبهون الملائكة ، وكان اعظمهم مكانة هو النور ويدعى مثرا (Mathra) ويقف ضد أهورامازدا وأعـــوانه جماعة شريرة قوية أطلقوا عليها اسم اهريمن (Ahriman) وهو الذى أخذه اليهود ثم المسيحيون من بعدهم وعرفوه تحت اسم الشيطان · وهكذا نشأت عقيدة زرادشت من الصراع القائم فى الحياة عينها ، ولذا أصبحت قوة هائلة) · والناظر الى هذا القول يظهر له بوضوح أن الزرادشـــتية عقيدة جاء بها صاحبها من النظر الى الحياة ، التى أوحت له بعناصرها ، ولكن هذا النظر الى هذه العقيدة تدحضه النصوص التى تصور زرادشت على أنه نبى ، وهى النصوص التى يرجحون اصالتها ، وقد ورد فى الجاثات قوله (الى أى أرض أفر ؟ والى أى اتجاه يكون المهرب ؟ الى النبلاء والسادة وهم يقاطعوننى ، ام الى الناس وهم غير راضين عنى ، أم الى حكام الارض الخونة ؟ كيف أبلغ رضـــاك يا أهورامازدا ؟ أنا أعرف لماذا لا يصيبنى النجاح ، لأن عندى قطيعا صغيرا ولذلك فعندى ناس قليلون ، أجأر اليك أن ترعاه يا أهورا ، مانحـا اياى عونا يعطيه صـديق لصديق ، وعلمنى بالحق كيف أحظى بالفكر الخير (Good Thought) . · فهو فى هذا النص يشكو ولا يوجه شكواه الا لربه ، ونجده فى نص آخر يشير الى نفسه بما يفهم منه أنه نبى ينزل عليه الوحى ، قال : (عرفت أنك الواحد الالهى يا مازدا أهورا ، عندما جاء الى الفـكر الخير وسألنى : من أنت ، ومن لك ؟ وبأى آية تعين أيام الحساب بينى وبينك ؟ فعندئذ قلت له : أولا أنا زرادشت المبغض الحقيقى بأقصى ما لدى من قوة للرجل الفاسد والسند القوى للصالح ، وبذلك أنال الأشياء الآجلة فى المملكة غير المتناهية بثنائى وترتيلى لك يا مازدا ·

عرفت أنك الواحد الالهى مازدا أهورا عندما جاء الى «الفكر الخير» ، بهذا السؤال : لأى الأشياء ستتجه غزائمك ؟ عنه أجبت : فى كل تقديم تبجيـــل لنـــارك ، وكلمـــا كانت فى قوة فتأملت فى الحق (Right) فأرنى اذن الحق الذى أناديه ·)

والذين يذهبون الى أن العقيدة هى من صنع زرادشت يقولون أن أهورا مازدا ليس من ابتداع زرادشت ، لأن هذا الأسم كان موجودا من قبل باختلاف يسير فى الحروف كما ثبت ذلك بالنقوش الاشورية ، التى هى أبعـد فى القـدم من زرادشت ، ومعناه فى النقوش (الله ــ الواحد الحكيم) ، أما الفكر الخير (Good Thought) والحق (Right) فربما كانا الهين من الآلهة الصغرى ، ولكن المتأمل فى النص يتضح له بجـلاء أنهما تابعان لأهورا مازدا أى الاله ، ويبدو أن الفكر الخير ملك وأن الحق

صفة من صفات أهورا مازدا ، ولا يطعن فى هذا الرأى الاشارة الى النار المقدسة ، لانها تبدو فى النص على أنها رمز ، أما تقديسها فمن رواسب الشعائر القديمة التى انتقلت الى العقيدة ، وتقديس النار يرجع الى أيام ان كانت القبائل الشمالية القديمة فى حالة بداوة ، وتنتقل من مكان الى مكان تقيم فيه النيران التى تبعث فيهم أعز مطلب وهو الدفء فى جو قاس شديد البرودة ، فكانت لديهم مقدسة .

على أن هـــذا الرأى الذى ننصره لا يستقيم دائما مع النصـــوص الموثوق بها وهى الجاثات ، التى هى أناشيد موجهة الى أهورا مازدا ، ذلك لأنها نصوص قديمة تدين فى وجودها الى الرواية الشفوية أولا ، فترتب على ذلك شيء من الاضطراب ، ومن هنا نجد ما يوهم بالتعارض ، ومن الخير أن نذكر على سبيل المثال نصا من ترجمة الدكتور مولتن (Dr. Moulton) الذى ترجم الجاثات الى الانجليزية بعضها نثرا وبعضها شعرا ، جاء فى الجاثا الخمسين ما يأتى :

أرجو أن يعلمنى خالق الحكمة شرائعــه عن طريق الفكر الخير حتى يجد لسانى لها منفذا . فمن أجلك سأسرج أسرع الجياد المطهمة الممتلئة القوية فى انجاز التسبيح لك حتى تأتى الى هنا يا مازدا ـ الحق والفكر الخير ، وتكون مستعدا لعونى . وبأشعار عرفت بحمية التقوى سأمثل أمامك بيدين مبسوطتين أمامك ، أنت أيها الحق ، بصلاة المؤمن ، وأمامك بجهد الفكر الخير وبهذه الصلوات أقدم وأسبح لك يا مازدا والحق بأعمال الفكر الخير ، ولو كنت سيد مصيرى كما أريد اذن لاتجه التفكير نحو حماية العقلاء بنفس السبيل . تلك الأعمال التى سأصل اليها وتلك التى تمت من قبل ، وتلك ـ أيها الفكر الخير ـ التى هى ثمينة فى العين ـ أشعة الشمس وانبثاق الأيام الوضـــاح هى جميعا تســبح لك أيها الحق وأهورا مازدا . ســأعلن نفسى مادحا لك مازدا ، وأظل أيهـــا الحق كذلك مادامت فى قوة وقدرة ، وأرجو أن يتم خالق العالم بالفكر الخير تحقيقا وكل ما هو استجابة تامة لارادته .

ففى هذا النص يبدو ظاهره أن الحق والفــكر الخير صفتان لأهورا مازدا كما فى العبارة الثانية ، وذوا كيان مستقل عن أهورا مازدا فى غيرها، ولكن المتأمل فى النص يلاحظ فيه اضطرابا ، ذلك لأن الفكر الخير فى النص يقوم بتعليم الحــكمة وبجهده فى التعليم يكون الســعى الى أهورا مازدا ، وشخصية على هذا الوجه مستقلة وليست صفة لأهوا مازدا ، فكيف اذن يكون صفة؟ اللهم الا اذا كانت الرواية الشفوية حرفت النص فشوهته ، على أنه يمكن التماس تفسير أن الفكر الخير فى كل حالة شخصية مستقلة

بتقدير أنه ممثل لأهورا مازدا ، وهـذا يؤيد الرأى القائل باسـتقلال شخصيته ، ويزيل اللبس والغموض ٠

ننتقل بعد ذلك الى فكرة الحساب والشفاعة فنجد فى الياسنا ٤٤ نصا ننقله عن ترجمة الدكتور مولتن يقول :

عن هذا أسألك فأبلغنى يقينا وقل على التحقيق أيها الاله المقدس ،
كيف أقوم بعبادة تليق بك ، أيها الملك المعبود ٠
علمنى أيها الواحد الحكيم ، كما يعلم السماوى الأرضى كصديق
حدثنى كصديق ـ أو يأتى الحق الرءوف بعونه فى حينه ؟
ومع الفكر الخير السماوى تنزل الينا الحماية بقدرته الرحيمة ٠
قل لى على التحقيق وأبلغنى يقينا فأنا أتوسل أيها الملك المقدس ٠
عندما تنبلج أسمى الحياة عند مدخل مملكتك ،
هل من مقدرات المحكمة السماوية اعطاء كل امرىء حقه ؟
حقا انه هو ـ النبى المرسل ـ الذى توضع لروحه الساهرة
كل خطايا البشر ، ومع ذلك فدأبه كصديق ـ تحيا عوالم الحياة من جديد ٠

وهنا نجد الزرادشتية تعترف بيوم الحساب الا أنها تجعل فى يد نبيها تقرير المصير لأخطاء البشر ، وغير واضح ان كان هـذا يتأتى عن طريق الشفاعة أو هو حق مقرر لنبى الزرادشتية كما يعلنه هذا النص ، ويخطىء بوكيه فى تشبيه هذه العقيدة بالعقيدة الاسلامية عن الشفاعة التى تجعل مصير خطيئة الانسان فى يد الله وهو سبحانه الذى يقرر الحكم فيها أولا وأخيرا ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فالشفاعة فى الاسلام مقصورة على المسـلمين وحدهم لا على البشر كافة كمـا هى فى النص الزرادشتى ٠

هذه الفكرة الدينية فكرة الشفاعة لا تنسب الا لرسول ، وهـذه الرسالة تقررها الياسنا ٣١ فى قولها :

العبادة للحق ولمازدا أو لأى من الآلهة يكون هناك ،
القدر والواجب يحثاننى أيها الفكر الخير ـ فالتمس لى
كل قوة الله حربا على **الفساد** حتى ينال النصر ٠

بعد هذا التمهيد نورد احدى الياسنات لتصـور العقيدة كاملة ، وليس لدينا نص أدل على ذلك من تلك الياسنا ٤٤ التى هى أسـئلة من

زرادشت موجهة الى أهورا مازدا : نوردها عن ترجمة حرفية مشهورة (١) للاستاذ جيمن . (Duchesne-Guillemin)

من الجاثات ـ الياسنا الرابعة والأربعون

١ ـ عن هذا أسأل ، يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
انه استجابة لعبادتى ـ ومثل هذا واجب من كائن مثلك .
واحد حكيم مثلك يبين لى كصديق كيف أعبدك .
وبقدر ما يهب الحق لنا من عونه ،
سيأتى الينا بطريق الفكر الخير .

٢ ـ عن هذا أسألك ، يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
متى يبدأ خير مستوى للوجود ،
وهل يتساقط الثواب على رءوس أولئك الذين اشتهوه ؟
لأن هذا الرجل (زرادشت يعنى نفسه) ، مطهرا بالحق ينوء بروحه
بالقوة التى تبعث البرء فى الحياة ـ لخير الجميع ـ كصديق صدوق أيها الواحد الحكيم .

٣ ـ عن هذا أسألك ، يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
من كان عند الخلق أول أب للحق ؟
من رسم للشمس والنجوم طريقها ؟
اذا لم تكن أنت ، فمن قرر نماء وشحوب القمر ؟
أريد أن أعرف هذا ، أيها الواحد الحكيم ، وكذلك أشياء أخرى .

٤ ـ عن هذا أسألك ، يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
من أقر الأرض تحت ، والسماء من فوق بسحابها (اقرارا) به لا تتحرك ؟
من عين (مواضع) المياه والأشياء الخضراء على الأرض ؟
من أسرج للريح والسحب جيادهما ؟

---

(١) سبق أن نقلنا مطلع هذه الياسنا عن ترجمة الدكتور مولتن ؛ وهذه ترجمة اخرى يقال بأنها تمتاز بأنها حرفية وعلى ذلك فهى تلفت النظر بصرف النظر عن شهرتها، ويدل الاختلاف فى الترجمات على تباين فهم هذه النصوص القديمة .

من ـ أيها الواحد الحكيم ـ خالق الفكر الخير ؟

٥ ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
أى صناع خلق الضياء والظلام ؟
أى صناع خلق النوم واليقظة ؟
من خلق الصباح والضحى والأمسية ،
للتوضيح للكائن المتنور أعماله ؟

٦ ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
هل الأمور حقا كما أهوى أن تكون كى أعلنها ؟
هل العبادة (Devotion) حقا تعين على نفوذ سلطان العدالة ؟
هل حقيقة أنشأت الفكر الخير مملكتك ؟
لمن صنعت الأبقار مصدرا للخير ؟

٧ ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
من شرع العبادة مقدسة مع الملكوت (Dominion) ؟
من شرع أن الابناء يتحتم عليهم معاملة آبائهم باحترام ؟
حتى أجد فى الايمان بك ـ أيها الواحد الحكيم ،
مع الروح الالهى ـ خالق كل الأشياء .

٨ ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
(كى أشكل فضائلى بعد تلقى تعليماتك ، أيها الواحد الحكيم ،
وبعد الكلمات التى أتلقاها من الفكر الخير
وبعد أن أعرف ما فى الحياة يرضى العدالة) :
أى مسلك لا تضل فيه نفسى عندما تصل الى الخير (Good)

٩ ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فبحق أجبنى .
هل ـ فى مقابل كل فكرة واضحة المعالم كرست نفسى لها ،
رب المملكة ، وان كنت أنت ، أيها الواحد الحكيم ،
أنت الذى تنزل نفس المنزلة التى للعدالة والفكر الخير
أتحقق لى الوعود بالممالك فى العلى ؟

١٠ ـ هذا ما أطلبه منك ـ يا أهورا مازدا ـ فأبن لى الجواب
أو يتحتم على المرء أن يسترشد بالدين ،
الذى تنشره تعاليمى ، والذى به تكون كل الاشياء حسنة ،
بطريق الرغبة فى فضائلك ومراعاتها بالكلام والأفعال .
وبالعبادة ـ وهى جميعا مع العدالة تجعل أمورى الى هناء ؟

١١ ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
هل العبادة يمتد حكمها على أولئـك الذين اليهم أبلغ دينك ـ أيها
الواحد الحكيم ؟
حقيقة أننى أمرت منذ البداية لأقوم بذلك ،
فاعتبرت المخالفين فى عداء مع العقل (١) (mind)

١٢ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب
من بين الذين أخاطبهم ـ من المستقيم ومن الشرير ؟
أى من الاثنين : هل أنا الشرير ؟
أو الذى يحرمنى من عونك هو الشرير ؟
فكيف يمكن للمرء ألا يعتقد أنه هو الشرير ؟

١٣ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ـ فبحق أجبنى :
أو يستطاع تحرير أنفسنا من الشر
بالقائه خلفنا على أولئك الذين ـ امتلأوا بالعصيان ـ
لا يعنيهم أن يتبعوا الحق ،
ولا يبالون أن يسترشدوا بالفكر الخير

١٤ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
(كيف) ألقى بالشر بين يدى الحق ،
حتى يمكن أن يستذله وفقا لسنن عقيدتك ،
وحتى يستطيع أن يحدث انفصالا بينا عن الأشرار ،
ويجلب عليهم ـ أيها الواحد الحكيم ـ العمى والبغض ؟

١٥ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
اذا اجتمعت فيك القدرة مع العدالة لتبعد هذا عنى
عندما يلتحم جيشان معا فالى أيهما ـ
وفقا للأمر الذى أعطيتنى ـ تعطى النصر أيها الواحد الحكيم ؟

١٦ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
من هو المنتصر الذى يحمى البشر بتعاليمك ؟
وما هى الآيات الواضحة التى ستعطى لى (حتى أتعرف عليه) ؟
ألا فعرفنى السيد الذى يبرىء الخلق ،
قد يرهب ذلك كل الذين تنتظره منهم ،
فأطيعه ـ عن طريق الفكر الخير ـ أيها الواحد الحكيم .

---

(١) العقل يقصد به العقيدة المستقرة فيه والمخالفة للزرادشتية .

١٧ ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
هل سأصل بعونك الى هدفى ـ أيها الواحد الحكيم ؟
هلا أربط نفسى بك فتكون لكلمتى سلطان ،
وبذلك يرتبط الصلاح والخلود معا وفقا لأمرك
ووفقا لبطل الحق ٠

١٨ ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
هل سأحظى ثوابا من الحق
مهرتين وجوادا
وجملا أيضا
وعدت بها ـ أيها الواحد الحكيم ـ وكذلك
هبتك الصلاح والخلود ؟

١٩ ـ عن هذا أسألك ـ يا أهورا مازدا ، فأبن لى الجواب :
الذى يمسك الأجر عن من استحقه ،
الذى يعطى لا بمقدار تعهده
بأى عقاب يؤاخذ به فى هذا الوقت الحالى ،
مع علمه بما ينتظره فى النهاية ؟

٢٠ـ الآلهة الزائفة ، هل هى أرباب حقة ؟
أسأل عن هؤلاء ـ لأنه فى عبادتها ،
أرى مقدم القربان وتابعه يقدمان لها الثور وهو هائج ،
وكبير السحرة يضطره لتسليم حياته وهو يزمجر ،
بذلك لا يضع الروث فى الحقل ليثمر طبقا للعدالة ٠

وتظن الترجمة الانجليزية فى البيت الأخير أن التعبير يعنى أسالة الخمر ، ولكن فيما يبدو لى أن البيت لا يذهب الى هذا المعنى ، وانما المقصود هو الروث لأنه هام للأرض الزراعية لنمو النبات ، والى جانب هذا فالسؤال يريد جوابا عن استنكاره تقديم الحيوان قربانا ، وهو ما يترتب عليه أن يحرم الحقل من روث الحيوان الذى يساعد فى اثماره ، والاستنكار يقوم على أمرين أحدهما القسوة التى تدفع بالحيوان المضحى به الى الهياج ، والآخر حرمان الأرض من مادة تساعدها فى الانبات وازدهار المزروع ٠ واذا تركنا هذه النقطة نجد هذه الياسنا موضع اختلاف شديد فى ترجمتها، الى حد أن قيل بأن الجاثات غير قابلة للترجمة ، وأيا كان الأمر فبين المترجمين شبه اتفاق على ترجمة أجزائها ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ والاختلاف الشديد فيما عدا ذلك ٠

واليك أيضا جزء من الياسنا الثلاثين ، وهناك شـــبه اتفاق على ترجمتها وهى تصور جانبا هاما من العقيدة ، هو جانب الخير والشر ونظرة الزرادشتية اليهما ، قالت الياسنا الثلاثون :

افتح اذنيك لتسمع أى سلطان هو خير ،
تأمل بصفاء ذهن الطريقين
فبينهما يتحتم على كل امرء أن يختار لنفسه ،
عالما مقدما بما سيتقرر فى أمرنا فى التحكيم العظيم (يوم الحساب) ٠

*

فى البداية الروحان اللذان هما توأمان ،
أحدهما الخير والآخر الشر ،
فى التفكير وفى الكلمة وفى الفعل ٠ وبين هذين
العاقل يحسن الاختيار وليس كذلك الأحمق ٠

*

وعندما يرتد أحد الروحين على الآخر
يقيمان أساس الحياة لا الحياة ،
وفى النهاية تكون أسوا الحال للانذال
ولكن للأخيار ــ الفكر الخير ٠

*

من هذين الروحين يختار الشر لعمل السيئات ،
ولكن الروح القدوس متسربلا بالالهيات الخالدة يكون بجانب العدالة (Justice)
ويعمل آنئذ كل ما من شأنه أن يرضى
الله الحكيم (أهورا مازدا) بالأعمال الخيرة ٠

*

وحيث انه بين هذين ، لن تختار الآلهة الزائفة الخير ،
لأن الخطأ يتملكها وهى تقرر ما تفعل ،
ولذلك تختار الفكر الشرير (Evil Thought) ،
ثم تنطلق موائمة نفسها بالسفه لتضلل به طرائق البشرية ٠

هذه النصوص التى ذكرناها كافية فيما أرى لتوضح أسس العقيدة الزرادشتية ، التى تقوم على اعتبار أن الخير والشر عنصران أساسيان فى

قوام الحياة ، وهما يتمثلان فى كائنين هما من صنع الله (أهورا مازدا) ، ومن هنا نظر اليهما على أنهما علمان ، ولكل منهما سلطان ودائرة عمل ينشط فيها ، فاذا كانت العقيدة الزرادشتية القديمة استعانت على توضيح معالمها بالأفكار الشائعة ، فهى بلا جدال تميل الى توحيد الله ولا تشرك فى حكمه سلطة ، ذلك لأن السلطات الأخرى - أعنى سلطتى الخير أو الفكر الخير - والشر أو الفكر الشرير وغيرهما - مستمدة منه ، وهى تبدو ديانة سماوية بشر بها نبى هو زرادشت (١) ، ولكن التحريف شوه بعض معالمها وأساء اليها ، لأنهـا ظلت قرونا طويلة تنتقل من جيل الى جيل بالرواية الشفوية ، حتى دونت آخر الأمر بعد أن عمل فيها الخيال وما ألف الناس .

حقا ان هـذه العقيدة وجدت لها نصيرا فى أوائل القرن الثالث الميلادى بعد أن قامت الدولة الساسانية فى ايران ، تلك الدولة التى رأت فى انتصارها لهذا الدين ما يدعم ويثبت كيانها ، ولكن هذه العقيدة على الرغم من فوزها بهذا النصير عاشت بين أيدى المجوسـية ، وهؤلاء الى جانب ما نال العقيدة من تشويه أثناء روايتها الشفوية أضافوا اليها شروحا أتت بما يعرف بالزندا فستا ، وهـذه الشروح تأثرت بوجه من الوجوه بالفكر اليونانى الذى انتقل الى فارس بصور مختلفـة منهـا هجرة بعض الاغريق الى هذه البلاد ، ثم تطورت هذه العقيدة بعد ذلك بتـأثير الحكم الاسلامى الذى بسط سلطانه على ايران منذ القرن السابع الميلادى ، ونتج عن ذلك كتب دينية ذات اتجاه يصور هذا التأثير الاسلامى .

ومهما يكن من أمر فان العقيدة الزرادشتية تعيش الآن فى الهند بين طائفة تعرف بالبارسيس (Parsis) والمعروف أن كهنة هذه الطائفة غير ميالين الى الاجتهاد فى عقيدتهم ، الأمر الذى يترتب عليه عاجلا أو آجلا

---

(١) من القصص الدينى الذى حيك حول زرادشت قصة تقول جاءه كبير الملائكة وتاده صاعدا به فى السماء ليمثل بين يدى رب العالمين ، وهنـاك تلقى كلمـات الحق والحقيقة وتعلم أسرار الوحى المقدسة واستمع الى أمر النبوة الى آخر ماقيل فى هـذه القصة ، ويبدو لى أن صياغة القصة يدعو الى الشك وانها متاثرة بالقصص الاسلامى عن الاسراء والمعراج لأنها لاتتفق والفكر الزرادشتى ومن المعروف ان القصص الزرادشتى تأثر بالفكر الاسلامى ، ومن ثم فمن الأرجح ان قصة صعود زرادشت فى السماء حديثة ومصدرها أجنبى لانه لايمكن التسليم علميا بقدم القصة عن الاسلام ، وان زعم من زعم بهذا القدم ، ويعنينى أن ألفت النظر ان التأثر شيء والمماثلة أو المشابهة شيء آخر ، فالقصة متأثرة بالقصص الاسلامى وهى متاخرة ، لان النصوص التى يظن بوثاقتها تخلو منها هذه القصة ومن الاشارة الى موضوعها

الى اجبارهم الى الأخذ بمعالم الحضارة الحديثة وتنسيق الأفكار الدينية مع العقل الحديث ، أو الى ترك المثقفين لهذه العقيدة والانحياز الى عقيدة أخرى تتلاءم مع تطورهم العقلى ٠

خامسا ـ الحكمة الصينية

واذا انتقلنا بعد ذلك الى الصين واجهتنا نصوص ضـــخمة نابعة من حكمة الصين الرائعة ، وهذه الكثرة ناشئة عن الاختــلاف والانقسام فى الرأى وهجرة الثقافات المختلفة ، ولـكن يمكن تجزئتها الى قسمين ، أحدهما الملوك الخمسة والآخر الأربعة شو ٠

والملوك الخمسة يتكون من خمسة أجزاء هى :

١ ــ الملك يه (Yih-King) أو كتاب التغيرات ، وهو كتاب قديم جدا تبدو فيه مظاهر الـكون ٠

٢ ــ الملك شو (Shu-King) أو كتاب التسجيلات ، وهذا الكتاب يتضمن نصوصا قديمة يرجع تاريخها الى سنة ٢٤٠٠ ق٠م وعلى ذلك فهى من أقدم النصوص التى نعرفها ، وهو الى جانب ذلك يتضمن مجموعة من الوثائق التاريخية القديمة ، وسواء صـــحت نســـبة هـذا الكتاب الى كونفوشيس أو لم تصح ففيه نصوص تشير بوضوح الى الاعتقاد فىحكومة فاضلة يهيمن عليها مبعوث الهى كريم ٠

٣ ــ الملك شى (Shi-King) أو كتاب الأناشيد ، وكثير من أناشيد أو أغانى هذا الـكتاب يبدو فيه الطابع الاجتماعى أظهر من الطابع الدينى وهذا ناتج من طابع الصينيين الذين كانوا كالســـومريين الذين كانوا يضعون التراتيل لآلهتهم ، والظاهر أن بعض هذه الأناشيد كانت ترتل عند تقديم القربان العظيم لمذبح السماء(Alter of Heaven) فى بكنـج (Peking) حتى سنة ١٩١١ م ٠

٤ ــ لى كى (Li-Ki) أو كتاب السنن وهو كتاب لا يتصل فحسب بالسنن الدينية بل يتصدى أيضا لتنظيم الحياة المنزلية وما هو مفروض على الأبنـاء ٠

٥ ــ تشن تسيو (Chun Tsiu) أو كتاب أخبار الربيع والخريف وهذه الأخبار تروى أحداث دولة لو (Lu) وهى دولة كونفوشيس وغرض

هذا الكتاب فيما يبدو بيان أهمية الحياة الفاضلة للحكام وأهمية حكومة فاضلة تقيمها السماء على الأرض .

أما القسم الثانى وهو الأربعة شو فذات أربعة مؤلفات هى :

(أ) لون يى (Lun-Yü) وهو كتاب يتضمن ملاحظات كونفوشيس وبعض أعلام تلاميذه ، وهو يسمى عادة بالمنتخبات الأدبية .

(ب) تاهسوه (Ta Hsueh) أو كتاب العلم العظيم .

(جـ) تشونج يونج (Chung-Yung) نظرية القصد .

كلا هذين الكتابين مأخوذان من لى كى ، وهما كتابان تعليميان مبنيان على أساس الاحترام العميق لكونفوشيس وتعاليمه .

(د) نظرية منج تزو (Meng-tzu) أو (Mencius) .

القسم الأول ـ الملوك الخمسة

١ ـ **الملك يه :** هذا الكتاب يقوم على أفكار ترمز الى آراء خلقيـــة وروحية وسياسية والظاهر أنه كان أول الأمر يســـتخدم فى الأغـراض الدينية فحسب ، ويذهب الباحثون الى أنه يمكن ارجاع تاريخه الى سنـة ١٢٠٠ ق.م ، ولكن أضيفت اليه بعض الحواشى التى تنسب الى كونفوشيس والتى جاء بها معاصر له قصد تنقيحه واخراج معانيه ، ونورد لك من هذا الكتاب قطعتين :

(أ) قد تبدو هذه القطعة متأثرة بالفلسفة الرواقية اليونانية القائلة « عش منسجما مع الطبيعة » ولـكن الذى يبعد هذا الظن أن هذه القطعـة اقدم من زينو مؤسس هذه الفلسفة ، فلا سبيل الى الظن بهذا التـأثر ، وهى من الحاشية الرابعة فقرة ٦ وتتحدث عن صفات الرجل المثالى :

« الرجل العظيم هو ذلك الذى يكون فى انسجام بصفاته مع السماء والأرض ، وبتلألئه مع الشمس والقمر ، وبخطواته المنسقة مع الفصول الأربعة ، وبصلته مع ما هو مستحب ومع ما هو مشـئوم ، منسـجما مع شبيه الروح الفعالة (للاله) يسبق السماء فلا تعمل السماء ضده ، يتبع السماء ولا يكون عمله (الا) ما تحمـل فى ذلك الوقت ، واذا لم تعمـل السماء ضده فما أصغر الناس ازاءه ، وما أصغر عمل شبيه الروح ! » .

(ب) والقطعة الثانية من الحاشية الخامسة وهي تتحـدث عن نظرية الايجاد ٠

(يتقدم الاله الى كان (Kan) لقيامه بالعمل) ، فيجعل (خطواته) كاملة ومتكافئة للعمل فى الشمس ، ثم تبدو (الخطوات) الواحدة للأخرى فى لى (Li) ويتم أعظم خـدمة له فى خوان (Khwan) ، فيبتهـج فى توى (Tui) ويـكافـح فى خين (Khien) وهو مرتاح ويدخـل فى الاستقرار فى خان (Khân) ، ويتم (عمله السنوى) فى كان ٠

كل شيء يعد للصدور فى كان ، التى توجد فى الشرق ، (وخطوات الانتاج) تصل الى كمالها وقدرة عملها فى الشمس ، التى توجد فى الجنوب الشرقى ، والاتيان بالتـمام وقدرة العمل يشـيران الى نقاء كل الأشياء وتكافؤ تنظيمها ، ويصدر (لى) فكرة التلألؤ ، فتصبح كل الأشياء آنئذ بادية أحدها فى الآخر ، وهذا هو جرام الجنوب التثليثى ، والحكماء يديرون وجوههم نحو الجنوب عندما يستمعون لكل ما تحت السـماء ، موجهين الحكومة نحو منطقة الضياء ، ومن هنا أخذت فكرة هذا الاجراء ، وخوان هو اشارة الى الأرض (وهى الموضوعة فى الجنوب الغربى) ، وكل الأشياء تأخذ منها غذاءها الكامل ، ومن هنا قيل « أعظم خدمة تتم له فى خوان » ، ويتصل توى (بالغرب و) بالخريف (اشارة) الى الفصل الذى تسـعد فيه كل الأشياء ، ومن هنا قيل « يبتهج فى توى » ٠ وهو يكافح فى خين (Khien) الذى هو جرام الشمال الغربى التثليثى ، والفـكرة هى أن هناك الحالات غير العاملة والعاملة تضرب بعضها بعضاً ، ويشـير خان الى المـاء ، انه الجرام التثليثى للشمال المضبوط ــ جرام الارتياح والراحـة التثليثى الذى اليه تتجه كل الأشياء ، ومن ثم قيل « هو مرتاح ويدخل فى الاستقرار فى خان » ٠ وخان هو جرام الشمال الشرقى التثليثى ، فيه تصل كل الأشياء الى نهـاية تامة لاصدارات (العام) المـاضى ، وتعد بداءات العام القادم ، ومن ثم قيل يتم عمل السنة فى كان) ٠

٢ ــ واليك قطعة من كتاب التسجيلات (الملك شو) ، وهو خطـاب موجه من الملك الى حكام أقاليم مملكته ، وفيه يبين الفساد الذى يجب أن يحارب على أنه خروج على الله : وهو يبين المنحى الأخلاقى للحكام الواجب اتباعه قال : (فى ربيع السنة الثالثة عشر انعقد جمع حافل مع الملك مانج (Mang-King) ، وقال الملك : ايه أيها الحـكام الوارثون لمقاطعـاتى الصديقة ويا جميع ضباطى مديرى أعمالى افقهوا بوضوح تصريحى :

السماء والأرض أبوا كل المخلوقات ، ومن بين جميع المخلوقات أن

الانسان أعظمها جميعا موهبة ، وأخلصهم ذكاء يصبح السيد العظيم ، والسيد العظيم هو أب الشعب ، ولكن شاءو ــ ملك شانج ــ لا يجل السماء العلى ، ويوقع المصائب بشعبه على الأرض ، وبانغماسه فى الشراب وتهالكه على الشهوات جعلاه يقدم على اضطهادات عنيفة ، وتجاوز بعقابه العاصين الى أقاربهم ، أقام الناس فى المناصب على قاعدة التوريث ، جعلها همه لاقتناء القصور والأبراج والخيام والجسور والبرك وكل ألوان البذخ الى أقصى حد يؤذيكم ويؤذى الآلاف من الناس ، لقد أحرق وشوه الاخلاص والخير ، لقد شق بطون الحبالى ، فتحرك الملكوت العظيم ساخطا وعهد الى والدى المريض ــ وان ــ لينزل به نقمه ، ولكنه (مات) قبل أن يتم العمل .

على ضوء هذا البيان تأملت ــ أنا ، فا (Fâ) الولد الصغير ــ بكم ، أيها الحكام الوارثون لمقاطعاتى الصديقة ، فى حكومة شانج ، ولكن شاءو ليس له قلب يندم ، انه يقعد القرفصاء لا يخدم الله ولا أرواح السماء والأرض ، غافلا أيضا عن معبد آبائه ، وعن تقديم القرابين فيه ، صارت الضحايا ومخازن الذرة نهبا للصوص الأشرار ومع ذلك لا يزال يقول : « الشعب شعبى والتعيين (الالهى) هو لى » ، غير محاول اطلاقا تصحيح عقله الحقير .

من أجل رعاية ضعفاء الشعب جعلت السماء حكاما لهم ، وجعلت لهم الموجهين ، حتى يكونوا قادرين على معاونة الله واقامة الطمأنينة فى أرجاء (المملكة) الأربعة ، ووفقا لتقدير من يعد مجرما ومن هو على خلافه كم أكون جريئا أن أطلق السبيل لرغباتى ؟

اذا تساوت القوة فقارن بين قدرة الأطراف أما اذا تساوت الفضيلة فقارن بين فضائلهم ، ان شاءو لديه مئات الألوف والآلاف من الضباط ولكنهم ذوو مئات الألوف والآلاف من العقول ، وليس لدى سوى ثلاثة آلاف ضابط ولكنهم ذوو عقل واحد ، ان ظلم شانج بلغ المدى وتأمر السماء بالقضاء عليه ، فاذا لم أطع السماء كان جرمى عظيما .

أنا ــ الولد الصغير ــ تملؤنى الخشية ، تلقيت أمر والدى المريض ــ وان ، وقدمت قربانا خاصا للرب ، وأديت الصلوات الواجبة نحو الأرض العظيمة ، ثم انى أقود جموعكم لتنفيذ العقاب المعين من الرب ، والسماء رحيمة بالناس ، وما يرغب فيه الناس تجد السماء تقدر له النفاذ ، فهل تعاونوننى كالرجل الواحد لتطهير البحار الأربعة الى الأبد ، ولقد آن الأوان فلا ينبغى أن يفوتنا) .

٣ ــ شى كنج أو كتاب الأناشيد : ومن أهم ما يتضمن هذا الـكتاب الأناشيد التى ألفها الصينيون لعبادتهم ولأمورهم الدينيــة ، وأهمهـــا الأناشيد المتصلة بالقربان العظيم الذى يقدم لمذبح السماء فى حفل دينى ، وهذا الحفل الدينى الهام الذى يقدم فيه القربان ــ ذلك القــربان الــذى يعرف بكياءو أو قربان الشتاء ــ ظلت الأجيال تتوارث الاحتفال به جيلا بعد جيل حتى سنة ١٩١٠ م ، أى الى قيام الثــورة التى أعلنت الجمهورية الصينية،واليك مانقله الأستاذ يوكبه عن هذا الحفل الدينى العظيم قال :

(ان المذبح هو ــ فيما يقال ــ أعظم مذبح صنعه الانسان الى اليوم ، يتكون من ثلاث شرفات ترتكز الواحدة على الأخرى ، وأعلاها يبلغ قطرها تسعين قدما والوسطى قطرها مائة وخمسون قدما ، والثالثة وهى الأدنى مائتان وعشر أقدام ، ومن المحتمل أن كان المذبح القديم المقام فى أزمان ما قبل التاريخ كتلة من طين ، والمظنون أنه أقيمت به الصلوات من سنة ٢٥٠٠ق٠م ، وفى مكانه أقيم مذبح من الرخام سنة ١٤٢٠ م ، على أن المعبد الذى يراه السائح اليوم يقال انه بنى فى منتصف القرن التاسع عشر ، وهو بوضعه الحالى ذو جمال رائع ، فرخامه يتلألأ بياضا ، وكل شرفة فيه محاطة بحاجز (درابزين) منحوت ، وعلى جوانب الشرفات ما لا يقل عن ثلاثمائة وستين لوحة ، وفى كل جهة من الجهات الأصلية سلم ذات سبــع وعشرين درجة ، كل تسع درجات منها توصل الى شرفة ، وحول المذبح كله فناء دائرى قطره ثلاثمائة وخمس وثلاثون قدما ، يسوره جدار صغير مزين بالطوب الأزرق ، وفى كل جهة من الجهات الأصلية فتحة ذات ثلاثة أبواب ، وجميع المعبد محاط بفناء مربع ، كل ضلع من أضــلاعه طوله تسع وأربعون وخمسمائة قدم ، يسوره جدار ذو حمرة بومبية كئيبة ٠

وأثاث هذا المعبد كثيرة يتضمن عددا من المصابيح موضوعة على قوائم وفرنا كبيرا من الطوب الأخضر لحرق الحيوان المضحى به ، ومناضد مختلفة من ذوات الأرجل الثلاث ،لتوضع عليها الهبات وقنانى الخمر ، وخزانة لخزن الأشياء المهداة ، وحجرة ملابس ليرتدى فيها الامبراطور ثوبه ، وكذلك مختلف المنابر لكبار الرسميين وكبار الكهنة ، وأماكن للمرتلين وأماكن للحرس الامبراطورى ٠ وترتيب الحفل الدينى مثيل تماما لترتيب أىحفل تتويج حديث ، والنظام يشبه من بعض الوجوه نظام القداس البــابوى للعشاء الربانى ، وهو مجرد اتفاق لأنه ليس هناك من سبب لافتراض تأثره بالنظام الجزويتى ، ومنصة المذبح بنيت بدقة فائقة تتفق مع نظرية توزيع الصوت ، ذلك لأنه يقال ان الصوت البشرى يسمع فى المعبد كله ،

والمكان من الروعة ـ رغم أنه في حالة اهمال ـ الى حد أن قيل أن مبشراً أمريكيا كان يزوره منذ بضع سنين فخلع حذاءه من قدميه تلقائيا ٠

كان الاعلان بتقديم القربان القادم يذاع باعـلان امبراطورى ، وتتم الترتيبات تحت اشراف المجلس الكهنوتى ، ويحدد مجلس التنجيم التاريخ المعين له ، وتحدد قبل موعده فترة التنسك لجميع الرجال الرسميين ، وفى هذه الأيام الخمسة السابقة لموعد الحفل يقوم أمير من الأسرة الامبراطورية بفحص الضحايا المقدمة قرابين للتأكد من سلامتها ، ويؤلف مقدما النشيد الذى يتلوه الامبراطور منقوشا على لوحة خاصة ٠

وفى اليوم السابق ليوم القربان يقام عرض فخم يتقدم الى ساحـة المعبد ، تتمثل فيه ـ كما يقول هودس (Hodus) خلاصة الأسـاطير والتـاريخ الدينى للشـعب الصينى ، الامبراطور فيـه ـ على اعتبار أنه الـكاهن ـ الشخصية الرئيسيـة ، يحيط به الحرس والموسيقيون والراقصون والقواد وأصحاب الأعلام والمظلات والرياش والريش ، فالمشهد ـ فيما يبدو ـ منظر ذو بهاء عظيم وجمال ، وفى الليل يظل الامبراطور ساهرا وصائما بينما يقوم رئيس كهنة القربان ومساعدوه بتنظيم مختلف الأشياء ، ويضاء مصباح ذهبى ، ويكوم الخشب بعضه فوق بعض لحرق الضحية ، وتوضع على منضد مستقرة أجسام الحيوان المضحى بها (التى نحرت منذ أربع وعشرين ساعة والتى ووريت دماؤها) ، وقبل مشرق الشمس بساعة وثلاث أرباع الساعة يتخذ الامبراطور وحاشيته أماكنهم وكذلك جماعة الموسيقيين المؤلفة من ثلاثمائة موسيقى والمـائة والثمانون الذين يقومون بالرقص المقـدس وحملة المباخر وحمـلة الحرير والخمر والوسائد ، وكذلك المراقبون أو المشرفون على الاحتفالات المناط بهم مراقبة ألا تقع أخطاء فى أداء الشعائر ، وكذلك أعضاء أسرة الامبراطور ٠

تبدأ الاجراءات بقيام الامبراطور بالغسل المقدس الذى فى أثنـائه تنشد ترتيلة مزمارية ، ثم توقد الأخشاب بعد ذلك فيشوى الثور المضحى به ، ثم يوجه الامبراطور الى الشرفة العليا ويقدم له البخور ، ثم يقدم بعد ذلك قربان الزمرد والحرير ولحم الضحية مع الحساء المصنوع منها ، ثم تسكب القربة ذات الثنيـات الثلاث ويؤتى بكأس خمر يقدم للامبراطور وأخيرا يوجه الامبراطور الى المنضدة الموضوعة عليها لوحة الصلاة وتنشد صلاة لرخاء الدولة أثناء العام ، وبعد ذلك يقدم قربان الخمر مرة أخرى ، ويقوم الزامرون ذوو الريش برقصة مقدسة ، ثم يوجه الامبراطور بعد ذلك الى منضدة أمام لوحة عليها رمز الرب الأعلى ـ شـانج تى (Shang-ti)

ثم يحرقون نوعا معينا من الطعام والشراب المقدسين ، وكل ما تبقى من القرابين تؤخذ بوقار فتحرق فى الفرن ، وأخيرا يعلن المنادى ـ الذى كان يعلن عن كل مرحلة من مراحل الحفل فى دورها ـ انتهاء الصلوات .

وفى أثناء هذا القداس الطويل الرائع تلقى من الأناشيد ما يبلغ من الكثرة الى عشرة ، أقدم منها بعد أربعـــة ، ومن المظنون أن مجموعة الأناشيد يرجع تاريخها فى صورتها الحـــاضرة الى حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، ولكن المادة التى تتضمنها الأناشيد هى فيما يرى الأستاذ تشن توكو (Chen Tu-Ku) قديمة جدا، ومثيلة لما فى كتاب الأناشيد احتفظ بها بتعصب دينى نموذجى ، دون أن تمس منذ العصـور المبكرة للحضارة الصينية .

والأناشيد المقدمة هنا هى على الترتيب (١) مزمار (٢) وأنشودتان واحدة قبل الرقص وواحدة بعده (٣) وأنشودة أثناء حرق الضحايا قرب اختتام القداس ، ولما يقال أحيانا أن القداس عند مذبح (Alter of Heaven) يعتمد على التوحيد ، فانه من الهام أن نلاحظ أنه على الرغم من أن شانج تى هو مركز العبادة ـ على اعتبار أنه اله السماء الأعلى وأنه ذو صفـــات شبيهة بتلك التى ليهوه اله اليهود (Hebrew Yahweh) الا أن كثيرا من شن (Shen) أو صغار الآلهة ـ تكون مرتبطة معه وهو ينادى ليحضر .
(ولئن كان تقديم الضحية قد توقف بعد سنة ١٩١١ م فان يؤان شـــه كائى فى سنة ١٩١٥ م قد أحياه من حيث الشكل ، وفى هذه المرة أخذت لجانب منه صورة فوتوغرافية ، تبين المنضدة وعليها الثور معداً لشيه كله . وأنا واثق ان مثل هذا الخروج الدينى ما كان يســـمح به فى العصور الامبراطورية) .

١ ـ فى أثناء الغسل المقدس تنشد الترتيلة الآتية على أنها مزمار :

باجلال نتلقى بركات السماء ،
كم هى تتلألأ فى روعة ،
الدولة فى سلام من أبعد الآماد ،
والشعب بين البحار الأربعة فى اتحاد ،
نقدم مخلصين قربانا عظيما :
خضوعا لأحكام الاثنتى عشرة منضدة ننسق الأنواء ،
وسيمنح حكم السماء عديم النظير نعمة نعماء ،
وستنظر السماء الى نفسى الوضيعة بعطف ،

وسأنظر الى الكرم السامي بتقدير عميق ،
متمنيا أن أعان للوصول بأفعال السماء الى التمام
لقد أعددنا الضحايا مرتبة ،
وبالنهار وبالليل نبدى رغباتنا للسماء ،
تنتظر عرباتنا كالسحب زمنا طويلا ،
الخيول والعربات تملأ الفضاء بأعداد كبيرة ،
الأعلام الزرقاء ترفرف فى الهواء بانتظام عظيم ،
يقفون منتظمين فى صفوف لا عداد لها ،
وبخشوع تبدأ مشاعرنا تتلاءم مع الفرح ،
وتنظر باجلال نحو القبة الزرقاء ،
وأنتم أيتها الأرواح المائة ، تعطفوا بمنح حمايتكم
للحكام الذين يطهرون أنفسهم ،
وأنتم يا شن ، تعالوا الى المأدبة واستمتعوا
شانج تى بصير .
وهم جميعا يتلألأون بالرحمة والعطف
ويعطفون من بعد على فضائلى .

وبعد تلاوة النشيد المعد خصيصا لهذه المناسبة ، توضع اللوحة المسطور عليها النشيد فى سلة أمام لوحة شانج تى ثم ينحنى المنشد وينسحب ، وبعد ذلك يذهب الامبراطور الى الشرفة الثانية ويقدم القرابين للوحات الآلهة الصغار ، وبعد ذلك يعلن المنادى عن القربان الثانى للخمر فيوجه الامبراطور الى الشرفة العليا ، وأثناء سيره تنشد ترتيلة ويقوم الزامرون برقصة مقدسة ، ويقول الأستاذ جيلز (Giles) أن الرقص وكذلك الموسيقى دخلا عن طريق النماذج البختية الاغريقية ، والنشيد السابق للرقص والخمر هو كما يأتى :

دقوا الأجراس ، وابدأوا الحركات ،
قدموا مرة ثانية كأس الخمر الدرى ،
وباجلال عميق نظهر قداستنا ،
كى نأتى باجلال قرباننا ،
بالوجه صاف والمحيا فى طلاقة ،
الى منضدة السماء الزرقاء المتلألأة الممجدة .
بهدوء وبابتهاج تشارك السماء فى رائحة القربان ،
بينما تتدفق الأبخرة المطربة كالمحيط .
كل الناس يترقبون البركة .

يتطلعون باجلال الى قبة السماء الدرية ٠
واليبنوع الممجد والندى المبارك
سيأتى بالنفع دون مقابل ٠
وبعد الرقص وقبل قربان الكأس الثالثة للخمر ينشد الآتى :
آه القربان الأخير !
النقاء هو كأس الزمرد ٠
باجلال نقدم خمر الأذرة ٠
نأتى بالحساء الموسمى ٠
تغنى حجارة الزمرد والمزمار : تسيانج تسيانج (tsiang tsang)
القربان مستوف تماما ٠
الخمر الطيبة تتدفق ٠
لا تتوقف حتى يتم غرضك
ارادة السماء الواضحة يجب النظر اليها وفحصها
وبعدئذ تبارك السماء جموع الكائنات الحية ٠
تسعى التنانين الثمانية
كل آلات الموسيقى تلعب فى اتساق ٠

وبعد قربان الخمر هذا يستقبل الامبراطور مايسمى « لحم النعمة » وهذا الطعام المقدس كان يوضع على منضدة أمام لوحة شانج تى ، وكان الامبراطور يوجه اليه بوقار ثم يعطيه حبران مقدسان قطعا يأكلها بالانحناءات المعتادة ٠ وفى أثناء الشى كان ينشد مايلى :

من أجل النعمة العظيمة من السماء أحضر القرابين الجليلة ،
يذهب لهيب القربان فيعلن للسماء ،
الواحد المقدس وحده ، قادر على تقبل القربان ٠
يجلس رب السماء فى عربة يجرها ستة تنانين ٠
ترتقى على الأبخرة الأرجوانية

أرجو أن أحتفظ طويلا بقانون السماء وأبسط حكم الامبراطور

وينهى بوكيه حديثه المفصل عن وصف هذا القداس الدينى الكبير ، الذى كان الصينيون فى عصورهم القديمة المختلفة يعدون له كل اعداد ليأتى رائعا ومهيبا ، والذين كانوا يحتفظون بتقاليده الموروثة بتعصب

شديد ، احتفاظا جعل الباحثين يقنعون بايراد هذا الوصف على أنه تقليد دينى عرفته الحياة الدينية على مختلف أزمانها ، ينهى بوكيه هذا الحديث الطلى بايراد قصيدة قديمة كان ينشدها ملك شـاءو الشاب وهى قداس دينى آخر قصير ، الأمر الذى يدلل على أنها قديمة ومتوارثة • وترجمة هذه القصيدة مختلف عليها ، وإليك ترجمتين لها :

ترجمة ولهلم بالألمانية وهو عالم أمريكى

كرمه ، كرمه ،
الالـه الظاهر •
ارادته صلبة •
لا تقل : انه مرتفع جدا وبعيد ،
هو يصعد وينزل سابحا ،
ويوميا يرى أفعالنا •
أنا لا أزال صغيرا ،
طائشا غير مجرب ،
ولـكن يوما بعد يوم ،
أجتهد فى الرقى نحو ضوء الحكمة
أعنى لاحتمال العبء
أرنى وحى الحياة •

ترجمة القصيدة نفسها لليجى (Legge)

اجعلنى وقورا ، اجعلنى وقورا (فى قيامى بواجباتى)
(طريق) السماء واضحة ،
وتحديداتها غير هين الاحتفاظ بها •
لا تجعلنى أقول انها مرتفعة جدا وبعيدة عنى •
انها تصعد وتنزل نحو أفعالنا ،
تراقبنا يوميا حيثما نكون ،
لست الا كطفل صغير ،
بغير نباهة حتى أحترم (بتيقظ واجباتى) •
سأتعلم القبض بقوة على وميض المعرفة
حتى أصل الى النباهة المنيرة •
أعنى لاحتمال عبء منصبى
وأرنى كيف أظهر بسلوك فاضل •

ومثل هذا الاختلاف واضح نتيجة لقدم اللغة المترجم عنها وضياع الخصائص التى تحدد معالمها ، ومن ثم فالترجمة عن اللغات القديمة تقوم على قدرة المترجم · والترجيح بين ترجمة وأخرى لابد فيه من معرفة استعمالات اللغة والفقه بها تبعا بهذا الدين ، وعلى ذلك يكفينا فى هذا العرض ما يبين الدين ·

ومن هذه النصوص يتبين أن الصين يعتقدون فى آلهة متعددة على انهم ينظرون الى واحد منها على أنه أعظمها جميعا يمنحهم البركة ويجتهد المرء منهم فى ارضائهم بسلوكه الطيب ، وبرضائه عنه يكون منسجما مع الطبيعة ، هذا الاله هو السماء (Heaven) أما غيره فآلهة صغرى وليس لها سلطان السماء ·

٤ ــ كتاب لى كى وهو سفر يعنى فى المقام الأول بالمراسم الدينية وتقاليدها ، وخاصة فيما يتصل بمعبد شن (Shen) ، ويتضمن الى جانب ذلك توجيهات لاحترام الآباء التى تعد من الواجبات الدينية ، كما يحث أصحاب العقيدة على تقديم القرابين باعتقاد أن القربان أعظم أهمية من الطقوس الدينية ، ونقدم على سبيل التمثيل قطعة من هذا الكتاب تتصدى للتوجيه الخلقى :

الأبناء ــ وهم فى خدمة آبائهم ــ يجب عليهم جميعا ، عند أول صيحة للديك ــ أن يغسلوا أيديهم ويمضمضوا أفواههم ، ويرتبوا شعورهم ، ويضعوا فوقه عصابة الحرير ، مثبتين هذه بدبوس الشعر ، عاقدين الشعر عند جذوره بالشريط ، نافضين التراب من الشعر المطلق ثم يجب أن يلبسوا أغطية رؤوسهم تاركين نهاية خيوطها مدلاة ، ثم يجب أن يلبسوا ستراتهم السوداء ذات المربعات وأغطية الركب ، والأحزمة مثبتين فى النهاية قرصيها ، فى الجانب الأيسر ، والأيمن من الحزام يجب أن يعلقوا أشياءهم للعمل ــ ففى الجانب الأيسر الطلاسة والمنديل والسكين وحجر المسن والمسمار الصغير والمرآة المعدنية لاشعال النار بالشمس ، وفى الجانب الأيمن قمع النبال للابهام والسوار وأنبوبة أدوات الكتابة وجراب السكين والمسمار الكبير والزند لاشعال النار فى الخشب ، ويجب أن يلبسوا طماقاتهم (توزلكهم) ويوثقوا أربطة أحذيتهم ·

ويجب على زوجات الأبناء أن يخدمن آباء أزواجهن كما يخدمن أنفسهن ، وعند أول صيحة للديك يجب أن يغسلن أيديهن ، ويمضمضن أفواههن ، ويرتبن شعورهن ، ويضعن عليه عصابة الحرير ، مثبتات هذه بدبوس الشعر ، ويعقدن الشعر عند جذوره بالشريط ، ثم يجب أن

يلبسن إلسترة وفوقها الحزام (sash) ، وفى الجانب الأيسر يجب أن يعلقن الطلاسة والمنديل والسكين وحجر المسن ، والمسمار الصغير والمرآة المعدنية لاشعال النار وتوضع جميعا فى الحقيبة ، والمسمار الكبير والزند لاشعال النار فى الخشب ، ويجب عليهن أن يربطن عقودهن ويوثقن أربطة أحذيتهن ، وبعد اللباس يجب أن يذهبن الى آبائهن وآباء أزواجهن ، وعند وصولهن الى حيث يوجدون يجب أن يسألن ــ بصوت خفيض ونغمة رقيقة ــ عما اذا كانت ملابسهم دافئة أو باردة ، وعما اذا كانوا مرضى أو متوجعين أو غير مرتاحين فى أية ناحية من النواحى ، فاذا كانوا كذلك يجب أن يتقدمن بتجلة فيهيئن المكان لراحتهم ، وبنفس الطريقة يجب ــ فى السبق أو الاتباع ــ أن يساعدن ويعاون آباءهن على الخروج والدخول ، وفى احضار الطست لهم للاغتسال تحمله الصغرى وتحمل الكبرى الماء ، ويرجون منهم أن يسمحوا بصب المـاء ، وعندما ينتهى الاغتسال يناولنهم المنشفة ، ثم يسألن عما اذا كانوا يريدون شيئا وبعدئذ يحضرنه باحترام كل ذلك يقمن به بمظاهر السرور حتى يشعر آباؤهن بالارتياح ، (ويجب أن يهيئن) عصيدة كثيفة أو رقيقة والمشروبات الروحية أو حساء بالخضر وفولا وقمحا وسبانخ وأرزا وأذرة عويجة وأذرة شامية وبليلة (يحضرن) فى الواقع ما يرغبون فيه مع صحون الحلوى بتمر وأبى فروة وسكر وعسل مع البنفسج بالورق العادى أو العريض وأوراق أشجار الدردار جافا أو رطبا وأرطب ماء أرز لالانتها ، ومع شـحم وزيت لتزيدها دسامة ، وبعد أن يتأكد الآباء من تذوقها ينصرف الشباب بعد فعلهم هذا ٠

٥ ــ تشن تسيو ــ أخبار الربيع والخريف ٠ من المظنون أن هـذا الكتاب من وضع كونفوشيس نفسه ، وهو يقص أحداث ولايته ــ مقاطعة لو (Lu) ، ولكن على الرغم من أن أسلوبه إسـلوب قص وأن القارىء العادى لا يرى فيه الا أحداثا تسرد فان الباحث المتخصص يرى فى قولة كونفوشيوس ما وراءها من أهداف ، ومعنى هذا فيما يرى العلمـاء أن المؤلف أودع كتابه بطريق خفى أحكاما خلقية ودينية تبـدو وراء النص لا يخطئها البصير به ، والمثال لذلك أنه يقول فى موضع « قتل شـعب وئى (Wei) تشبويو (Chou Yu) ، وفى موضع آخر يقول « قتل شـانج تشن (Shang Chen) ولى عهد تشوأميره»، والنص الأول يصور أن القتل جاء نتيجة جزاء عادل لحاكم يتمثل فى سلطانه الجور والقسوة ، أما النص الثانى فيصور أن القتل جاء نتيجة نزعة طاغية ومطامع ذاتية فى سبيل الحصول على الحكم ، ومن ثم فهذا الكتاب شبيه بما يعرف بكتب الملوك فى اليهودية ، هو تصوير لجانب من التاريخ قام به من يعتقد فيه أنه « أعلى

فرد يحكم على شئون الناس » ، ويكفى هذا المثال تصويرا لهذا الكتاب ومضمونه .

القسم الثانى

١ ــ كتاب لون يى (Lun-Yü) المعروف بالمنتخبات : ان ترجمة هذا الكتاب كغيره من النصوص القديمة عسيرة ، ويختلف المترجمون فيها لأسباب كثيرة عرضنا لبعضها فيما سبق ، ونضرب لذلك مثالا مأخوذا من هذا الكتاب ، فالأستاذ ادواردز (Edwards) يترجم منه نصا فيقول : « اذا تبينت لك الحقيقة فى الصباح فقد تموت فى المساء دون أسى » ويخالفه الأستاذ هيوجز (Hughes) على أساس أن هذه الترجمة لا تتفق والجو الفكرى الذى يشيع عند كونفوشيوس ، ويرى ترجمة هذا النص على الوجه الآتى : « فى الصباح السماع عن السبيل (Way) ، وفى المساء الموت أى خطأ فى هذا ؟ » ويبدو أن بلاغة كونفوشيوس زادت أمر الترجمة تعقيدا ــ ومهما يكن من أمر فاليك بعض أقوال منسوبة لكونفوشيس قال السيد : المرء ذو المنبت السليم يضع قلبه فى القوة الروحية فى نفسه والمرء بغير منبت يضع قلبه فى الأرض .

قال السيد : انحنى المرء للخدمة العامة فاذا كان انسانا ذا قلب انسانى فلا مناسبة من المناسبات تجعله يعيش على حساب قلبه الانسانى وهناك مناسبات يجعل فيها حياته تنثنى ليحتفظ بقلبه الانسانى(١) .

سأل وانج سن تشيه (Wang-Sun Chia) عما تأتى من القول : التأدب مع روح فرن المطبخ خير من التأدب مع أرواح الضريح ، فقال السيد : انه غير صحيح ، فالانسان الذى يعصى السماء ليس له مكان يمكنه فيه أن يصلى . سأل تشنج (Chung) عن القلب الانسانى فقال السيد : فى العلن اسلك كما لو كنت فى حضرة ضيف محترم ، وهيىء للناس أمورهم العامة كما لو كنت تهيىء لقربان عظيم ، والمعاملة التى

---

(١) كلمة القلب الانسانى المذكورة فى هذا النص ترجمة لكلمة (jên) الصينية ، وهو تعبير عام ، يقول بوكيه انه يقابل أحيانا التعبير اليونانى (agapê) وهذه الكلمة ترجمت فى النص الانجليزى للعهد الجديد بالصدقة (charity) ويترجم هيوجز هذه الكلمة (jên) « man to man-ess » أى الانسان للانسانية ، ويترجمها غيره بالاحسان (benevolence) ، وخلاصة القول أن المترجمين يختلفون فى المعنى المقصود لهذه الكلمة ، وقس على هذا الكثير .

لا ترضاها لنفسك لا تقدمها للغير ، وبذلك لن يكون هناك حنق عليك فى الولاية ولا حنق فى قبيلتك ٠

بين المثقفين حقا لا وجود لفوارق طبقية (وترجم هذا النص أيضا : حيث وجد التعليم فلا وجود لفوارق طبقية) ٠ قد يؤخذ قائد جيش عظيم الى الأسر ولكن أوضع رجل فى شعبه له ارادة لا تحمله أبدا على التسليم : المهذب (الأمير (Chüntzû) المتأمل فى العالم متحرر من أهوائه وأحقاده الطائشة ، ويؤيد ما هو حق ٠ الرجل ذو الشرف يجعل المطالب على نفسه والرجل بغير حس الشرف يجعل المطالب على الغير ٠

واليك أقوالا أخرى منسوبة لحكيم الصين كونفوشيس تختلف نغمتها عن نغمة الأقوال السابقة :

سأل تزوكنج (Tzu Kûng) عما اذا كان الرجال ذوو الشرف يكرهون أيضا فقال السيد : يفعلون ، يكرهون أولئك الذين يذيعون فى الخارج سوءات الغير من الناس ، يكرهون أولئك الأجلاف الذين يفترون على من فوقهم ، يمقتون أولئك الذين لهم جسارة فى العمل وليس لديهم فكرة ذات صورة طيبة ، يكرهون العاتين والمانعين ٠

قال السيد : كن موثوقا به فى كل شأن ، وتفان فى طلب العلم ، وأقدم على الموت من أجل الخير (Good) ولا تأخذ فى مجال يجرى نحو المسالك الخطرة ، ولا تعش فى حى حيث يكون الناس فى ثورة ٠ اذا كان الطريق (way) يسود فى المقاطعات فانك تستطيع أن تجعل من نفسك نابها ٠ فاذا لم يسد فلذ بالاعتزال ، واذا ساد فى منطقتك فمن الخطل أن تكون فقيرا ومغمورا ، واذا لم يسد فمن الخطل أن تكون غنيا ورفيعا ٠

وأخيرا قال السيد : الناس ذوو المنابت الصحيحة فى انسجام مع الناس وان كانوا لا يتفقون معهم ، والناس من غير المنابت يتفقون مع الناس وان كانوا فى غير انسجام معهم ٠

(ب) ، (جـ) أما كتاب العلم العظيم فلا يعنينا فى هذا العرض ، وقد سبق أن ذكرنا أنه مأخوذ من كتاب لى كى ، ولقد ذكرنا نصوصا من الكتاب الأصيل تغنى وتبين موضوع الكتاب ٠

ولا نستطيع أن ننتقل الى موضوع آخر دون أن نشير الى نظرية الوسط ، تلك النظرية التى وضعت عقيدة كونفوشيس فى قالب فلسفى ٠

نظرية الوسط (The Doctrine of the Mean) :

تذهب هذه النظرية الى أن ارادة الله فينا هي ما تسمى طبيعتنا ، أما الذى يوجه طبيعتنا فهو ما يسمى بالطريق ، والذى يجعل الطريق ممكنا هو التعليم ، ويجب على الفرد ألا يحيد عن هذا الطريق أية لحظة ، وأى شيء يمكن أن يتخلى عنه المرء فهو من غير الطريق .

ولهذا السبب فالانسان السامى هو حريص ويقظ ولو لم يكن يرى شيئا ، وهو خائف ومنتفض ولو لم يسمع شـيئا ، لا شيء أعظم قابليـة للكشف من المخفى ، ولا شيء أقوى من المجهول ، ولذلك يحرص الانسان على مراقبة أشد آرائه خفاء . فى النقطة حيث لم تظهر بعد المشاعر باللذة أو بالسخط ، بالحزن أو بالفرح ، فى هذه النقطة تـكون جرثومة كياننـا الروحى ، وحيثما تبدو هذه المشاعر وتثير كلها الاتساق الصحيح ، فى هذه النقطة تكون حالة الانسجام ، وتلك الجرثومة الروحية هى الأصـل العظيم للـكيان كله ، وهذا الانسجام هو الطريق الوحيد فى العالم الذى يؤدى الى الهدف ، واذا تحققت الجرثومة الروحية وحالة الانسجام كانت السماء والأرض فى انتظام ، وتطورت كل الكائنات(١) .

(د) نظرية منشيس (Mencius) أو منج كو (Mengko)

عاش صاحب هذه النظرية فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان رجلا من الطبقة العليا ومن أشد المتفانين فى حب كونفشيس ، واشتهر بأبحاثه النفسية للمشاكل الخلقية ، وطبق نظرية الوسط على الأخـلاق ، ونظرته فيما يقول الباحثون تذكرنا بنظرية بوذا فى الطريق الوسط (Middle way) ونظرة منشيس تشابه نظرة أرسطو فى الأخلاق القائمة على التناسـب السليم بين الطرفين باعتبار أنه سر السلوك الطيب ، هذا وقد أعلن منج كو (منشيس) قوله بالخيرية الأصيلة فى الطبيعة البشرية ، واليـك بعض أقواله فى الأخلاق مأخوذة من كتابه المنسوب له :

قال كنج تو (Kung Tu) يقول السيد كاءو (Kao) ان طبيعة الناس ليست بخيرة ولا بشريرة بينما هناك من يقول ان بعض الناس ذوو طبيعة خيرة وبعضهم ذوو طبيعة شريرة ، وهأنتذا يا منج تقول ان طبيعة الناس خيرة ، فاذا كان هذا هو الأمر فهل أخطأ جميع مخالفيك ؟

---

(١) ولد كونفوشيس ــ فيما يقال ــ سنة ٥٥١ ق.م وتوفى سنة ٤٧٨ ق.م ، وعاش بين قومه يحاول اصلاح اخطائهم والقضاء على علل الفساد ، ووجه جل عنايته للتعليم لانه فى نظره وسيلة المعرفة الحقة وسبيل الحياة السعيدة .

أجاب السيد منج : من حيث الحقائق من الممكن أن يكون الناس أخيارا ، وهذا ما أعنى بقولى ان طبيعة الناس خيرة ، فاذا أصبحوا أشرارا فليس ذلك خطأ قواهم الطبيعية ، ولذلك فلكل الناس احساس بالرحمة وكذلك احساس بالخجل من النذالة ، واحساس بالاجلال ، واحساس بالصواب والخطأ ، واحساس الرحمة يتمثل فى آداب الفرد ، واحساس الخجل فى الآداب العامة ، واحساس الاجلال نحو متاع المقدسات ، واحساس الصواب والخطأ فى الحكمة ، وهذه الأربعة لا نتلقنها من الخارج ، ونحن نتفاوت فى حظنا منها دون كسب لها • قال السيد منج : أولئك الذين تعمل عقولهم بكل قوتها يصلون الى فهم الطبيعة التى بها ولدوا ، فاذا ما فهموها فهموا السماء ، فتبقى عقولهم حية ، وتتغذى طبيعتهم وبذلك يعبدون السماء •

أما نظرة منج فى صلة الانسان بربه فيمكن أن نتبينها من قوله :

قال السيد منج : أتى شن (Shun) وقد كان فلاحا ، واستدعى فو يوئه (Fu Yueh) للخدمة من بناء الجدران ، وتشياءو كو من تمليح السمك ، وكوان يى وو من السجن ، وسن شو أو من البحر ، وبائى لى هسى من السوق • والواقع أنالسماء حينما تريد وضع مسئولية كبرى على الانسان من المؤكد أنها أولا تنظم نواياه بالمعاناة ، وعظامه وعضلاته بالعمل البدنى لتجييع أعضاءه ولحمه وتفرغ ذات نفسه ، محدثة الارتباك فى كل مشروعاته ، وبعدئذ تنير عقله وتصلب طبيعته وتطيب عجزه ، ومن عادة الناس أن يقعوا فى الأخطاء قبل أن يصلوا الى الصلاح ، وأن ينتابهم الاضطراب فى العقل والاختلاط فى الفكر قبل أن يصلوا اليها ، ولولا الأسرات غير الشرعية والضباط الطغاة فى الداخل والدول المعادية والمطامع فى الخارج لأصاب الدول الدمار دائما ، ومن هنا نعرف أن الحياة متصلة بالأسى والكرب والموت متصل بالسلام والسرور •

قال السيد منج : أولئك الذين تعمل عقولهم بكل قواها يصلون الى فهم طبيعتهم الفطرية ، فاذا فهموا طبيعتهم فهموا السماء ، يحتفظون بعقولهم حية ويغذون طبيعتهم ، وبذلك يعبدون السماء ، والموت غير الموقوت والعمر الطويل ليسا بشيئين مختلفين بالنسبة لهم لأنهم يهيئون أنفسهم كما لو كانوا فى انتظار الأمر ، ولذلك فهم يتخذون موقفهم مع القدر •• لا وجود لشىء لا يقع عليه القدر ، وعلى ذلك فتقبل بخضوع مصيرك الحق ، ومن ثم فالمرء الذى يدرك القدر لا يقف تحت جدار معلق ، وموت المرء للثقة التامة فى مبادئه قدر حق ، والموت لأن المرء مجرم فى أغلال ليس بقدر حق •

ومو (Mo) هــذا أو مــوتى (Moti) ولد فيمــا يظن بعد كونفوشيس ، ومن ثم فهو من أقدم رجال الدين الذين وصلتنا نصوصهم، أتى للصينيين بعقيدة دينية ذات طابع يختلف عن طابع عقيدة كونفوشيس، فلم يعبأ بها كثرة الصينيين ، وظلت كذلك مغمورة الشأن فى الصين وفى خارجها ، حتى أتيح لها الدكتور يى بئو مئى (Dr Yi Pao Mei) العالم الصينى فترجم نصوص هذه العقيدة الى الانجليزية سنة ١٩٣٤ فاشتهرت. كان أتباع مو من عادتهم أن يؤلفوا فيما بين أنفسهم جماعات ، لكل منها اجتماعات منتظمة يرتلون فيهــا أقوال معلمهم ولذلك احتفظت العقيدة بحياتها حتى وصلت الينا .

كان مو يسخط على الموسيقى ويرى أن تشجيعها ضياع للوقت والمال والجهــد ، وهو مع ذلك كان يحــرم الحرب العدوانية ويدعو الناس دواما الى اعتناق فكرة الحب المحض ، باعتبار أن السماء تريده من الناس ، ونورد بعد ذلك قطعة صغيرة من كتاب مو تعطى فكرة عن هذه العقيدة وتعاليم صاحبها :

قال سيدنامو : أى أمرء فى المجتمع العظيم يريد أن يقوم بعمل لايمكنه الاســتغناء عن نموذج يقيس عليه ، أما والأمر كذلك فأى مقياس يكون مناسبا للحكم ؟ والجواب : ألا شىء معادل لتقليد السـماء ، لأن أعمال السماء كلية الشمول وليست قاصرة ، وبركاتها حقيقية وغير متوقفة ، وملامحها باقية وغير قابلة للوهن ،ومن هنا قلدها الملوك الحكماء ،وباتخاذهم السماء مستوى لهم كانت أية حركة لهم بل أى فعل مرتبطا قياسه بالسماء، فالذى تريده السماء يفعلونه والذى لا تريده السماء لا يفعلونه .

والسؤال هو : وما الذى تريده السماء وما الذى تأباه ؟

تريد السماء من الناس أن يحبوا وأن ينفع بعضهم بعضا ، ولاتريد من الناس أن يكرهوا ويسىء بعضهم الى بعض ، وكيف نعرف هذا ؟لأن السماء تشمل الجميع بحبها لهم ،وتشمل الجميع بنفعها لهم؛وكيف نعرف أن السماء تشمل الجميع ؟ لأنها تفعل ذلك فى هباتها بالطعام .

خذ بعد ذلك المجتمع العظيم : لا وجود لمقاطعات كبيرة أو صــغيرة فالكل مدن السماء ، وخذ الناس : لا وجود لشباب أو لمسنين ، لأشراف أو لسوقه فالكل رعية السماء ، هو هذا ، لأنه لا يوجد امرؤ لا يسمن الثيران والغنم والكلاب والخنازير ويعمل الخمــر النقية وكعك القــرابين

التى بهـا يقدم الاجـلال والعبادة للسـماء ، وهل يكون هذا الا بكون السماء مالكة للجميع ومانحة الطعام للجميع ؟ وبالافتراض أيضا أن السماء تشمل الجميع وتعطى الطعـام للجميع ، فكيف يمكن أن يقال أنها لا تريد من الناس أن يحبوا وينفع بعضهم بعضاً ؟

التاءوية أو المتجردة

ننتقل بعد ذلك الى عقيدة أخرى عاشت الى جوار عقيـدتى كونفوشيس ومـو ، وهذه العقيدة هى ما تعرف بالتاءوية (Taoism) وجاءتنا هـذه العقيدة عن طريق كتاب تاءوتى (Tâo-te) وهو كتـاب صغير ترجمه الى الانجليزية آرثر ولى (Arthur Waley) كما ترجمه غيره ، ويرى ولى أن خير ترجمة حرفية للكتاب هى ترجمة ولهلم ، ومما يجدر ذكره أن ولى وهيوجز حاولا الترجمة مع فهم للنص وما يعنيه ، ولذلك فان ترجمتهما ليسـت حرفية ، ويقول ولى أن تدوين الكتاب يرجع الى حوالى سنة ٢٤٠ ق ٠ م وأنه لم يحمل اسـم مؤلفه ، ويضـيف الى ذلك أن العقيدة كانت كاملة قبل التدوين بقرنين ، تعتنقها مدرسة خاصـة تعرف بمدرسة المتجردين (Quietists) ، والمشـهور أن مؤسس هذه المدرسة هو لاءوتزو (Lao-tzû) وهو اسم يذهب الكثيرون الى أنه لم يكن له وجود ، سواء أكان صاحب هذا الاسم من ابتداع الخيال أو كان شخصية تاريخية فالباحثون لا يزالون يجدون فى الوصـول الى الحقيقة ومعـرفة مؤلف الكتـاب صـاحب العقيدة ، والغموض لا ينتاب شخصية صاحب المدرسة وحـده بل يكتنف أيضـا جوانب من العقيدة نفسها ، على أن الأمل معقود على دراسة هذه الكتب المقدسة الخاصة بالتاءوية التى اشتراها الدكتور جوزيف نيدهام (Joseph Needham) وحملها الى كمبردج ، والتى تنتظر النشر والترجمة والدراسة ٠

ومدرسة التاءويين أو المتجردين ترى أن ليس كل فرد صالحا لأن يكون من أتباعها أى زاهدا متجردا ، ولذلك فهى تعنى بأن تضم لها النابهين وهم يبتغون من وراء ذلك تغذية المجتمع بطائفة من الحكماء (Sheng) ليحكموا الناس دون أن يشعروهم بحكمهم وعلى وفق ما حكم الناس ـ فيما قبل ـ فى العصور الذهبية القـديمة وهى فكرة ما أشبههـا بفكرة الفيلسـوف اليونانى افلاطون فى امراء جمهوريته ٠ هذا وبين التاءوية واليوجا الهندية شىء من المماثلة أيضا ، ولكن على الرغم من هذه المماثلة فيذهب الباحثون الى أن ليس هناك من الدلائل ما يشير الى أن التاءوية

تدين بوجودها الى اليوجا الهندية ، أو الى أنها تأثرت باليوجا ، وعلى أية حال فهذه الكتب الجديدة التى اشتراها الدكتور جوزيف نيدهام ستزيل كثيرا من اللبس أو الوهم أو الشبهة ، لأنها من المنتظر أن تمدنا بمعلومات تحدد معارفنا عن هذه العقيدة ، وتكشف القناع عن كثير مما نجهل عن هذه الحركة الدينية •

أما كتاب تاءوتى كنج فهو كتاب وجيز وعباراته غير متماسكة ، ولعل أهم ما فيه ما يتضمن من عقيدة التصوف التى امتزجت بالبوذية وخرجت منها عقيدة زن البوذية ، وزن (Zen) أو تشان (Chan) عقيدة صينية خالصة خرجت من البوذية والحكمة الصينية ، وتكونت فى الصين ثم انتقلت الى اليابان •

تساءل الأستاذ بوكيه عما تراه الماركسية فى التاءوية ، وقال انها من وجه تبدو وكأنها تتفق معها ، لأنها تسرف اسراف الماركسية ، ذلك أن التاءوية تقول : « أى شىء يتعارض مع التاءوية يموت سريعا » ولا جدال فى أنها تتعارض معها فى حقيقة الأمر ، لأن التاءوية ــ على قدر ما بدا منها ــ تعارض تغلغل سلطان الحكومة وتنفر من التدخل فى الحرية الفردية ، واليك ثلاث قطع من كتاب تاءوتى كنج (Tâo-te-King) يبين جانبا من ملامحها :

القطعة الأولى :« تاءو (Tâo) الذى يمكنه المشى ليس هو تاءو الباقى غير المتغير ، والاسم الذى يمكن مناداته به ليس اسم الباقى غير المتغير •

(مدركا) بغير اسم هو منشىء السماء والأرض و (مدركا) باسم هو أم (Mother) كل الأشياء •

يجب أن نرى دائما بغير شهوة ،

اذا (أبقيناها فى) مكنونها العميق كنا سالمين ،

ولكن اذا كانت الشهوة فينا دائما ،

كان طرازها الخارجى هو كل ما نرى •

وهى فى هذين الوجهين شىء واحد فى الحقيقة ، ولكنها حينما يأخذ التطور مجراه تتخذ الأسماء المختلفة ، وهما معا نسميهما المكنون، وحيثما يكون المكنون فى أعمق وضع يكون باب كل ما هو لطيف ورائع •

تاءو (مثل) فراغ قدر يجب علينا فى استخدامه أن نحرص من تمام الملء وباعتبار أنه أب الأشياء كلها المجد ما أعمقه عمقا بلا قرار ٠

يجب أن نجابه مواقفنا الحرجة ، وأن نحل عقد الأشياء ؛ ويجب أن نخفف من اشراقنا ونكيف أنفسنا مع ظلام الآخرين ، وما أنقى تاءو واستمراره به باعتبار أنه سيمضى هكذا أبدا !

لا أدرى من هو ابنه فالظاهر أنه وجد قبل الرب ٠

ننظر اليه ولا نراه فنسميه « الثابت » ، نستمع اليه ولا نسمعه فنسميه « غير المسموع » ، نحاول أن نمسكه ولا نمسكه فنسميه « اللطيف » ، وبهذه الصفات الثلاث لا يكون موضوعا للوصف ، ولذلك نمزجها معا ونحصل منها على صفة واحدة هى «الواحد» ٠

جزؤه العلوى غير مضىء وجزؤه السفلى غير مظلم ، من غير توقف فى الفعل ، ومع ذلك فانه لا يسمى ، وهو بعد ذلك يعود فيصير لا شىء ، وهذا ما يسمى صورة اللاصورة ومشابهة غير المنظور ، وهـذا ما يطلق عليه الزائل غير المحدد ٠ نلقاه ولا نرى محياه ونتبعه ولا نرى ظهره ، وعندما نمسك تاءو بالقدم ليوجه أشياء الزمن الحاضر ثم نكون قادرين على معرفته على أنه ذو القدم من البداية فهذا ما يسمى (حل) علامة تاءو ٠

كل الشمول هو تاءو العظيم ، يوجد فى الشمال وفى اليمين ٠

كل الأشياء تعتمد عليه فى خروجها الذى يمنحه لهـا ، من غير أن يرفض شىء الاستجابة له ، وعندما عمله يتم لا يدعى فضـل القيام به ، ويكسو كل الاشياء كأنها تلبس جلبابا من غير أن يدعى أنه ربها ، وهو يعرف فى أتفه الاشياء ٠ كل الاشياء تعود (الى أصلها وتختفى) ولا تدرى أنه هو الذى يشرف على فعلها هـذا ، ومن المستطاع أن يعرف فى أعظم الاشياء ، تاءو باعتبار عدم التغير ليس له اسم ٠

ولو أنه فى منشئه الأول كان بسيطا فالعالم كله لم يكن يجرؤ أن يتعامل مع (واحد صنعه) كتابع ، ولو استطاع أمير المقاطعة أو الملك أن يرعى ويستحوذ عليه لخضع الجميع له طوعا ٠

السماء والأرض (بتوجيهه) يتحـدان معا ويرسلان الندى العذب ، الذى يصل ـ بغير توجيه من الناس ـ الى كل مكان بتساو طبقا لرغبته هـو ٠

عندما يتقدم للفعل يكون له اسم، واذا ما اتخذ ذلك الاسم استطاع

الناس أن يعرفوا اللجوء اليه .. واذا ما لجأوا اليه استطاعوا الخلاص من كل أخطار الفشل والخطأ ٠

صلة تاءو بكل العالم مثل صلة الأنهار العظيمة والبحار بالجداول (الآتية اليها) من الوديان ٠

القطعة الثانية : (طريق) تاءو السماوى ليس بهين ومع ذلك يمكن غزوه ٠

لا يعلن عن ارادته ومع ذلك تحصل استجابة ،
لا يستدعى ولكن الأشياء تأتيه طوعا ،
لتعمل ببطء عظيم بخطط محكمة الوضع ٠
شبكة السماء عريضة بعيون واسعة ،
ومع ذلك فلا يضيع شىء ٠

القطعة الثالثة :

لا تجعلنى أفعل شيئا وسيغير الناس أنفسهم ،

اجعلنى أحب الطمـأنينة وسيضع النـاس أنفسـهم فى المواضع الصحيحة ٠

ونريد أن نختم هذا العرض بنصين هامين يدلان على التطور الدينى الصينى ، أولهما مأخوذ من أعظم مفـكر فى التاءوية والآخر عن كاتب كونفوشيسى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ونقـول انهما هامان لأن النص الأول يقوم على المنطق العقلى للتاءوية أما النص الثانى فتتبين أهميته فى تطور العقيدة الكونفوشيسية وتدانيهـا الى غيرها من مدارس الحكمة الصينية الاخرى ٠

النص الأول : قال تشوانج تشئو (Chuang Chou) وهو من أعظم فلاسفة التـاءوية (Taoist) ، ويصـور ما وصلت اليه العقيدة من سلبية ، قال :

عدم الفعل هو الجانب الحقيقى للشـهرة ، هو مسـتودع جميع الخطط ، هو الرأس المدبر لكل الأعمال ، هو سيد جميع المعارف ، فحدد نفسك تحديدا كاملا من الأبدية اللانهائية وجل فى اللانفس ، واحمل الى الأعلين ما تقبلته من السماء على ألا تكشف عن نجاحك فى هـذا ، وكن

فارغا وهذا هو المطلوب ، فمثـــل اســـتخدام المرء السليم لعقله كمثل استخدامه مرآة ، لا يتوقع الأحداث ولا يذهب لملاقاتها ، فهو بذلك يكون قادرا على أن يتغلب على الأشياء وعلى ألا يصاب بها ٠

والنص الثاني : وهو منسوب للكاتب تشوهسى (Chu Hsi) وهو يستخدم كلمة تاءو تعبيرا عن الاله ٠

لا حاجة بنا أن نتحدث عن الأشياء التافهة والبعيدة المنال ، ونحن اذا عرفنا حقيقة تاءو تحتم علينا أن نبحث عنه فى داخل طبيعتنا نحن ٠ كل امرىء فيه فطرة الحـــق وهى ما نسميها تاءو ، وهى الطريق الذى ينبغى أن نسلكه ، والوسائل التى بها نسوق الشهوة البشرية يوما بعد يوم ونعود بها الى القانون الالهى وهى فى متناول آيدينا ، واستخدامها هو ما علينا من واجب ، والشىء الوحيد الذى يجب أن نتيقن منه هو أنه يجب استخدام أقصى جهدنا ثم السيطرة عليها والتخلص من تطرفاتها والتمسك بالوسط (Mean) ، والفضيلة هى ممارسة القانون الخلقى ، والفضيلة هى ما وقر فى القلب ٠ فقبل تقـــديس المرء لوالديه واتباع الفرد الأخ الأكبر فان لديه عقلا (فيه) الأبوة والأخوة السليمتان ، وهذا ما يطلق عليه الفضيلة ، والحب فى ذاته هو المـــادة الاصيلة للحب ، فالتقديس هو الحب فى أجل تعبير ، والاستقامة هى الحب فى الاحكام ، والحكمة هى الحب فى التمييز ٠

والاخلاص هو أساس الحقيقة ، وهو أن تكون واحدا ســـواء أمام وجوه النـــاس أو خلف ظهـــورهم ، وتجنب الشىء الزائف هو اخـــلاص اختيارى ، وعدم السماح بالغش هو اخلاص مكتسب بالجهد ٠

ومن هذا النص يتبين أن الكونفوشيسية على لسان هـــذا الكاتب اتخذت طريقا يراد بها التقريب بين وجهات النظر المختلفة فى الحـــكمة الصينية ، ذلك لأن هذا الكاتب يحـــاول أن يمزج عقيـــدة كونفوشيس بالمظاهر المختلفة لمدارس الحكمة الصينية المتعددة ابتغاء تقريبها الى كل عقـــل صينى وملاءمتها للمنـــاهج العقلية المختلفة فى العقلية الصينية الموروثة وجدير بالذكر أن تصور الاله والاعتقاد بصورة وجوده فى الكون لم يشغلا العقل الصينى لتركيزه على السلوك الانسانى ومظاهر الحياة ٠

سادسا : (أ) عقيدة أورفيس (Orpheus)

أورفيس الذى تنسب اليه هذه العقيدة يظن أنه شخصية حقيقية له دوره فى تاريخ تراقيا ، ويرجح هذا الرأى الاستاذ جوثرى (Professor

(Guthrie ولقد وصل اليه من دراسته للأدلة التى تشير الى اورفيس.
أما العقيدة التى تنسب اليه فهى ـ كما تبدو ـ وثنية قديمة ، ويظهر أنها احتفظت بحياتها الى عصر ما قبل ظهور المسيح بقليل ، وذلك لأنها كانت موجودة أيام الامبراطورية الرومانية ، يؤيد ذلك أن الشعر الدينى الذى عثر عليه ويشير الى هذه العقيدة مكتوب بلغة يونانية ، ليست هى اللغة اليونانية العريقة فى القدم ، كما أنها ـ كما يقول العلماء ـ ليست فى صورة اللغة القديمة ، وانما هى من العصر الوثنى الأخير .

والعقيدة الاورفية تختلف عن عقيدة الاخوان الأرفال ، التى كانت تعيش أيضا زمن الامبراطورية الرومانية ، والتى أشرنا اليها حين الحديث عن العقائد البدائية ، والظاهر أن كان لهذه العقيدة كتاب مقدس ، عثر على ثمان قطع شـــعرية منه أما باقى الكتاب فمفقود ، والاشارة الى هذا الكتاب فى الشعر تصور أنه من عند الله ، ويقول الباحثون أن هناك من الأدلة ما يحمل على الظن بأن أفلاطون وغيره استفادوا مماجاء بهذه العقيدة، يدل على ذلك ما وجدوا من مقتطفات من نصوص هذه العقيدة فى كتابات الأفلاطونية الحديثة ، ويقال انها نصوص من تأليف أورفيوس نفســه .
أما ما يرجح وجود هذا الكتاب المقدس فهو ما عرف فى العالم الرومانى الاغريقى فى عدة قرون أن عقيدة أورفيوس لها كتاب مقدس يتضمن قصة الخلق .

واليك بدء ترتيلة موجهة الى زيوس نقلها بورفرى (Porphyry) :

١ ـ زيوس صار الأول ، زيوس ذو النور المتلألىء الآخر ، زيوس هو الرأس ، زيوس الوسط ، ومن زيوس اتخذت كل الأشياء وجودها، صار زيوس الذكر وكان زيوس أنثى خالدة ، زيوس هــو أســـاس السماء والأرض ، زيوس هو الملك ، وزيوس بعينه أول أب للجميع .

٢ ـ ونصا آخر يدور حول الموت نقله بركلس (Proclus) :

كل من يعيشون فى طهارة تحت أشعة الشمس حالما يموتون يجدون أسهل طريق فى مراع جميلة على جانب أشيرون (نهر ـ Acheron) العميق الجارى ، والذين عملوا السيئات تحت أشـعة الشمس ـ وهم السفهاء ـ يؤخذون الى أسفل تحت كوكيتس (Kokytos) الى أهوال برد ترترس (Tartarus) .. أرواح الوحوش والطيور الجارحة عندما تنفلت مبتعدة ـ وتتخلى الحياة المقدسة عن المخلوق ـ فان أيا منها لا ينزل منزل هاديس ـ Hades) ، بل كل يرفرف بدون هـــدف حيث هو ، حتى ينقض عليه مخلوق آخر فينزعه وهو يضطرب فى هبات الريح ، ولكن

حينما يكون انسانا يترك نور الشمس فعندئذ يأتى بالأرواح الخالدة الى أسفل الهرامسة الكلينيون(Kyllenian Hermes) الى الجـــانب الواسع الخفى من الارض ٠

هذا التصوير للعقيدة يبعدها عن البدائية ويذهب بها الى درجات من الرقى لا نستطيع تحديدها لأن العقيدة وصلت الينا مبتورة ٠

(ب) تراتيل معاصرة :

لم تكن تراتيل عقيدة أورفيس وحدها هى التى تنشد ، بل كانت هناك تراتيل أخرى ينشدها القوم ، ولم تكن قائمة على عقيدة أورفيس أو ذات صلة بها ، وانمـــا كانت هذه الاناشيد الدينية موجهة الى آلهة اليونان ، منها سبعة الى ديونيسس (Dionysus)وثلاثة الى زيوس وهكذا، كما كانت هناك أناشيد موجهة الى مظـــاهر الطبيعة فى صور مشخصة كالنجوم والسحب والرياح ، ويبدو أن هـــذه الاناشيد كانت تغنى فى برجمون (Pergamon) بآســيا الصغرى ، وتوجد من الأدلة ما يؤيد هذا الرأى ، فبرجمون — كما يقول الأستاذ جوثرى — كانت مركزا ضخما للعبادات ، ذات ساحة كبرى مسورة قد مهدت الى جانب تل ، فيها معابد وأصنام ومذابح ، وحجرات وردهات ، وصفوف من مقاعد مرصوصة ، وتدل النقوش التى عليها أنها تمثل عبادات لعدد كبير من الآلهة المتنوعة ٠

كان الغرض من هذه العبادة أن يحصل المرء على السعادة السرمدية، فكان أول خطوة يتخذها أن ينضم الى معتنقيها ليؤدى معهم طقوسها ، ثم يتلو معهم الأناشيد الموجهة الى ديونيسس(Dionysus) ملك الموت ، الذى يتحكم فى زوجه برسفون(Persephone) ، لأن هذه الاناشـــيد تهيىء له السبيل لهذه السعادة السرمدية ، ومما يجدر ذكره ان ديونيسس وزوجه برسفون ولدهما زيوس وديمتر (Demeter) اللذان همـــا اله السماء والأرض الأم وعلى ذلك فهما أخ وأخت ؛ ونقدم بعد ذلك بعض الأناشيد التى تعطى فكرة عن هذه العقيدة ٠

١ — ترنيمة موجهة الى ديونيسس :

أتوسل الى مانح الناموس حامل الصولجان ديونيسس ،
البذرة غير القابلة أبدا للنسيان ، يوبليس ذو الاسماء الكثيرة ،
المقدس ، ذو ميزة الحرمة المقدسة ، الملكة التى لا ينطق باسمها !
مذكر ومؤنث من طبيعة مزدوجة ، المعتق (المتسامح) أياكوس ،

سواء أكنت تمرح فى معبد اليوسس طيب الرائحة ،
أو كنت تحتفل بأسرار الأم فى فيرجيا ،
أو كنت تسعد فى قبرص بالمتوجة الجميلة سيثريا ،
أو كنت طروبا فى الحقول المليئة بالقمح الزاهى ،
مع أمك المقدسة ، ايزيس الجليلة ، ذات الرداء الأسود ،
ومع حاضناتك المشغولات قرب المجرى المصرى ،
كن رحيما وتعال الينا مجسنا لتتم أعمالنا .

٢ ـ ترنيمة موجهة الى برسفون

برسفون ، يا ابنة زيوس العظيم ، تعالى أيتها المحبوبة ،
مولودة الالهة الوحيدة ، تقبلى القرابين السارة لك قبولا حسنا ـ
رفيعة الشان زوج بلوتو ، العزيز مانح الحياة .
بركسيديس ، المزينة بالخصلات الجميلة ، تطارد ولد ديو
مانحة الولادة ليومنيدس ، ملكة الذين تحت الارض ،
العذراء التى ولدها زيوس من زواجه غير المعلن ،
أم المنادى جهير الصوت ، يوبليس متعدد الصور ،
رفيقة اللعب فى الأوقات ، باعثة نور الصور المجيدة ،
حاكمة الجميع المخيفة ، العذراء حاشدة الفاكهة ،
متلألئة الأشعة ، قرناء ، الرجاء الوحيد للفانين .
شابة ، تبتهج بنسمة المراعى ،
المخرجة الى النور الصورة المقدسة لبراعم الفاكهة الخضراء ،
التى تزوجت فى الخريف فى سرير مغتصب :
والتى هى وحدها حياة وموت الفانين طويلى البقاء
يا بيرسفون ، فأنت أبدا تحيين وتميتين كل الأشياء .
اسمعى ، أيتها الالهة المباركة ، أخرجى الفاكهة من الارض ،
وامنحينا فى وفرة سلاما وصحة مستحبة ،
وحياة سعيدة ، فمثل هذا يتيح فى كبر السن الاطمئنان
الى مملكتك ، أيتها الملكة ، والى بلوتو المخيف

٣ ـ دعاء موجه الى برسفون

أيتها الملكة الطاهرة ، ملكة الذين تحت من الطهر آتى ،
ويا يوكليس ويوبليس وغيرهما من الآلهة والمردة ،
أعترف أننى أيضا من جنس مبارك ،

وقد أديت الجزاء عن الأعمال الفاجرة ،
سواء أكان القدر هو الذى جعلنى انحط أو الآلهة الخالدة ،
أو (أن زيوس ضربنى ؟) بنجم الصاعقة الطائر ،
طرت خارج العجلة المحزنة المتعبة ،
واجتزت بأقدام تواقة الى الدائرة المبتغاة ،
وغصت فى أعماق أحشاء دسبوينا ملكة العالم السفلى
واجتزت بأقدام تواقة الى (أو من) الدائرة المبتغاة ،
والآن أتى المتوسل لبرسفون المقدسة ،
وبجلالتها أخذتنى الى مقاعد المباركين

سابعا ـ فى أمريكا

(أ) وسط امريكا

من المظنون أن هذه المنطقة تخلو من النصوص المقدسة المدونة بالحروف ، ذلك لأن الباحثين لم يجدوا سوى نصوص مسجلة بالرموز المصورة ، ولقد حاول الباحث فريى برنادينو دى سهاجن Fray Bernadino de Sahagun) أن يصور هذه النصوص الدينية المقدسة وأن يدرسها فى كتاب له ، وكانت عنايته موجهة الى المكسيك ، ولقد نقل عنه لويس سبنس(Lewis Spence) الى الانجلزية انشودتين دينيتين ، وهما ـ على أية حال ـ تعطيان فكرة عن الحياة الدينية فى المكسيك فى تاريخها السابق ، ذلك لأن النصوص الدينية غالبا ما تكون موروثة عن القدماء •

١ ـ الأنشودة الأولى موجهة الى الهة هى سياكوتل (Ciuacoatl) وهى الهة لا ترضى عن الشعب الا بتقديم أضحية ، واليك الأنشودة :

انبثق الفجر •
مضى الأمر الى المقاتلين ،
فمن الآن وصاعدا جروا الأسرى ،
فالأرض كلها ستخرب (١)
الوعل من كولوكن (٢) (Colaucan)

---

(١) تقضى التقاليد الدينية أن يقدم الاسرى ضحايا ، لان دماءهم المسفوحة قربانا تؤدى الى أن تحيا ,, الارض فتنبت الاذرة ، وبدونها تموت الارض ولاتنبت الاذرة .

(٢) ظهور الالهة يكون بريش كمظهر المحارب المنتصر ، ويقول سهاجن ان اهل المكسيك يعتقدون انها تمنحهم النصر على أعدائهم .

مغطاة بالريش ،
والذين يقاتلون بشجاعة فى الحرب ،
يزخرفون بريش النسر ·

٢ ـ الأنشودة الثانية موجهة أيضا الى الهة هى اتزببلوتل (Itzpapalotl) وهى تصور ولها جناحا فراشة ينتهيان بسكينين من الحجر ، ولها مخالب النمر الأمريكى ، ولها وجه امرأة ، والأنشودة هى :

ألا فقد تحولت الهة للبطيخ (melon cactus)
أمنا اتزببلوتل ، الفراشة البللورية ،
طعامها فى السهول التسعة (Nine Plains)
كانت تتغذى من قلوب الوعول ،
أمنا الأرض الالهة ·

من الواضح أن هذه العقيدة أرقى درجة من العقائد البدائية والالهة أنثى هى الأرض ولا ترضى الا بسفك الدماء ·

(ب) بيرو

الأمر هنا فى بيرو شبيه بالأمر فى المكسيك ، ليس لدينا نصوص قديمة ، وانما لدينا من النصوص ما سجله الطارئون على بيرو ، ولما لسلطان الدين من قوة فى النصوص فقد حفظ لها البقاء أزمانا وخاصة فى البيئات البعيدة عن التأثير الأجنبى ، والتى هى أشبه بالبيئات البدائية من حيث العزلة ، فاذا كان الأمر كذلك فأنا نورد هنا ترنيمة موجهة الى الاله العظيم ، كانت تنشد زمن بيزارو وأيام غزو امبراطورية انكاس (Incas) هذه الترنيمة هى :

فيراكوتشا (Voracocha) رب الكون ،
سواء أكنت ذكرا أم أنثى ،
فعلى أية حال ، مدبر للحرارة وتوالى الانتاج ،
كونك الواحد الذى ،
وببصاقه أيضا يستطيع أن يعمل السحر ،
أين توجد ؟ ـ
فعلى هذا أنت غير خفى عن ابنك هذا ،
قد يكون فى الأعالى ،

قد يكون أسفل ،
أو لعله فى الخارج فى الفضاء :
أين كرسى قضائه القوى ؟
اسمعنى •
قد يكون مبسوطا فى الخارج بين المياه العليا ،
أو بين المياه السفلى ورمالها ،
قد يكون مستقرا ، خالق العالم ،
خالق الانسان ،
عظيما بين آبائى ،
أمامك ،
تخوننى عيناى ،
وان كنت أطيل النظر اليك ،
لأن رؤياك
معرفتك ،
التعلم منك ،
فهمك ،
سأرى بك
وأنت ستعزفنى •
الشمس ــ القمر ،
النهار ــ الليل ،
ليس عبثا ،
تواليها بانتظام ،
انها تسير ،
الى مكانها المقدر ،
الى هدفها •
انها تصل ،
حيث ،
هيئتك الملكية

التى تحملها ٠
ألا فاسمعنى ،
اصغ الى ،
لا تجعله يحدث ،
فأصبح ضعيفا ،
وأموت ٠

والاله الذى يصوره هذا النص يتميز بأنه واحد رب الكون ولئن قصر تصور المرء عن ادراكه على نحو ادراك الأديان الراقية فانه قريب الشبه باله هذه الأديان ٠

هذه النصوص التى سقناها عن العقائد فى وسط أمريكا تدل دلالة واضحة على صلتها بالوثنية ، ولكنها ليست بدائية ، فهى من غير شك أرقى من العقائد التى سقناها لافى طبيعتها وانما فى مظاهرها ، فالسحر ليس ضرورة أن يصحبها أو طابع السحر لا يبدو فى الاحتفال بها ، ومن هنا تميزت عن البدائية ٠ وأقدم كتاب يصور عقائد أواسط أمريكا يعرف باسم (The Popol Vuh) وقد وجده الاسبان عند دخولهم هذه البلاد ، ولقد نقل هذا الكتاب المقدس الى اللاتينية أولا ، ولقد ترجمة الى الانجليزية ج٠ مورلى (G. Morley) وهو كما يبدو يصور عقيدة وثنية تميل الى تعدد الآلهة ، ويحتوى على أساطير هذه المنطقة ، ولكن على الرغم من هذا فان نسبة هذا الكتاب المقدس لهذه المنطقة ، وظهور كتاب مقدس يسجل عقائدها دليل واضح يدل على اجتياز هذه العقائد دور البدائية ٠

خاتمة

الآن وقد فرغنا من عرض النصوص الدينية الخالصة ، التى تصور معتقدات الأمم القديمة ، تلك المعتقدات التى تطورت عن المعتقدات البدائية لهذه الأمم ، والتى رسمت لها الأساس الذى تقوم به علاقاتهم بالرب والكائنات العليا والثواب والعقاب ومنهج حياتهم على الأرض ، فاننا حين نمعن النظر فى هذا الأساس نجده قد أقيم على الناحية الوجدانية فى الانسان ، وظهورها على هذا الوضع جعلها تختلف عن الفلسفة اليونانية التى قامت على الطابع العقلى والبحث النظرى ، وهذه الفلسفة اليونانية رغم رقيها العقلى لم تصل يوما الى المكانة التى وصلت اليها هذه العقائد فى قلوب الناس ، فلم تسيطر عليهم وتفرض نفسها كما فعلت العقائد القديمة ، وانما آثرت أن تحتفظ بطابعها العقلى ، ذلك الطابع الذى هو اجتهادى ، والذى يخرج الفلسفة اليونانية عن دائرة هذا الكتاب ٠

الفصل الثالث

الديانات الكبرى المعاصرة

أولا ــ اليهودية

أ ــ مقدمة :

قبل أن نبدأ الحديث عن اليهودية نقول أن لدينا كتابا مقدسا يصور هذه العقيدة ويعترف به اليهود يسمى العهد القديم . أما البحث العلمى فيثبت أن الجزء الأول من الكتاب المقدس وهو المعروف بالعهد القديم لم يكن على هذا الحال التى نراها عليه الآن الى زمن المسيح عليه السلام ، اذ يذهب الباحثون الى أن الشطر الأكبر منه قد تم تدوينه فى الفترة التى فيما بين عذرا والفتح الرومانى ، وأن رجال الدين هم الذين قاموا بهذا العمل ، وأن القرن الأول الميلادى شهد الكتاب المقدس وهو لم يكن على ترتيبه الحالى ولم يكتمل كما هو الآن (١) .

ويذهب الدكتور بوكيه الى أن أنجيل المسيح عليه السلام كان يتضمن من العهد القديم التوراة وهى الأسفار الخمسة الأولى ، وهى التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية ، بالاضافة الى أسفار الأنبياء

---

(١) راجع دراسة الدكتور فؤاد حسنين على فى هذا الموضوع ــ التوراة ط القاهرة ١٩٤٦ ص ١٤ ومابعدها .

المتقدمين وبعض المزامير (١) ، أما ما عدا ذلك فأضافته الى العهد القديم موضع شك عظيم ·

ونحن اذا رجعنا الى العهد القديم نفسه نجده فى سفر الأخبارالثانى فى الأصحاح الثالث والعشرين فى الفقرة الثامنة عشر يقول (··· كما هو مكتوب فى شريعة موسى بالفرح والغناء حسب أمر داود) · وهذا يدعو الى القول بأن هناك نصوصا دينية كانت فى عهد هذا النبى ، ويؤيد هذا النص فى العهد القديم ما جاء فى العهد الجديد فى انجيل مرقص (الاصحاح ٢٦/١٢) (··· أفما قرأتم فى كتاب موسى فى أمر العليقة كيف كلمه الله ···) ، وفى انجيل متى (الاصحاح ٥/١٢) (أو ماقرأتم فى التوراه أن الكهنة فى السبت فى الهيكل يدنسون السبت) ، فهذه النصوص تدل على أنه كان لموسى عليه السلام كتاب ، وأن هذا الكتاب سمى التوراة ولكن البحث العلمى والدراسات التى قامت حول أسفار العهد القديم تذهب الى عكس هذا الاتجاه ، والعلماء يعتمدون على أدلة كثيرة ، منها نصوص فى العهد القديم نفسه ، ذلك لأنه ورد فى سفر التثنية (اصحاح ٣٤/٥،٦) القول (·· فمات هناك موسى ··· ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم) ولا يمكن أن يصدر هذا القول من موسى عليه السلام ، وهذا يقطع أن فى التوراه فى وضعها المعروف لنا حاليا مالا يمكن نسبته الى موسى عليه السلام ، ويقول الدكتور فؤاد حسنين على (التوراة ص٢٤) (ليست التوراة التى بأيدينا تأليف شخص واحد بعينه ، وقد اعتمد النقاد لاثبات ذلك على الحقائق التى سبق أن أشرنا اليها وعلى بعض الأدلة اللغوية كاستعمال لفظى «يهوه» و «ألوهيم» وبعض الألفاظ الأخرى التى نعلم أن معانيها تختلف أحيانا حسب البيئة وحسب الزمن · وغير اللغة الطقوس الدينية المتعارضة التى لايمكن أن تكون قد صدرت عن شخص واحد · فقصة الخلق مثلا جاءت فى سفر التكوين الاصحاح الأول آى ٢٧ وفيها كان الانسان آخر الخلق ، وعرض لنفس القصة فى نفس السفر الاصحاح الثانى آى ٤ ــ ٢٥ ، فكان الانسان هو الأول ، وبعده جاءت الاشجار فحيوانات الحقول فطيور السماء · وفى سفر التكوين الاصحاح الرابع الآيات ١٧ ــ ٢٢ منها يفهم بأن القول بأن طوفانا قضى على كافة البشر لم يحدث وذلك لأن النص يقول أن (لامك) يرجع الى نسله جميع سكان الخيام ورعاة الماشية وكل ضارب بالعود والمزمار وآلة نحاس وحديد وأن سلسلة النسب لم تنقطع بين هؤلاء الناس وبين (لامك) وطبعا بين

---

(١) راجع كتب العالم المقدسة للدكتور بوكيه ص ١٨٥ ط كمبردج ١٩٥٣ ·

(لامك) الذى عاش قبل الطوفان وبين الانسان الأول ، ويحدثنا سفر التكوين ايضا فى اصحاحيه التاسع الآية ١٩ والاصحاح العاشر الآيات ١ ـ ٣٢ أن الارض كانت عامرة بالسكان وكان ذلك العمران شيئا طبيعيا، بينما نجد فى نفس السفر الاصحاح الحادى عشر الآيات ٤ ـ ٩ أن انتشار السكان على الأرض كان عقوبة ، ولم يكن شيئا طبيعيا ٠ وقصة أخرى فيها شىء من التناقض هى قصة يوسف فسفر التكوين الاصحاح ٣٧ يحدثنا عن المدينيين فى الوقت الذى يذكر فيه الاسماعيليين مما يدل على تعدد المراجع التى اعتمدت عليها التوراة فى هذه القصة) ٠ ويقول أيضا ص ٢٥ (ومن الأدلة الأخرى التى تساق لاثبات تعدد المصادر الاضطراب الموجود فى بعض القصص مثلا قصة الطوفان فالآية الثانية عشرة من الأصحاح السابع من سفر التكوين تنص على أنه دام ٤٠ يوما و ٤٠ ليلة بينما نقرأ فى الآية الرابعة والعشرين من الاصحاح السابع فى نفس السفر أنه دام ١٥٠ يوما ، وهناك أدلة أخرى بعضها تاريخى والبعض الآخر مستخرج من مقارنة التوراة ببعض أسفار العهد القديم ٠٠) ٠

ومهما يكن من أمر هذه الأدلة النقدية والتاريخية أيضا فهى منصبة على العهد القديم بوضعه وترتيبه الحالى ، ولكن هل معنى هذا أن البحث العلمى نفى نسبة ما فى العهد القديم جملة وتفصيلا ؟ ان الاجابة على هذا الاستفهام تستلزم أن يكون البحث قد درس دراسة وافية كل نص ونسبته ، والواضح الذى لايقبل النفى أو الاتهام أن فى الاسفار الخمسة الأولى من النصوص ما يمكن رده الى موسى عليه السلام ، وأنه عليه السلام سجل فى ألواح ما يسمى بالوصايا ، وهذه الحقيقة التاريخية نجد الاشارة اليها فى العهد القديم ، كما ورد على سبيل المثال فى سفر التثنية (الاصحاح ٤/١٣) القول (وأخبركم بعهده الذى أمركم أن تعلموا به الكلمات العشر وكتبه على لوحى حجر) ٠ وفى سفر التثنية أيضا (الاصحاح ٦/١) قوله (وهذه هى الوصايا والفرائض والأحكام التى أمر الرب الهكم أن أعلمكم لتعملوها فى الأرض التى أنتم عابرون اليها لتمتلكوها لكى تتقى الرب الهك وتحفظ جميع فرائضه ووصاياه التى أنا أوصيك بها أنت وابن ابنك كل أيام حياتك ولكى تطول أيامك) ٠ أما القول بأن هذه التعاليم أو بعضها على وجه أصح عند قوم آخرين سابقين فليس دليلا على نفى نسبة النص الى صاحبه ، وسفر التثنية نفسه يعترف بهذه الحقيقة فى الاصحاح الرابع فى الفقرة الثامنة (وأى شعب هو عظيم له فرائض وأحكام عادلة مثل كل هذه الشريعة التى أنا واضع أمامكم اليوم) ٠ والدين الاسلامى يقرر أن أصول الديانات جميعا متماثلة

اذا كانت صادرة من الله بطريق الوحى ، فاذا تقررت هذه الحقيقة فهل يمكن أن نتساءل عما اذا كانت الواح موسى عليه السلام نقلت واحتفظ بها الزمن حتى سطرت أو سجلت فى هذا العهد القديم بالنص أو بالمعنى ، ولكن الاجابة تحتاج الى دراسات واسعة ومقارنات بعض موادها ، وهو أمر لم يكشف عنه الزمن بعد ، وعلى أية حال فالعهد القديم يمثل أو يعطى صورة عن عقائد اليهود ، أو بمعنى أدق عن تطورها وهذا ما يعنينا ٠

ويتساءل الدكتور بوكيه ما الذى دعا اليهود أو قادهم الى ايجاد كتاب مقدس لهم ؟ ويحاول الأستاذ أن يجد الجواب فيدرس مصدر الفكرة وهل جاءت لهم نتيجة وجود تراث وانتاج سابق عاش بينهم قبل النفى الى أرض العراق ، وكان نفيهم حافزا على جمع هذا التراث الأدبى والدينى، ونحن اذا نظرنا الى العصر القديم المعاصر لهذا النفى نجد أن بالعراق كما كان الأمر فى مصر مكتبات تضم تراث الأمة الأدبى والدينى ، على نحو ما يعرف بشريعة حمورابى ، فقد كانت الآثار الدينية وغيرها تعيش معا ولا فصل بينهما ، ولكن الوضع فى العهد القديم يختلف عن الوضع فى هذه الآثار القديمة ، واذا نظرنا الى الهند وجدنا ما يسمى بالسروتى (Sruti) والسمريتى (Smriti) وكل منهما يتميز عن الآخر ، فالنوع الأول هو ماجاء عن الوحى بالمفهوم الذى ذكرناه والثانى ما صدر عن الانسان ، وهذا التمييز تبين عنه قوانين مانو (Manu) التى يمكن ارجاع تاريخها الى القرن الثانى أو الثالث بعد الميلاد ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان استعمال كلمة سروتى لتدل على الوحى ترجع ــ فيما يرجح الباحثون ــ الى القرن الثامن قبل الميلاد على الأقل ، وعلى هذا يمكن النظر من هذه الزاوية ، ولكن الباحثين يذهبون الى أن الأثر المباشر جاء عن طريق الفرس ، ذلك لأن اليهود كانوا فى العراق الذى خضع وهم على أرضه لحكم فارس ، ومن ثم عرفوا أو تأثروا بالآراء الفارسية ، وخاصة فيما يتعلق بفكرة المخلص ، ومن المحتمل أن هذه الفكرة الدينية كانت عندهم وتلونت بالطلاء الفارسى ، أو يمكن القول أيضا أن العقائد الفارسية هى التى أحيتها فى نفوسهم ، ومهما يكن من أمر فانه فى هذه الفترة بدأ يظهر فى فارس كتاب مقدس يصور عقائد زرادشت ، ويمكن ارجاع تاريخ ظهور هذا الكتاب المقدس الى سنة ٥٦٠ ق٠م٠ ، وعلى ذلك يمكن القول أن ظهور مثل هذا الكتاب المقدس حفز اليهود لجمع آثارهم فأودعوها فى كتاب أسبغوا عليه صفة التقديس ، ويذهب أحبار اليهود الى أن جمع الكتاب المقدس أى العهد القديم كان على يد عزرا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ويدحض الباحثون هذا القول بأدلة ، من ذلك ما يقوله الدكتور

فؤاد حسنين على فى كتابه التـــــوراة (ص ١٥ ، ص ١٦) ما يأتى :
(والعهد القديم كما وصلنا لم يتم جمعه بين عشية وضحاها كما يدعى بعض علماء اليهود وعلى رأسهم (الياس لفيتا) المتوفى عام ١٥٤٩ م ، كما أن الفضل فى هذا الجمع لم يكن لعزرا وبعض معاصريه من رجال الكنيس كما يدعى الأحبار أيضا ، بدليل لا يقبل الشك وهو أن ذلك الكتاب يضم بين دفتيه أسفارا متأخرة عن عصر (عزرا) الذى عاش فى القرن الخامس ق٠م٠ كسفر دانيال مثلا الذى كتب حوالى عام ١٦٥ ق٠م٠ والواقع كما أن وضع العهد القديم استدعى زمنا امتد نحو ١٠٠٠ سنة كذلك جمعه تطلب قرونا عديدة ، وكانت النتيجة المحتومة لامتداد زمن التأليف وطول عصر الجمع أن خضعت بعض الأسفار لمؤثرات كثيرة عملت فيها زيادة وحذفا ، والى اليوم فالنزاع مازال قائما بين رجال اللاهوت حول سفرى الجامعة ونشيد الأناشيد مثلا ، أهما من أسفار العهد القديم أم دخيلان عليه ، والتفاوت العظيم بين عقليات اليهود المختلفة ومعتقداتهم جعل يهود مصر يبيحون لأنفسهم فى ترجمتهم السبعينية اقحام بعض الأسفار التى لم تكن قد ألفت حتى باللغة العبرية بل باليونانية فى العهد القديم ٠٠٠ أما السبب فى ذلك فهو زوال سلطان اليهود السياسى عام ٧٠م ورغبتهم فى تسجيل كل تراثهم العقلى والروحى سواء كان هذا التراث قد دون باللغة العبرية أم بلغة أخرى) وهذا الذى يورده الدكتور فؤاد حسنين يذكره الدكتور بوكيه فى كتبه ثم يقول عن التوراة فى كتابه (Sacred Books of the World) ص ١٨٦) « ان النهاية العادية المقبولة جاءت من أن مجمع جامنيا (Jamnia) فى سنة ٩٠م وثق معظم العهد القديم كما نراه الآن ، وبعد هذا القرار أصبحت هذه الأسفار مقدسة ، وأصبح من الاثم ومن عدم التوقير أن يضاف اليها شىء ، واذ أغلق الباب لم يكن ثمة مجال لاضافة أسفار أخرى الى القائمة ، وعلى ذلك أصبحت التوراة ثابتة وغير مستطاع أن تمس ٠ »

(ب) العهد القديم :

سبق أن أشرنا الى مايدور حول العهد القديم وأسفاره ، وذكرنا اختلاف اليهود من ناحية والمسيحيين من ناحية أخرى فى قائمة الأسفار التى يضمها ، واختلاف أحبار اليهود والباحثين حول نسبة هذه الأسفار وجمعها ، ويمــكن أن يضاف الى هذا أن كان هناك اختلاف بـين اليهود أنفسهم ، ذلك لأن السامريين يخالفون سائر اليهود فى أنهم لا يؤمنون الا بالأسفار الخمسة ، وهى المصطلح عليها بالتوراة ٠ والعهد القديم هو

فى الواقع سجل تضمن التراث اليهودى من شعر ونثر وقصص وأساطير وغزل ورثاء وحكم وأمثال وفلسفة وتشريع ، وضع فى صورته المعروفة المقرؤة الآن باللغة العبرية فى أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلادى ، وقام بهذا العمل جماعة من المترجمين اليهود يعرفون بالمسوريين (Massoretes) ولقد سبقت هذه الترجمة ترجمة أخرى الى اليونانيه تمت فى مصر قبل الميلاد بنحو مائتين وخمسين سنة ، ويقال ان اثنين وسبعين من علماء اليهود قاموا بها ، وهى التى تعرف بالسبعينية ، وبين الترجمة العبرية والترجمة السبعينية اختلافات كثيرة ، ويذهب الباحثون الى أن هذه الاختلافات توحى بوجود نصوص قديمة للعهد القديم أدت الى هذه الاختلافات فى النصوص ، اختلافا ليس مصدره الاختلاف فى القراءة وانما هو أساسى ، هذا الاختلاف يصور ان كانت هناك مصادر قديمة فى متناول المترجمين يأخذون منها وفق مناهجهم ، على أن الكشف الجديد ــ وهو العثور على مخطوطات عبرية قديمة فى قدور محفوظة فى كهف قرب البحر الميت ــ وهو الذى تم فى سنة ١٩٤٧ ربما يميط اللثام عن كثير مما نجهل ، أو عن كثير من هذه الخلافات ، ولا نزال فى انتظار دراسة العلماء لهذه المخطوطات ونشرها .

يتطلب منهج هذا العرض اعتبار العهد القديم الذى بين أيدينا كأساس لعرض العقيدة ، وعلى ذلك فاننا نقدم النصوص من الترجمة المعترف بها ، وان كان بعض الباحثين لايتقيدون بهذا الأمر .

تصور الاله :

١ ــ سفر التكوين ــ الاصحاح الأول . قصة الخلق .

(فى البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا . وكان مساء وكان صباح يوما واحدا .

وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه وليكن فاصلا بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد وكان كذلك ودعا الله الجلد سماء . وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا .

وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك ، ودعا الله اليابسة أرضا ومجتمع المياه دعاه بحارا ورأى الله ذلك انه حسن ، وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا وشجرا اذا أثمر يعمل ثمرا كجنسه بزره فيه على الأرض وكان كذلك ، فأخرجت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا كجنسه وشجرا يعمل ثمرا بزره فيه كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا .

وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنوارا فى جلد السماء لتنير الأرض وكان كذلك ، فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم ، وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح يوما رابعا .

وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء ، فخلق الله التنانين العظام ، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التى فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذى جناح كجنسه ورأى اللهذلك أنه حسن ، وباركها الله قائلا أثمرى وأكثرى وأملئى المياه فى البحار وليكثر الطير على الأرض ، وكان مساء وكان صباح يوما خامسا .

وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها وكان كذلك ، فعملالله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ورأى الله ذلك أنه حسن وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض ، فخلق الله الانسان على صورته على صورة الله خلقه ذكرا وانثى خلقهم ، وباركهم الله وقال لهم أثمروا واكثروا واملأواالأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض ، وقال الله انى قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على وجه كل الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزرا لكم يكون طعاما ، ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاما وكان كذلك .

ورأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جدا وكان مساء وكان صباح يوما سادسا .

وهذا النص يدل فى وضوح على أن الاله وحده هو الخالق وليس معه أحد ، سـواء أكان ذلك من الآلهة الصغار على نحو ما رأينا فى العقائد السابقة أى عند قدماء المصريين أو السومريين والأكاديين والبابليين أو عند الهنود ، ذلك لأن كل هـذه العقائد تجعل الى جوار الله اما بالوسـاطة أو بالفعل آلهة لهم اختصاص فى الخلق ، وعلى ذلك فالعقيدة اليهودية موحدة ، ولا تشرك مع الله فى الخلق الها آخر •

٢ ـ من سفر الخروج الاصحاح الثالث من ١ ـ ٨ ، ومن ١١ ـ ١٨ (اختيار موسى للرسالة)

وأما موسى فـكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان (مدين) فساق الغنم الى وراء البرية وجاء الى جبل الله حوريب ، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة فنظر واذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق ، فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم لماذا لاتحترق العليقة ، فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى فقال هانذا ، فقال لا تقترب الى ههنا اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة •

ثم قال أنا اله أبيك اله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب فغطى موسى وجهه لأنه خاف ان ينظر الى الله •

فقال موسى لله من أنا حتى أذهب الى فرعـون وحتى أخرج بنى اسرائيل من مصر، فقال انى أكون معك وهذه تكون لك العلامة أنىأرسلتك حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل ، فقال موسى لله هأنا آتى الى بنى اسرائيل وأقول لهم اله آبائكم أرسلنى اليكم فاذا قالوا لى ما اسمه فماذا أقول لهم ، فقال الله لموسى أهيه الذى أهيه وقال هكذا تقول لبنى اسرائيل أهيه أرسلنى اليكم • وقال الله أيضا لموسى هكذا تقول لبنى اسرائيل يهوه اله آبائكم اله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب أرسلنى اليكم هذا اسمى الى الأبد وهذا ذكرى الى دور فدور •

اذهب واجمع شيوخ اسرائيل وقل لهم الرب اله آبائكم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب ظهر لى قائلا انى قد افتقدتكم وما صنع بكم فى مصر ، فقلت أصعدكم من مذلة مصر الى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين الى أرض تفيض لبنا وعسلا) •

والملاحظ أن الاسم الذى يطلق على الله (Ya-u or Yahu) هو اسم قديم جدا للاسم المقدس ، موجود فى النقوش السامية القديمة التى

ترجع الى سنة ٢٦٠٠ ق٠م٠ ، ومهما يكن المعنى الذى كان قديما ويفهم من هذا اللفظ فان المعنى فى الفقرة ١٤ المذكورة فى هذا النص هو كما يقول العلماء (I-will-be-that-I-will-be) وعلى ذلك فان الفقرة الأخيرة تكون (I-will-be hath sent me unto you) ويفسرونها فيقولون «هو الذى يظهر نفسه دائما فى مجرى الأحداث ٠» أما لفظ ألوهيم (الله) فقد «هو الذى يظهر نفسه دائما فى مجرى الأحداث ٠ » أما لفظ ألوهيم فقد قال عن وروده الدكتور فؤاد حسنين على فى كتابه التوراة ص ٢٩ (اما المصدر الثانى فيطلق عليه المرجع الالوهيمى ، وذلك لكثرة ورود لفظ ألوهيم به وهو متأخر عن الأول كما أنه يحدثنا عن قصة ابراهيم ٠٠٠ واستعمال هذا المصدر لفظ ألوهيم عوضا عن يهوه يدلنا على اتجاه جديد فى العقيدة الدينية) ٠

٣ ـ فى سفر عاموس :

رأينا فى قصة الخلق أن ليس بجانب الله رب آخر ، ومعنى هذا أن الاعتقاد بالله يقوم على الوحدانية ، ورأينا فى نصوص سفر الخروج أن الله أوحى الى موسى عليه السلام بالشريعة التى أمره بابلاغها الى قومه ، وفى سفر عاموس بعد أن مضى زمن طويل على موت موسى ، نرى هذا النبى يدعو قومه الى العودة الى يهوه (Yahweh) الاله الذى تحدث عنه موسى عليه السلام ، وعاموس هذا هو أقدم أنبياء العهد القديم الذين وردت الينا أقوالهم مكتوبة ، وبما أنه عاش فى حكم ملك اسرائيل ياربعام الثانى (٧٨٣ ـ ٧٤٣ ق٠م) ، فان الباحثين يؤرخون أقواله بأنها ترجع على أقصى حد الى سنة ٧٦٣ ق٠م ، ويحدد الدكتور فؤاد حسنين على (التوراة ص ١٠١) بأنه صارنبيا عام ٧٥٠ ق٠م ويقول (ومن كتاباته يظهر لنا أنه رحل كثيرا وعاش بعيدا عن اسرائيل وأروع ما روى لنا تلك الفروق بين الطبقات التى شاهدها فى سماريا حيث سكان القصور والجحور ، السعداء والتعساء ، الأحرار والأرقاء ، فهذه الفوارق الاجتماعية دفعته الى القيام بحركته ليعيد الشعب الى صوابه ، ومن ثم نراه يتجه الى يهوه ويرجوه أن يغفر لشعبه ٠) ٠ وهذا النبى دعا قومه الى العودة الى يهوه ، لا على أنه اله محلى أو قومى بل على أساس أنه اله جميع العالم ، وأنه يأمر الناس بالتقوى فى سلوكهم وبالعدالة والرحمة ، وأن أوامره لا تتحقق بتقديم الهدايا والضحايا وحدها فى طقوس دينية ، ومعنى هذا أنه يرد شعبه الى العقيدة الأصيلة وينذرهم بأن العصيان سيؤدى بهم الى الهلاك ، ولقد تحقق ما أنذر به اذ قضى الأشوريون عام ٧٢٢ ق٠م على المملكة

الشمالية . ويجب ألا يغيب عن بالنا أن هذا السفر لم يصلنا بلغة المؤلف وأسلوبه ولذلك فان بعض فقراته محرفة كما هو الشأن في الفقرة السادسة والعشرين على سبيل المثال ، واليك من هذا السفر قوله (النص عن الترجمة العربية للعهد القديم الاصحاح الرابع والخامس) .

عن النسخة العربية طبعة جمعية التوراة الأمريكانية	عن ترجمة الدكتور موفات (Dr Moffatt) شعرا

الاصحاح الرابع

	عن النسخة العربية	عن ترجمة الدكتور موفات
ف١	اسمعي هذا القول يابقرات باشان التي في جبل السامرة الظالمة المساكين الساحقة البائسين القائلة لسادتها هات لنشرب .	استمعن الى هذا ، يابقرات باشان ، يا أيتها النساء في أعلى سامريا ، أنتن اللاتي تغبن المساكين وتقسون على المحتاجين .
ف٢	قد أقسم السيد الرب بقدسه هو ذا أيام تأتي عليكن يأخذونكن بخزائم وذريتكن بشصوص السمك .	واللاتي تقلن لأزواجكن هيا نشرب الخمر . يقينا انني الله يقسم الرب السرمدي ، ان يومكن لآت ،
ف٣	ومن الشقوق تخرجن كل واحدة على وجهها وتندفعن الى الحصن يقول الرب .	حينما تسحبن بالكلاليب وبقاياكن بشصوص السمك ، تخرجن من شقوق في الحيطان ،
ف٤	هلم بيت ايل وأذنبوا الى الجلجال وأكثروا الذنوب وأحضروا كل صباح ذبائحكم وكل ثلاثة أيام عشوركم .	كل واحدة منكن على الوجه ، مجرورة الى جبل هرمن (Hermon)
ف٥	وأوقدوا من الخمير تقدمة شكر ونادوا بنوافل وسمعوا لأنكم هكذا أحببتم يابني اسرائيل يقول السيد الرب .	بأمر من السرمدى ... تعالوا الى بيت بثل (Bethel) اذهبوا بخطاياكم ، كوموا الخطيئة فوق الخطيئة عند جلجال (Gilgal)

ف١٠ انهم فى الباب يبغضون المنذر ويكرهون المتكلم بالصدق •

ف١١ لذلك من أجل أنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح بنيتم بيوتا من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها وغرستم كروما شهية ولا تشربون خمرها •

ف١٢ لأنى علمت أن ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة أيها المضايقون البار الآخذون الرشوة الصادون البائسين فى الباب •

ف٢١ بغضت كرهت أعيادكم ولست ألتذ باعتكافاتكم •

ف٢٢ انى اذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت اليها •

ف٢٣ أبعد عنى ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع •

ف٢٤ وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم •

ملحوظة : (ف اختصار فقرة)

وعلى الدوام ، قدموا القربان فى الصباح ،
وكل ثالث يوم قدموا عشوركم ،
احرقوا عجينكم تقدمة شكر ،
وأعلنوا عطاياكم من ارادة حرة
ألا فاجعلوها علانية •
لأنكم تحبون ذلك يابنى اسرائيل
فأنتم الذين تجعلون العدالة شيئا مرا،
أيها الواطئون الشريعة ،
المبغضون رجلا ينذركم ،
النافرون ممن هو صادق معكم ،
لهذا ــ ولتحطيمكم الضعفاء ،
ولاكراهكم لهم أن يعطوكم الحب ،
تبنون البيوت من الحجر ،
ولكن لن تسكنوها ،
وتزرعون الكروم ،
ولكن لن تشربوا منها خمرا •
أعرف أن ذنوبكم كثيرة ،
وخطاياكم وافرة ،
يا أيها المنتهرون للصادقين ، والآخذون للرشوة ،
والصادون المساكين عن الحق ،
أعيادكم المقدسة؟ أبغضها ، أحتقرها ،
قرابينكم ؟ لن أشم دخانها ،
تقدمون لى هداياكم؟ لن أرتضيها ،
تقدمون لى الذبائح ؟ لن أنظر اليها ،
كفوا عن الترانيم لى ،
لن أستمع الى ربابكم ،
لا ، فلتجر العدالة كالماء العذب والبر كنهر دائم •

والحق أن فكرة الألوهية فى الدين اليهودى ، من حيث هو دين ، خالصة من كل تعدد ، فالله واحد أحد ، هو وحده الخالق ، وهو وحده الذى يجب أن يتوجه اليه الانسان ، ليس هناك واسطة بين الانسان وبين ربه ، الذى يجب عليه أن يعبده ، وأن يطيعه ، وأن يتبع الشريعة والمناهج التى بشر بهـا الأنبياء الذين أرسلهم هذا الاله ، لئن سلك هؤلاء الأنبياء مسالك مختلفة الا أنهم جميعا أصروا على حقيقة واحدة هى وحدانية الله ، هذه حقيقة اتفق عليها الأنبياء منذ موسى الى آخر أنبياء اليهود •

وعلى الرغم من ذلك فان تصور الاله عندهم تطور مع تطور حياتهم ، رغما من أنه ظل الها واحدا ، فهو اله حرب ـ كما جاء فى الأسفار الخمسة ـ يحض على الغزو والاستغلال ، ولا تقف عقبة أمامه الا أزيلت بقسوة ، وتصبح الارض المفتوحة وبعد التسلط عليها ملكا له وحده ، ثم تطور هذا التصور للاله بعد الاستقرار فى أرض كنعان (فلسطين) الى أنه اله يحمى اليهود من أعدائهم بطريقة سلمية ، ثم تطور اله بنى اسرائيل فأصبحوا يتصورونه بعد الأسر البابلى فى كل مكان ، مع شعبه الذين أسروا فى الشمال وفى الجنوب وفى الشرق • أما صفاته فى اليهودية فهو اله متعال حاكم للعالم ، لا يعلل ولا يوصف ، وقادر على كل شىء ، وهى صفات يؤمن بها الاسلام أيضا • ويجب ألا يغيب عن بالنا أمر هام هو أن العقيدة اليهودية ـ كمـا بشر بها الأنبيـاء والرسل شىء وتصور الاسرائيليين وعقائدهم شىء آخر ، ذلك لأن بنى اسرائيل كانوا قوما اعتنقوا الى جانب التوحيد عقائد باطنها التعدد ، (Polydaemonistics) كانوا نتأثرهم بمن حولهم من الأمم الوثنية ، وذلك حينما يزول عنهم تأثير الأنبياء ، ونحن نجد شكوى مرة من هذا الاتجاه ومحاولات لارجاعهم الى العقيدة السليمة • وهذه العقيدة هى ـ كما يقول الدكتور بوكيه فى كتـابه « الدين المقـارن » (ص ٢١٣) التركة التى ورثتها المسـيحية وأساس عقيدة المسيحية والقـاعدة لكل السلوك والخلق المسيحى ، ولا يعنينا هنا محاولة الدكتور بوكيه التوفيق بين هذه الحقيقة التاريخية وبين المسيحية كما وردت فى العهد الجديد ، وانما نريد أن نبين بالنصوص أمرين هما صفات الله والاقرار بعدم مبالاة بنى اسرائيل بشريعة موسى والأمر الثانى هو عقيدة المخلص •

من سفر دانيال الاصحاح ٩/ من ٣ ـ ١٥ تبين جانبا من صفات الله وضلال بنى اسرائيل :

(... فوجهت وجهى الى الله السيد طالبا بالصلاة والتضرعات بالصوم والمسح والرماد ، وصليت الى الرب الهى واعترفت وقلت أيها الرب الاله العظيم المهوب حافظ العهد والرحمة لمحبيه وحافظى وصاياه ، أخطأنا وأثمنا وعملنا الشر وتمردنا وحدنا عن وصاياك وعن أحكامك ، وماسمعنا من عبيدك الأنبياء الذين باسمك كلموا ملوكنا ورؤساءنا وآباءنا وكل شعب الأرض ، لك يا سيد البر . أما لنا فخزى الوجوه كما هو اليوم لرجال يهوذا ولسكان أورشليم ولكل اسرائيل القريبين والبعيدين فى كل الأراضى التى طردتهم اليها من أجل خيانتهم التى خانوك اياها ، ياسيد لنا خزى الوجوه لملوكنا لرؤسائنا ولآبائنا لأننا أخطأنا اليك ، للرب الهنا المراحم والمغفرة لأننا تمردنا علية ، وما سمعنا صوت الرب الهنا لنسلك فى شرائعه التىجعلها أمامنا عن يد عبيده الأنبياء ، وكل اسرائيل قد تعدى على شريعتك وحادوا لئلا يسمعوا صوتك فسكبت علينا اللعنة والحلف المكتوب فى شريعة موسى عبد الله لأننا أخطأنا اليه ، وقد أقام كلماته التى تكلم بها علينا وعلى قضاتنا الذين قضوا لنا ليجلب علينا شرا عظيما ما لم يجر تحت السماوات كلها كما أجرى على أورشليم ، كما كتب فى شريعة موسى قد جاء علينا كل هذا الشر ولم نتضرع الى وجه الرب الهنا لنرجع من آثامنا ونفطن بحقك ، فسهر الرب على الشر وجلبه علينا لأن الرب الهنا بار فى كل أعماله التى عملها اذا لم تسمع صوته) .

ومن سفر دانيال الاصحاح السابع من ١٣ ــ ١٥ جاء عن عقيدة المسيح المنتظر (Messiah, God's Vice Gerent) مايلى :

(كنت أرى فى رؤى الليل واذا مع سحب السماء مثل ابن انسان أتى وجاء الى القديم الأيام فقربوه قدامه ، فأعطى سلطانا ومجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدى مالن يزول وملكوته ما لا ينقرض) .

وهذه العقيدة التى يرى الباحثون أن اليهود أخذوها عن الفرس وهم فى الأسر قد لعبت دورا هاما فى التاريخ الدينى للشعوب الشرقية التى تعيش فى الشرق الأوسط ، واتخذت صورا مختلفة لتتفق مع البيئة وأوضاع الناس ، لتحقق أهدافا مبتغاة ، وهى من أسس عقيدة الروافض فى القرن الثانى الهجرى ، وانتقلت بعد ذلك الى غيرهم فى العالم الاسلامى فكان المهدى المنتظر فى عصور مختلفة .

وأريد أن أختم هذا العرض للعقيدة اليهودية بنظرة اليهود الى

الدار الآخرة ، التي يؤمن بها المسلمون والمسيحيون على حد سواء .
ومن الطريف أن أسوق رأى الكتاب العرب فى هذا الموضوع ، ولعل أشمل ماورد ماجاء بتاريخ أبى الفدا ص ۸۷ ، وهو قول يشاركه فيه غيره من كتاب الفرق والقدماء ، قال : « وليس فى التوراة ذكر القيـــامة ولا الدار الآخرة ولا فيها ذكر البعث ولا الجنة ولا النار ، وكل جزاء فيها فانما هو معجل فى الدنيا ، فيجزون على الطاعة بالنصر على الأعداء وطول العمر وسعة الرزق ، ويجزون على الكفر والمعصية بالموت ومنع القطر والحميات ، أن ينزل عليهم بدل المطر الغبار والظلمة . وليس فيها ذم الدنيا ولا الزهد فيها ، ولا صلاة معلومة ، بل الأمر بالبطالة والقصف واللهو» . وهذا التصور ليس بعيدا عن اليهودية ، لأنهم قليلا ما أشاروا الى حياة أخرى بعد الموت ، كما أنهم لم يوردوا شيئا فى أسفارهم عن الخلود فى الحياة الآخرة ، لأن الثواب والجزاء يصيبان المرء فى حياته ، ولم تذهب اليهودية الى فكرة البعث الا بعد أن فقدوا الأمل فى استعادة سلطانهم على الارض ، ومن ثم فهى فكرة متأخرة فى تاريخ اليهودية .

(ج) التلمود :

وقبل أن نتحدث عن التلمود يجب أولا التمييز بين التلمود وبين العهد القديم ، وثانيا بيان مايقصد بكلمة التلمود . أما العهد القديم فهو الذى يضم هذه الأسفار التى كانت فيما ترى اليهودية ثمرة الوحى ، أعنى الشريعة والتعاليم المدونة الآتية عن طريق يهوه الى بنى اسرائيل أو شعبه كما يزعمون ، وأما التلمود فهو هذه الأحاديث الشفوية التى سجلت بعد ذلك ، والتى كانت ثمرة النظر ودراسة الأسفار التى جاءت عن يهوه ، وهذه الدراسة وصلت الى صورتها الكاملة فى الفترة التى تلت سقوط بيت المقدس أى بعد سنة ۷۰ م ، وهذه الفترة تنقسم الى ثلاث مراحل : الأولى مرحلة المعلمين (Tannaim) وكانوا جميعا من الفريسين (Pharisees) ، الذين أقاموا بموضع بالقرب من يافا ، وأسسوا مدرستهم بزعامة يوحنا بن زكا (Johanan ben Zakkai) وخلفائه من بعده ، ولقد أتم اثنان من هذه المدرسة التلمود الفلسطينى المطبوع الآن فى مجلدات من أربعة الى ثمانية ، أما المرحلة الثانية فهى الخاصة بالموضحين (Amoraim) وفيها كان التأثير البابلى وذلك حوالى عام ۲۲۰ م ، وفيها تم جمع التلمود البابلى فى مدرســة ســورا (Sura) أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهى مرحلة المقـــررين والتى فيها أكمل التلمود ، وتمتاز هذه المرحلة بالبت فى المسائل الهامة والبارزة فى

أمور اليهود ، وهذه المرحلة انتهت حوالى سنة ٥٥٠ م ، ومنذ ذلك الوقت لم يضف شيء الى التلمود ، وتلت هذه الفترة من تاريخ التلمود فترة أخرى خاصـــة بزعامة مدرستين ببـــابل ، وعرفت هـــذه الفترة بعصر الماجدين (Geonim) وهو اللقب الذي أضفي على رؤوس هـــاتين المدرستين ، وهذا العصر بدأ من أواخر القرن السادس الميلادي الى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، وفيه اعترف اليهود بزعماء هاتين المدرستين مرجعا دينيا لهم ٠

ويقول الدكتور بوكيه ان فترة الماجدين ، وما أثر عن هؤلاء من نظرات دينية وأساطير هى التى غذت محمدا (صلى الله عليه وسلم) ليظهر دين الاسلام ، الذى يقوم كالدين اليهودى على التوحيد ، هذه الدعوى التى يسوقها الدكتور بوكيه والتى ساقها من قبله المستشرقون قد فندها المؤرخون ، ولست فى حاجة الى التدليل بعد ذلك على بطلان هذا الرأى ، خاصة وأن الدكتور بوكيه شديد التعصب على كل ما يعارض المسيحية ، أضف الى ذلك أنه رجل من رجال الدين المسيحى تربى وتعلم فى المدارس الدينية ، ومتأثر بالجو الذى عاش فيه ، ولكن على الرغم من هذا كله وعلى الرغم من تفاهة هذه الدعوى فالبحث العلمى النزيه يوجب أن نقول أن الصلة التجارية التى كانت بين العرب وبين الشام كانت تقوم على فترات خاطفة ، لا يمكن مهما سلمنا بامكان التأثير أن يتأتى منها هذا التراث الاسلامى الهائل ، الذى سنتحدث عنه فى موضعه من هذا الكتاب ، ذلك لأن الحقائق التاريخية تدل بوضوح تام أن فكرة التوحيد بالصورة التى أتى بها القرآن لم تكن موجودة عند العرب قبل ظهور نبى الاسلام ، ونحن اذا نظرنا الى مجتمع مكة نجده مجتمعا لا يأخذ الا بالوثنية ، واذا فرض وكان هناك آنئذ بعض الأفراد الذين رفضوا وثنية هذا المجتمع فان صورة التوحيد لم تكن واضحة فى أذهانهم ، كانت صورا دينية غامضة ليست منسوبة لدين معين سموها الحنيفية ، ومن ثم فلا سبيل الى اقامة الدعوى على هذا الأساس ، واذا نظرنا الى الجماعة اليهودية فى يثرب نراهم يهودا بالاسم عربا بكل مايدل عليه هذا اللفظ ، كانوا عربا من حيث التفكير ومن حيث منهج الحياة ، وليس أدل على مقدار جهلهم بالعقيدة اليهودية من وصف القرآن لهم ، وصفهم القرآن (النساء ٥١) فقال تعالى (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) ، فيهود يثرب بالتأكيد كانوا وثنيين فعلا ولا يعرفون من أمور دينهم مايجعلهم فى مستوى يتميز عن غيرهم ،

أضف الى ذلك أنه لايمكن أن يزعم زاعم ان كانت لهؤلاء اليهود العـــرب صلات قوية كانت أو ضعيفة باليهودية فيبابل ، بل ان المنطقة الشرقيه من الجزيرة العربية ــ وهى أقرب المناطق لمركز النفوذ الدينى اليهودى ــ خلت من تاثر أهلها باليهودية ، ومثلهم فى جهلهم باليهوديه مثل جهل العرب فى شرقى الجزيرة وغربيها بهذه العقيدة وبلسان اليود • وبتعبير أدق بلغة كتبهم الدينية ، فكيف اذن اطلع محمد (صلى الله عليه وسلم) أو غيره من العرب على هذا الدين ؟ وخاصة أن الأمية كانت فاشية فيهم فضلا عن تعصبهم الشديد لعروبتهم ولكل ماهو عربى ، واذا فرضنا امكان الأخذ عن اليهودية البابلية بدا أمامنا تناقض عجيب ، أن نبى الاسلام الأمى المستقر بمكة يتأثر ، والذين يقرءون ويهاجرون ويتصلون بالمناطق المختلفة لا يأخذون ولا يتأثرون ، وان أثر اليهودية يخلو من المنطقة الشرقية ويظهر فى أقصى الغرب فى شخص واحد أمى ولا يعرف لغة غير لغته ، وبلا معلم يلقن ! ونحن اذا غضضنا النظر عن البيئة العربية فى الجاهلية وعدم ملاءمة الدينين اليهـــودى والمسيحى لطبائع العرب وأخلاقهم ونظرنا الى العهد القديم نفسه نجده فى كل سفر من أسفاره يردد الشكوى المرة من اهمال بنى اسرائيل لدينهم ، فكيف يتفق لمثل هذا الشعب ــ الذى يعد نفسه شعب الله المختار ويرى أن غيره غير أهل للانتماء لهم ــ أن يتحمس فجأة لدينه فلا يعلم يهود يثرب ولا أحدا من غير اليهود سوى نبى الاسلام ، مهدرا فى سبيل ذلك تقاليده التى عاش بها مئات السنين !! حقا انها لدعوة باطلة بل انها لخرافة أملاها الحقــد أو التعصب ، وكل الحقائق العلمية والدراسة النزيهة تنفيها نفيا قاطعا ، وانى اذ أورد هذا القول لا أهدف الى الدفاع عن الاسلام ، وانما أسوقه دفاعا عن الحق ومناهج البحث النزيه •

وبعد فانا نقدم بعض المنتخبات من المقالات الرئيسية فى التلمود البابلى وهى ثلاث قطع :

١ ــ القطعة الأولى مجهول ناسخها ، وهى من أقوال الربابنة اليهود ، وهى تتضمن اضافات واضحة من القصص الشعبى الى قصص سفر التكوين •

٢ ــ والقطعة الثانية من حديث عن عيد الفصح (عيد اليهود الكبير) تبين الاعتقاد فى العفاريت •

٣ ــ والقطعة الثالثة منحديث باباكاما (Baba Kamma) تتصل بالقانون المدنى ، جزؤها الأول من المشنا (Mishnah) وهو حديث

فى الشريعة ، والجزء الثانى ويسمى جيمار (Gemara) وهو تعليق على المشنا فهو تعليق على تعليق .

القطعة الأولى

من أقوال ربابنة المشنا أى الحديث ، وهى معدة للصلاة بها فى مساء أيام السبت ، وكان من عادة يهود أسبانيا أن يترنموا بها فى صباح أيام السبت على عكس غيرهم من اليهود .

الفصل الخامس

المشنا ١ ـ بالكلمات العشر (الألهية) خلق العالم ، وعلام (يهدف) هذا الخبر (الانجيلى) بيانه ، لأنه من المؤكد أن خلقه ممكن بكلمة واحدة ؟ ولكنه ذلك العقاب الذى يلزم به الأشرار الذين يدمرون العالم الذى خلق بعشر كلمات ، وانه لاعطاء الجزاء الأوفى للأبرار الذين يحافظون على العالم الذى خلق بعشر كلمات .

المشنا ٢ ـ من آدم الى نوح عشرة أجيال ، وذلك لاظهار على أى نحو طال ما قاسى معه ، لأن كل هذه الأجيال كررت ما يغضبه حتى أرسل اليهم مياه الطوفان .

عشرة أجيال من نوح الى ابراهيم لاظهار على أى نحو طال ما قاسى معه ، لأن كل هذه الاجيال كررت ما يغضبه حتى جاء ابراهيم أبونا وحظى بثوابهم جميعا .

المشنا ٣ ـ بعشر محن اختبر ابراهيم أبونا وثبت فيها جميعا لاظهار على أى نحو عظم حب ابراهيم أبينا (عليه السلام) .

المشنا ٤ ـ عشر آيات صنعت من أجل آبائنا فى مصر وعشر فى البحر (الأحمر) ، أصاب الواحد المقدس سبحانه المصريين بعشرة طواعين فى مصر وعشرة فى البحر (الأحمر) .

يقال ان آباءنا اختبروا الواحد المقدس سبحانه عشر مرات ومع ذلك فانهم لم يختبرونى هذه المرات العشر ولم يستمعوا الى قولى .

المشنا ٥ ـ خصت آباؤنا بعشر آيات فى الهيكل(١) لم تجهض امرأة من رائحة اللحم المقدس (الذبيحة) (٢) لم يفسد اللحم المقدس أبدا (٣) لم تر ذبابة فى المذبح (بيت الذبح) (٤)

لم يأت الكاهن الأكبر فى يوم الكفارات شخص غير طاهر (٥) لم تطفىء الأمطار نار خشب المحرقة (٦) لم تبدد الريح عمود الدخان (٧) لا عجز وجد فى العشر (Omer) أو فى الرغيفين أو فى خبز الوجوه (٨) وقفوا محتشـــدين ومع ذلك كانوا يسجدون تفصل (بينهم) مسافات واسعة (٩) لم يؤذ قط ثعبـــان أو عقرب فى بيت المقـــدس • (١٠) لم يقل أمرؤ لصاحبه : ان المكان هو من الضيق لأبقى الليـــل فى بيت المقدس » •

المشنا ٦ ـ خلقت عشرة أشياء قبل شفق السبت ، وهذه هى(١) فم الأرض (٢) فم البئر (٣) فم الحمارة (٤) قوس قزح (٥) المن (٦) عصا (موسى) (٧) الراعى (Shamir) (٨) المتن (٩) الكتابة و (١٠) الموائد • ويضـــيف البعض قبر موسى معلمنا وكبش ابراهيم أبينا ، ويضيف البعض أيضا (الأرواح) المهلكة والملقط (tongs) أيضا مع الملقط •

القطعة الثانية : فى عيد الفصح (Pessahim = Passover)

تعليمات لتنفيذ القواعد الخاصة بالفصح ، التى جاءت فى سـفر الخروج (الاصحاح الثانى عشر) •

مشنا (حديث) : من ليلة الفصح الى نهاية (Minhah) يجب على المرء ألا يأكل حتى يحل الليل وكذلك الفقير يجب عليه ألا يأكل (فى ليلة الفصح) حتى يذهب للنوم فيتحتم أن يعطى مالا يقـــل عن خمس كؤوس (من الخمر) وان كان يأخذ صدقة (relief) من صحن الاحسان•

اقتباس من الجمارا (Gemara)

حبس (الاطعمة) فى بيت يؤدى الى الفقر ، لأن الناس يقولون «الذى يحبس سلة (الطعام) يضع طعامه فى جبس » ، على أن هذا يتعلق بالخبز فحسب ، وهو مسموح به فى اللحم والسمك لأن هذا هو المسلك المعتاد (لحفظها) ، والنخالة فى بيت تؤدى الى الفقر ، والفتـــات فى بيت تؤدى الى الفقر ، لأن الشياطين تستقر عليها فى ليالى السبت وفى ليالى اليوم الرابع (الأربعاء) •

الجن المنوط به القوت يسمى نقثه (Neki.ah) • والجن المنوط به الفقر يسمى نبل (Nabal) (الاثم أو النجس) ، والقذر على فم الجرة يؤدى الى الفقر ، والذى يشرب الماء من صحن يتعرض لســـحابة العين (Cataract) ، والذى يأكل الجرجير قبل أن يغسل يديه (أولا) يصاب

بالخوف ثلاثين يوما ، والذى يحجم ولا يغسل يديه سيصاب بالخوف سبعة أيام ، والذى يقص شعره ولا يغسل يديه سيصاب بالخوف ثلاثة أيام ، والذى يقلم أظافره ولا يغسل يديه سيصاب بالخوف يوما واحدا دون أن يدرى ما يخيفه • وضع المرء يده فى أنفه خطوة للخوف ، ووضع المرء يده على جبهته خطوة للنوم(١) •

ورد : اذا احتفظ بالطعام والشراب تحت السرير تستقر فيهمـــا روح شريرة ولو غطيا بأوعية حـــديدية • علم ربانبونا : يجب على المرء الا يشرب الماء سواء اكان ذلك فى ليالى الأيام الرابعة (أيام الأربعاء) أو فى ليالى السبت ، واذا شرب كان دمه على رأسه بسبب الخطر ، وما هو الخطر ؟ هو روح شريرة ، ولكن اذا عطش فما علاجه ؟ فليرتل الكلمات السبع التى فاه بها داود على الماء ثم شرب ، لأنه يقال : صوت الرب على المياه ، اله المجد أرعد ، صوت الرب على المياه الكثيرة أيضا ، صوت الرب قوى ، صوت الرب ملىء بالجلال ، صوت الرب مكسر الأرز ، بلى الرب يفتت أرز لبنان •••• صوت الرب يقدح لهب نار ، صوت الرب يزلزل البرية ، يزلزل الرب برية قادش ، صوت الرب يولد الأيل ويجعـــل الغابات جرداء ، وفى هيكله الكل قائل : المجد(٢) ، وهو اذا لم (يقل ذلك) فليقل : (Lul, sha fan, anigron, anirdafin) « أسكن بين النجوم وأمشى بين الناس المهزولين والممتلئين » ، واذا لم (يقل ذلك) وكان معه رجل وجب أن يثيره ويقول له « كذا وكذا ابناء كذا وكذا أنا ظمآن الى الماء » وبذلك يستطيع أن يشرب ، فاذا لم يقل ذلك نقر على غطاء الجرة وبذلك يستطيع أن يشرب ، واذا لم يفعل ذلك ألقى شيئا فيها ثم يشرب • علم ربانيونا : يجب على المرء ألا يشرب الماء من الأنهار أو الغدران ليلا ، واذا شرب كان دمه على رأسه بسبب الخطر ، وما هو الخطر ؟ خطر العمى ، ولكن اذا كان عطشان فما علاجه ؟ اذا كان معه رجل وجب أن يقول له « كذا وكذا ابن كذا وكذا أنا ظمآن الى الماء » فاذا لم يكن فليقل لنفسه « يا كذا وكذا قالت لى أمى : أحذر من شبريرى

---

(١) واضح جدا أن القطعة الاولى تصور لون مايمليه الخيال لاضافة ظلال على صورة العقيدة لتبدو فى مظهر خلاب يرضى آمال المؤمنين بالعقيدة فيها .

أما القطعة الثانية فهى بلا جدال متأثرة بالاساطير الدينية التى جاء بها الخيال الملون للعقائد الدينية .

(٢) هذه الترجمة روعى فيها المقابلة بالمزمار التاسع والعشرين لداود مع اختلاف يسير حتمه النص الانجليزى .

(shabrire) : شبريرى ، بريرى ، ريرى ، يرى ، رى ، أنا ظمآن الى الماء فى كوب زجاج أبيض ٠

القطعة الثالثة : حديث بابا كاما (Tractate Baba Kamma)

هذا الحديث خاص بالقوانين (Nezikin) ، وهى الواردة فى سفر الخروج فى الاصحاح الحادى والعشرين ٠

مشنا — اذا نطح ثور امرء وترتب على ذلك القتل ، فان كان نطاحا (mu'ad) فالمسئولية دفع الفدية ، واذا كان أليفا (Tam) فلا مسئولية لدفع الفدية ، وفى كلتا الحالتين (يرجم) الثور الى الموت ، ونفس (الحكم يقضى به) فى حالة الولد (الصغير) ، ونفس (الحكم يقضى به) فى حالة الابنة (الصغيرة) ، ولكن اذا نطح الثور عبدا أو أمة (ونتج القتل) فالتعويض يتحتم دفعه بمقدار ثلاثين سيلا (sela) ، سواء أكان العبد المقتول يستحق مائة مانه (maneh) أو لا يستحق أكثر من دينار(١) ٠

جيمارا (تعليق على هذا الحديث) : ولكن مادام الأمر دائما فى حالة (Tam) متحتم فيها القتل (بالذبح) فعلى أى وجه يتسنى اعلانها (Mu'ad) ، قال ربه (Rabbeh) نعالج القضية بتقدير احتمـــال قتله ثلاثة أنفس ، على أن الحاخام أشى (R. Ashi) قال ان مثل هذا الاعتبار لا يقوم على أساس ، فنحن نعالج القضية هنا على أن الثور نطح وعرض حياة ثلاثة أنفس للخطر ، على أن الحاخام زبد (R. Zebid) قال ان (القضية واحدة) على فرض أنه قتل ثلاثة من الحيوانات ٠ ولكن هل الثور (الذى أعلن أنه) نطاح (mu'ad) هو بالنسبة للحيوانات كمـا هو بالنسبة للناس؟ ويذهب الحاخام شيمى (R. Shimi) الى أن (القضية واحدة) على فرض أنه قتل ثلاثة من الكفار ٠ ولكن هل الثور (الذى أعلن أنه) نطاح هو نطاح بالنسبة للكفار كما هو نطاح بالنسبة للاسرائيليين؟ يجيب عن ذلك الحاخام سيمون بن لاكش (R. Simeon b. La Kish) أن (القضية واحدة) على فرض أنه قتل ثلاثة أشخاص تعرضوا فعـــلا لاصابات عضوية قاتـــلة ٠ ولكن هل الثور (الذى أعلن أنه) نطـــاح (mu'ad) بالنسبة لأشخاص أصيبوا باصابات عضوية قاتلة نطـــاح

---

(١) راجع هذه الاحكام فى العهد القديم سفر الخروج الاصحاح ٢١/من ٢٨ — ٣٣ ٠

أيضا بالنسبة لأشخاص فى حالة سليمة ؟ يجيب عن ذلك الحاخام بابا (R. Papa) أن (القضية واحدة حيث) ان الثور (فى الحالة الأولى) قتل (شخصا سليما) ثم فر الى المرعى ثم قتل أيضا (شخصا سليما) وبالمثل فر الى المرعى ، وقال الحاخام آحا (R. Aha) بن الحاخام اقا ان (القضية واحدة) لأنه لو فرض (أن شاهدين ادعيا غيبة ثلاثة أزواج من الشهود الذين كانوا شاهدوا حالات النطح الثلاث الأولى فى كل حالة وحدث أنه (بعد تقديم الشهادة بالنسبة لمرة النطح الرابعة أن دعوى الغيبة بالنسبة لمرات النطح الثلاث الأولى سقطت لأن) زوجين جديدين من الشهود أثبتا غيبة نفس الشاهدين اللذين ادعيا الغيبة (ضـــد مجموعات الشهود الثلاث الذين كانوا قد شاهدوا حالات النطح الثلاث) • وبعد فهذا الشرح كاف (اذا كانت الأيام الثلاثة المطلوبة) لاعلان الاعتياد (Mu'ad) المشار اليه (عن نطح) الثور (وذلك للتأكيد أنه ميل فيه متأصل) ، ولكن اذا كانت الأيام الثلاثة مطلوبة لتحذير صاحبه فما يمنعه أن يحتج (ضد الادعاء) قائلا « لست واثقا (أن الدليل قاطع بالنسبة للنطحات الثلاث الأولى » ؟ (هذا مالا سبيل اليه لأنه) اذا أمكن فقد قيل (عن طريق الشاهدين الأخيرين بالذات) وأنه حينما كان الثور (ينطح و) يقتل كان حاضرا (وشاهد كل حالة) ، وقال رابينا (Rabina) (حالة الثور الذى لم يرجم بعد أى من النطحات الثلاث القاتلة تكون) وان عرف صاحب الثور (فان الشاهدين اللذين شاهدا مرات النطح الثلاثة الأولى، لم يتحققا فى ذلك الوقت من شخصية الثور (أيضـــا) • ولكن ماذا يستطيع صاحبه أن يفعل (وعندما لم يتحقق من الثور الذى نطح وقتل)؟ (يدان بسبب) امكان قولهم له » معرفتك أن ثورا نطاحا بين قطيعك يوجب عليك حراسة قطيعك كله •

ويعلق بوكيه على هذا الفقه اليهودى بأنه يمكن رده الى تشريعات حمورابى لما بينهما من تشابه ، ويتخذ من ذلك سلما الى قوله أن ما بينه وبين أقوال الفقه الاسلامى من تشابه ما يدل على تأثر الفقه الاسلامى بالفقه اليهودى المتأثر بشريعة حمورابى ، ويخطىء بوكيه فى هذا القول لأن الأمر عند المسلمين يقوم على أساسين : الأول ما جاء به الوحى أى ما ورد فى القرآن وماجاء فى السنة والأساس الثانى ما جاء عن اجتهاد الأئمة اعتمادا على ما ورد مجمــلا فى القرآن والســنة أو على القيــاس ، أما الأساس الأول فمادام مجيئه عن وحى فلا يترتب على ذلك حتما انفراد القرآن به ، لأنه قد سبقته كتب وسبق محمدا (صلى الله عليه وسلم)

رسل ، ومن ثم فلا يمتنع ورود تشريعات فى القرآن جاءت فى غيره مادام ورودها عن وحى ، لأن المصدر واحد وهو الله ولقد صور القرآن هذا فى قوله (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير(١) ، أما الاساس الثانى فتراث الفكر الانسانى تركة للانسانية تأخذ منها ما ينفعها فى حياتها فأى عيب فى هذا وأى ضير يلحق الاسلام كدين ؟ اعتقد أنه دليل مادى على صدق ايمان المسلمين بأن القرآن منزل من عند الله ، ولا مفر من صدق هذه النتيجة اذا صدق القول بأن ما جاء فى القرآن ورد فى الكتب المقدسة الأخرى عن طريق الوحى ، وخاصة ما تشابه من تشريع قد ورد فى سفر الخروج الذى يؤمن اليهود بأن موسى عليه السلام جاءهم به عن طريق الوحى ، فاذا أضفنا الى هذا أن هذا السفر من الأسفار المعتمدة عند المسيحيين التى يتكون منها العهد القديم ، وهم يؤمنون به ، وهذه التشريعات تبدأ فى سفر الخروج فى الاصحاح الحادى والعشرين بالقول باعتبار صدوره من الله «وهذه هى الأحكام التى تضع أمامهم » ، فما هذا الهراء الذى يقوله المستشرقون ورجال علم الأديان ! ما بالهم يسلمون للعهد القديم مالا يســـلمون به للقرآن مادام المصدر لكليهما واحدا !! ثم أين هذا الدليل العلمى الذى يقطع بأن بعض تشريعات حمورابى لم تأت أول ورودها عن طريق وحى ؟ خاصة وأن المسلم به علميا أن بعض هذه التشريعات كان موجودا قبل حمورابى كما ذكرنا ، وأن فضل حمورابى جمعها وفرضها .

د ـ كتاب الصلوات عند اليهود

يقول بوكيه ان لهذا الكتاب أهمية كبرى فى تاريخ الأديان وفى تاريخ العبادة المسيحية بوجه خاص ، لأنه كما يرى البوجن (Elbogen) أقدم صبغة للعبادة الدينية ، وذلك بغض النظر عما فيه من مادة دينية يتعبد بها بانتظام لا فى أيام السبت والأعياد وحدها بل وفى جميع الأيام على مدار السنة . وهذا الكتاب مجلد ضخم كما يبدو فى طبعته التاسعة الانجليزية العبرية ، وهو يحتوى على صلوات تتلى فى مناسبات مختلفة، تتضمن نصوصا من العهد القديم ومزامير ، ويحتوى أيضا على أقوال عن حاخامات اليهود ، وعلى طقوس المعبد فى أيام السبت وفى الأيام العادية ، وفى رأس السنة العبرية واليوم الكبير (يوم الكفارة) ، وعلى الصلوات

---

(١) البقرة آية ٢٨٤ .

للأعياد الخاصة والصيام ، وعلى النصوص التى تقال فى الختان والزواج وفى ميلاد طفل وزيارة مريض ودفن ميت .. الخ . واليك نصوصا من هذا الكتاب .

أ - ترنيمتـــان

(ا) ترنيمة أدن علم (Adon Olam) - اله العالم أو الخالد ويقال انها كتبت فى زمن هو بين أواخر القرن السادس الميلادى والنصف الأول من القرن الحادى عشر بعد الميلاد ، ومؤلفها مجهول . (ب) ترنيمة يجدل (Yigdal) وهى منظومة تعرض ثلاثة عشر أساسا للعقيدة اليهودية وضعها مأمونيدس (Maimonides) اليهودى الاسبانى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وهو الذى توفى سنة ١٢٠٤ م ، صاغ هذه الأسس شعرا فى هذه الترنيمة يهئيل بن باروخ(Yehiel b. Baruch) فى القرن الرابع عشر الميلادى ، نظمها على طريقة نظم الشعر العبرى فى القرون الوسطى .

(أ) - ترنيمة أدن علم Adon Olam **ويتبعها صلاة**

رب الوجود الذى حكم ،
قبل تكوين الأرض والسماء ،
حينما كان خلق العالم تفضل به ،
ثم أعلن اسمه الملك

❋

وفى آخر الزمان سيكون ،
الجبار هو الوحيد الحاكم ،
الذى كان والذى يكون والذى سيكون دائما ،
ثابتا على عرشه المجيد

❋

وهو الواحد ، قدراته فائقة
متعال ، لا يدرك كنهه عمقا وارتفاعا ،
من غير بداية ، من غير نهاية ،
له الملك والسلطان والقوة .

هو ربى ومخلصى ،
صخرنى فى أحزان اليوم الأسود ،
عون وملجأ لى ،
حينما أصلى فقدحى ملىء بالنصيب الـكامل ٠

❋

روحى فى يده المقدسة ،
ألا أوصيه : لن أوذى
أودع جسمى عنده ،
لا أخاف شرا : فالله قريب

يا ربى ، النفس التى وهبتها لى طاهرة ، أنت خلقتها ، أنت كونتها ، أنت جعلتها تتنفس فى ، أنت أودعتها فى ، وأنت ستأخـــذها منى ، مستبقيا اياها لى لليوم الآخر ٠ وما دامت النفس فى فسأظل أشكر لك أيها السيد ربى ورب آبائى ، ملك كل العوالم ، رب كل النفوس ، تباركت أيها الرب الذى تحتفظ بالنفوس للأجسام الميتة ٠

(ب) ـ ترنيمة Yigdal يجدل

نسبح الله الحى ونعظمه ونعبده ،
كان ، وكائن ، وسيكون على الدوام

❋

لا وحدة مثل وحدته ممكنة
هو الخالد غير المدرك

❋

لا صورة ولا شكل للواحد اللا جسدى ،
قدس الأقداس فوق التشبيه ٠

❋

كان ، قبل أى شىء فى السماء أو الأرض ،
لكن وجوده ليس له تاريخ ولا ميلاد

❋

أعلن أنه رب الكون ،
منبئا سلطانه للجميع أن يده المصورة

منح هبة النبوة لأولئك
الذين بهم باهى ، والذين أحبهم واختارهم

*

لا نبى وجد الى الآن احتل مكانة
موسى الذى رأى الله وجها لوجه ٠

*

عن طريقه (المؤمن فى هيكله) الرب
منح شريعة الحق لاسرائيل

*

شريعة الله لن تتبدل ولن تتغير ،
بواحدة أخرى فى مدى أقصى الزمان ٠

*

هو يعرف ويعى خطرات الانسان الخفية :
رأى نهاية الجميع قبل بداية أى شىء

*

بالحب والرحمة ينعم على الصالحين ،
ويقدر الشر على الفاسدين ٠

*

فى النهاية سيرسل رحمته ،
ليفتدى أولئك الذين يأملون ويترقبون الآخرة ٠

*

سيبعث الله الموتى للحياة ثانية ،
فالمجد لاسمه المجد على الدوام ٠

٢ ـ الشيما (The Shema)

الشيما اصطلاح مأخوذ من العهد القديم (سفر التثنية ٦/٤ ـ ٩، من كلمة شيما أى اسمع ، وهذه الشيما مكونة من ثلاث مقطوعات مأخوذة من الأسفار الخمسة الأولى من سفر التثنية ٦/٤ـ٩ ، ١١/١٣ ـ ٢١ ،

سفر العدد ١٥/٣٧ ـ ٤١ ، ولقد كانت تلاوة الشيما والصلاة التى تعقبها من الشعائر الدينية اليومية فى الهيكل ثم أصبحت عادة تتخذ فى معابد اليهود أينما كانت ، وكان الكاهن يتلو الشيما والصلاة والجمع المحتشد فى المعبد يرد عليه مكررا قوله حرفيا أو يرد بصيغة أخرى ·

تبدأ الشيما بكلمات ثلاث هى: الله، الملك الصادق (faithful King) ومن التعليل لهذا البدء القول أن أوائل حروف هذه الكلمات الثلاث بالعبرية تأتلف منها كلمة آمين ، وهناك أقوال أخرى لعلها أرجح من هذا التفسير وردت فى التلمود ، ومهما يكن من أمر فالذى يعنينا هنا افتتاح الشيما بهذه الكلمات الثلاث على أنها ليست جزء من النص وانما ملحقة بـه ·

والشيما فيما يقال تصور حقيقة دين بنى اسرائيل من حيث تفرد الله ووحدانيته والواجب الأصيل المؤسس على هذه العقيدة · واليك الشيما (نقلا عن الترجمة العربية للعهد القديم) ·

اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد ، فتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ، ولتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك ، وقصها على أولادك ، وتكلم بها حين تجلس فى بيتك وحين تمشى فى الطريق وحين تنام وحين تقوم ، واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك ، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك(١) ·

فاذا استمعتم لوصاياى التى أنا أوصيكم بها اليوم لتحبوا الرب الهكم وتعبدوه من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم ، أعطى مطر أرضكم فى حينه المبكر والمتأخر فتجمع حنطتك وخمرتك وزيتك ، وأعطى لبهائمك عشبا فى حقلك فتأكل أنت وتشبع ، فاحترزوا من أن تنغوى قلوبكم فتزيغوا أو تعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها ، فيحمى غضب الرب عليكم ويغلق السماء فلا يكون مطر ولا تعطى الأرض غلتها فتبيدون سريعا عن

---

(١) كان من عادة قدماء المصريين أن يكتبوا على مداخل بيوتهم عبارات تجلب الحظ ، وهذه العادة ظلت موجودة عند المصريين الى عهد قريب ، وهى نوع من التمائم ويظهر ان اقامة اليهود فى مصر جعلتهم يتأثرون بهذه العادة ، ومن هنا نرى الدعوة الى الكتابة على الابواب فى هذه النصوص الدينية اليهودية (راجع أيضا سفر الخروج ١٢/١٣) .

الأرض الجيدة التى يعطيكم الرب ، فضعوا كلماتى هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم ، وعلموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون فى بيوتكم وحين تمشون فى الطريق وحين تنامون وحين تقومون ، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك ، لكى تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التى أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم اياها كأيام السماء على الأرض .

وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى اسرائيل وقل لهم أن يصنعوا لهم أهدابا فى أذيال ثيابهم فى أجيالهم ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من اسمانجونى ، فتكون لكم هدبا فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعلمونها ولا تطوفون وراء قلوبكم وأعينكم التى أنتم فاسقون وراءها ، لكى تذكروا وتعملوا كل وصاياى وتكونوا مقدسين لالهكم ، أنا الرب الهكم الذى أخرجكم من أرض مصر ليكون لكم الها أنا الرب الهكم .

٣ ـ التسابيح

مجموعة التسابيح المعروفة باسم (Shemoneh 'Esreh) عددها ثمانى عشرة ، وتبدأ التسبيحة بافتتاح مأخوذ من المزمار ١٥/٥١ وهو

يارب افتح شفتى فيخبر فمى بتسبيحك

التسبيحة الأولى

عندما تتلى هذه التسبيحة فى صلاة عامة ، فانها تتلى أولا فى السر ثم تتلى جهرا بعد ذلك بقيادة الكاهن أو القارىء واليك نصها :

مبارك أنت أيها الرب الهنا ، واله آبائنا واله ابراهيم ، واله اسحاق، واله يعقوب ، الله الواحد العظيم الواحد القوى ، والواحد المقدس ، الله أكبر ، الذى يهب الرحمات المحببة ، والذى يملك كل الأشياء ، والذى يذكر أعمال آبائنا التقية ، ويعطف على ابنائهم والذى سيأتى بالمفدى لأبناء أبنائهم فى سبيل اسمه حبا فيهم ، الملك الرحيم والمخلص والمعين والواقى .

مبارك أنت أيها الرب يا واقى ابراهيم .

التسبيحة الثانية

أنت القوى أبدا أيها الرب ،
(يا باعث الموتى ، أنت قوى للخلاص)
يامن تجعل الريح تهب والغيث ينزل ،
أنت تعول الحى (بالرحمة) ، أنت تبعث الميت •

(بأفضالك العظيمة تشفى المريض وتعين الضعيف، وتنتشل الساقط، وتحل المربوطين ، وتبقى الايمان عند الذين ينامون فى التراب•ومن هو مثيلك ، سيد الأعمال العظيمة ؟ ومن يشبهك يامن تميت وتحيى وتجعل النجاة ينبعث ، فأنت صادق تبعث الموتى ؟)

مبارك أنت أيها الرب الذى تبعث الموتى •

التسبيحة الثالثة

أنت مقدس ، ومقدس اسمك ،
والآحاد المقدسة تسبح لك كل يوم ،
مبارك أنت أيها الرب الاله المقدس •

ويتلو هذه التسبيحة ما يسمى بالكدوشة (Kedushah) أى التطهير من الذنوب ، والواضح أن هذه الكدوشة متأثرة بالمسيحية أو بتعبير أدق فيها ما يدل على أنها تأثرت بالعقيدة المسيحية ، ذلك لأننا نرى العقيدة اليهودية تنظر الى الاله على أنه واحد وسبق أن ذكرنا أوصاف الاله فى هذه العقيدة ، فهو اله واحد يرسل الرسل والأنبياء ، ولكن هذه الكدوشة تتضمن نداء الله على أنه « أبونا » وهو تعبير مسيحى وخاصة الفقرتين الأخيرتين من صلاة السبت والأعياد لأن اليهود يعترفون بأنهم عبيد الله ويتجهون اليه بهذه الصفة ، ومن ثم فالتعبير بالأبوة بعيد عن خيالهم الدينى الأصيل •

واليك الكدوشة

قارىء الصلوات • سنقدس اسمك فى العالم على نحو ما يقدسونه فى أعلى السموات كما كتب بيد نبيك :
وهم نادوه الواحد مع الآخر فقالوا :
المجتمعون ــ مقدس ، مقدس ، مقدس ، رب الأرباب • جميع الأرض مليئة بمجده •

القـارىء ـ الذين هناك يقابلونهم يقولون ـ مبارك
المجتمعون ـ مبارك مجد الرب من مكانه
القـارىء ـ وفى كلماتك المقدسة مكتوب ، قائله :
المجتمعون ـ الرب يحـكم الى الأبد ، وبك يا صـهيون ، ولكل الأجيال ، سبحوا الرب
القـارىء ـ لكل الأجيال سنعلن عظمتك ، ولكل الأبدية سنذيع قداستك ، والتسبيح لك يا الهنا لن تفارق أفواهنـا الى الأبد ، لأنك اله وملك عظيم ومقدس مبـارك أنت أيها الرب الاله المقدس ٠

وفى ختام صلاة السبت أو العيد يقال :

أنت تفضلت علينا بمعرفة شريعتك ، ودللتنا على الأخذ بالشرائع الصادرة بارادتك لقد أقمت فارقا ـ أيها الرب الهنا ـ بين السـماوى والدنيوى ، بين النور والظلام بين بنى اسرائيل وغيرهم من الأمم ، بين اليوم السابع وأيام العمل الستة ، يا أبانا ، يا ملكنا أنعم على الأيام القابلة أن تقدم بالسلام علينا حتى نحجم عن كل اثم ونتطهر من كل ظلم ويظل فينا الخوف منك ٠ ألا فانعم علينا بالمعرفة والفهم والتبصر منك ، مبارك أنت أيها الرب المنعم بالمعرفة الرحيم ٠

(تسبب ـ يا أبانا ـ فى أن نعود الى شريعتك ، قربنا يا ملكنا الى عبادتك ، وعد بنا الى التوبة النصوح فى حضرتك ، مبارك أنت أيها الرب الذى تفرح بالتوبة ٠ اعف عنا ـ يا أبانا ـ فقد أثمنا ، أغفر لنا يا ملكنا فقد أخطأنا ، فأنت تعفو وتغفر ، مبارك أنت أيها الرب الذى هو رحيم وواسع المغفرة) ٠

مابين القوسين هو مانرى أنه متأثر بالمسيحية تأثرا واضـحا ، وليس فيه الروح اليهودية المألوفة ، ومن ثم فهى صلاة حديثة تدل على تأثر اليهود بعقائد الأمم المسيحية التى يعيشون بينهم ، أما اعتقاد بوكيه أنها نصوص وجدت قبل المسيح فلا دليل يؤيده ، بل كل الأدلة تنفى هذا القدم ، فذكر الاله فى العهد القـديم كله وفى جميع أسـفاره بل وفى النصوص التلمودية القديمة لايؤيد ما يذهب اليه بوكيه ، وعلى القارىء أن يعود الى ما ذكرنا فتتضح له الحقيقة ناصعة بغير حاجة الى احتمال ، ذلك لأن استخدام كلمة أب وصفـا للاله تعبير لاتعرفه اليهودية فى عصورها الأولى قبل المسيحية على الأقل ٠

والتسبيحة الرابعـــة

أنت تمنح الناس المعرفة منحا ،

وتعلم الناس أن يتبصروا ،

أنعم علينا منك بالمعرفة والفهم والبصيرة ،

مبارك أنت الذى تمنح برحمتك المعرفة ·

التسبيحة التاســـعة

باركنا ــ أيها الرب الهنا ــ فى كل أعمال أيدينا ،

وبارك أعوامنا (وأنزل الغيث والمطر على وجه الأرض) ، وارض العالم وشبعه بطيباتك ، (وأعط الكثير على وجـــه الأرض بطريق عطايا يديك الثريتين ، واحفظ وأسعد ــ أيها الرب الهنا ــ هـذا العام بكل نوع ناتج ، (مبعدا) اياه من كل نوع من الاهـــلاك والعوز ، مانحا اياه الصدور والأمل والكثرة ، والسلام والبركة ،

كما فى السنين الطيبة الأخرى) ·

مبارك أنت أيها الرب الذى تبارك السنين ·

التسبيحة العـــاشرة

انفخ فى البوق العظيم لحريتنا ،

وارفع العلم ليتجمع كل منفيينا من زوايا العالم الأربعة فى أرضنا نحن ، مبارك أنت أيها الرب الذى تجمع (المشردين من شعب) بنى اسرائيل ·

التسبيحة الحادية عشرة

احفظ قضاتنا كما فى الأيام السالفة ، ومستشارينا كما فى البداية (وابعد عنا الحزن والألم) وكن وحدك الحاكم علينا (بالرحمـــة والصلاح والعدالة)

مبارك أنت أيها الرب (والملك) الذى تحب الصلاح والعدالة

التسبيحة الثانية عشرة

ألا فلا أمل لناهشى الأعراض ،
ولتهلك كل الملحدين (Minim) فى لحظة ،
ولتستأصل مملكة التعجرف ولتتحطم (فى أيامنا سريعا) .
مبارك أنت أيها الرب (الذى تحطم الأعداء) والذى تذل المتعجرفين.

التسبيحة الثالثة عشر

فوق الصالحين (وفوق التقاة) وفوق مريدى الصلاح ،

(وفوق بقية شعبك وكل بيت اسرائيل أيضا) فلتقع الرحمات أيها الرب الهنا ،

وامنح جزاء حسنا لجميع الذين يؤمنون باسمك (حقا ، واجعل نصيبنا معهم الى الأبد ،

لاتجعلنا نخزى ، لأننا باسمك آمنا واعتمدنا على تخليصك) .
مبارك أنت أيها الرب (سند) وأمل الصالح .

التسبيحة الرابعة عشرة

ألا فلتقطن فى وسط أورشليم ، مدينتك (وفقا لما قلت) .
وبنيتها بناء خالدا وسريعا فى أيامنا .
مبارك أنت أيها الرب الذى بنيت أورشليم .

التسبيحة الخامسة عشرة

ألا فاجعل فرع داود ينمو بسرعة ،
وألا فاجعل قدحه يعظم بخلاصك ،
مبارك أنت أيها الرب الذى تجعل قدح الخلاص يعظم .

التسبيحة السادسة عشرة

اسمع صوتنا ، أيها الرب الهنا ، (اصفح عنا) وارحمنا ،
واقبل صلاتنا رحمة (ومنة) ،

(من حضرتك يا ملكنا لا تجعلنا نعود خائبين) فأنت تسمع الصلاة من كل فم ،

مبارك أنت الذى تسمع للصلاة ٠

التسبيحة السابعة عشرة

اقبل أيها الرب الهنا ، شعبك بنى اسرائيل (وصلاتهم) ،
واحفظ طقوس نبى بيتك ٠

(واقبل هبات النار لبنى اسرائيل وصلاتهم وطقوسهم قبولا عاجلا حبا وكرامة واجل صلاة شعبك اسرائيل دائما مقبولة ٠) ٠

واجعل عيوننا تنظر عودتك الى صـــهيون (رحمة منك كما كنت قديما)

مبارك أنت ، أيها الرب الذى تحفظ (عاجلا) مشيختك الى صهيون

التسبيحة الثامنة عشرة

نقدم الثناء اليك (فأنت هو) أيها الرب الهنا واله آبائنا ،

(صخرة حياتنا وحصن خلاصنا من جيل الى جيل ، نقدم اليــك الثناء ونعلن مدحك) من أجل حيواتنا التى بين يدك ومن أجــل نفوسنا التى فى حراستك

من أجل معجزاتك ومن أجل روائعـــك ومن أجل منافعك فى كل الأزمان

(مساء وصباحا وظهرا ، أنت الخير وأعطافك المحبوبة لا تخطىء أنت رحيم فرحماتك لا تتوقف ، فكل الأحياء يسبحون باســـمك العظيم ، فأنت طيب أيها الاله الطيب) ٠

مبارك أنت أيها الرب (وجميل) أن نسبح لك (ولا ســمك على الدوام) ٠

التسبيحة التاسعة عشرة

امنحنا سلاما (حسنا) (وبركة ورحمة وأعطافا محببة) سابغة لنا ولبنى اسرائيل شعبك، باركنا جميعا أيها الرب الهنا ، (فى ضوء وجهك لأنه فى ضوء وجهك أعطيتنا أيها الرب الهنا الشريعة والحياة والحب والرحمة ، والصلاح والسلام ، والنعمة والأعطاف المحببة) نعم انه لحسن فى عينيك

أن تنعم على شعبك بنى اسرائيل (بالكثير من القوة والسلام) ٠

مبارك أنت أيها الرب الذى تنعم على (شعبك بنى اسرائيل ،)

بالسلام ٠ آمين

ملحوظة ــ التسبيحات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة أهملنا ترجمتها لسببين :

الأول : انها مسيحية المعنى والمبنى ومن ثم فهى بعيدة جدا عن الروح اليهودية الأصيلة ٠

أما الثانى : فالمعانى التى تتضمنها هى نفس المعانى التى فى الكدوشة الملحقة بالتسبيحة الثالثة والتى ذكرنا أنها مسيحية وأبعد من أن تكون يهودية أصيلة أو نابعة بصفاء من العقيدة اليهودية الموروثة ٠

خاتمة

نريد أن نختم هذا العرض للعقيدة اليهودية بالقول ان اليهود قديما لم يكونوا يؤمنون بالعهد القديم كله ، ذلك لأن السامرة وهم قوم كانوا يسكنون جبال بيت المقدس ، لم يؤمنوا الا بأسفار موسى عليه السلام ، وهى الخمسة الأوائل من العهد القديم ، ويتحدث عنهم الشهرستانى فيقول « ويتقشفون فى الطهارة أكثر من تقشف سائر اليهودية ، أثبتوا نبوة : موسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام ، وأنكروا نبوة من بعدهم من الأنبياء الا نبيا واحدا ، وقالوا التوراة ما بشرت الا بنبى واحد يأتى من بعد موسى ، يصدق مابين يديه من التوراة ويحكم بحكمها ولا يخالفها البتة » ويقول أيضا (وقبلة السامرة جبل يقال له غريزيم بين بيت المقدس ونابلس ، قالوا : ان الله تعالى أمر داود أن يبنى بيت المقدس بجبل نابلس ــ وهو الطور الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام، فتحول داود الى ايلياء وبنى البيت ثمة وخالف الأمر فظلم ، والسامرة

توجهوا الى تلك القبلة دون سائر اليهود ولغتهم غير لغة اليهود ، وزعموا أن التوراة كانت بلسانهم وهى قريبة من العبرانية فنقلت الى السريانية)، ويقول الشهرستانى ذاكرا اجماعهم (وهم بأسرهم أجمعوا على أن فى التوراة بشارة بعد موسى وانما اقترافهم اما فى تعيين ذلك الواحد أو فى الزيادة على ذلك الواحد ، وذكر المشيحا وآثاره ظاهر فى الأسفار ، وخروج واحد فى آخر الزمان هو الكوكب المضىء الذى تشرق الأرض بنوره أيضا متفق عليه واليهود على انتظاره والسبت يوم ذلك الرجل وهو يوم الاستواء بعد الخلق) .

وفى اليهود حديثا خرج من بينهم رجل غير وبدل فى النصوص المعترف بها ، ذلك هو اسرائيل السيد المسمى بالطيب Israel Baal) shem Tov (وهو رجل قروى ظهر فى مطلع القرن الثامن عشر ، ولد فى احدى المقاطعات التى على الحدود التركية البولندية القديمة ، وشبهه مارتن ببر (Martin Buber) بالمسيح الناصرى وعرف هذا الرجل بالبشت (Besht) وظلت تعاليمه تروى شفويا حتى دونها أصحابه فى عدة مجلدات وهم يزعمون أنها ثمرة الوحى ، وهم يعترفون بأن السيد جاءهم بتحسينات للنصوص هى « تهذيب وتبديل واضافات » .

ثانيا ـ المسيحية

المسيحية هى ثانية الديانات الكبرى بعد اليهودية ، وهى الدين الذى جاء به المسيح عليه السلام ، والذى يعتنقه ملايين البشر من مختلف الاجناس ، وهى تعد وريثة لليهودية ، يؤيد ذلك قول الاستاذ بوكيه ان المسيحية دخلت الى الوجود وارثة لكتب اليهود المقدسة ، ولكن المسيحية خطت باليهودية خطوة أسمى ، باضافة الى أنها تريد تخليصها مما ران عليها ، ولعل من الأمثلة على هذا التطور الدينى الذى يبتغيه الدين الجديد ما نراه فى الأحكام ، فقد جاء فى انجيل متى ٢١/٥ ، ٣٣ على لسان المسيح قوله (سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ، واما أنا فأقول لكم ان كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ، ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع ، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم) وفى الاصحاح نفسه ٢٧ ، ٢٨ (قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم ان كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه) وفى الاصحاح نفسه ١٧ (لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لانقض بل

لأكمل) ، والاشارة الى القدماء تعني أنبياء بنى اسرائيل ، هذا التطور الذى نراه فى الاحكام والذى هو سمة الدين المسيحى الجديد هو من النقلة الدينية التى تميزه عن اليهودية ولم يختلف الدين الجديد فى الأحكام وحدها وانما اختلف عن اليهودية فى مبدأ هام ، هو النظرة الى البشر ، فاليهودية لا تؤثر الا منزلة بنى اسرائيل ، ولاتعد شعبا يستوجب النسبة الى الله سوى بنى اسرائيل ، كما يرى ذلك واضحا فى العهد القديم وفى التلمود وخاصة فى التسابيح ، أما الدين الجديد فيتميز بنظرة اجتماعية تتفق ومنهج الحياة ، دعا الى الحب والتسامح ، وهو الاتجاه الذى كانت تفتقر اليه اليهودية ، والذى كان من أو ضح ميزات الدين الجديد ٠

مضى القرن الأول كله وتعاليم المسيح تنتقل بالرواية الشفوية من جيل الى جيل ومن هنا تعددت الروايات وتعددت المصادر ، وأحس المسيحيون بخطر هذه الرواية الشفوية فكان تدوين الأناجيل ، التى تؤلف ما يعرف بالعهد الجديد ٠ وكان التدوين قد مر عند المسيحيين بمراحل ثلاث ، ونحن نعتمد فى سردها على ما يقول الدكتور بوكيه ، لأنه من ناحية رجل من رجال هذا الدين ، ومن ناحية أخرى من أساتذة علم الأديان ٠

المرحلة الأولى : وتنتهى حوالى سنة ٢٢٠ م ، وتقتصر على رسالتى بطرس الرسول ، اللتين أرسلهما الى بعض الكنائس ، واللتين لم تظفرا برضا الجميع عنهما لاقتصارهما على كنائس بعينها ، وفى هذه الفترة كانت الأناجيل تنتقل بطريق الرواية الشفوية ، وربما كانت آنئذ باللسان الآرامى ٠ وبفضل الأبحاث أصبحت معلوماتنا عن الأناجيل أوضح عن ذى قبل ، ذلك لأنه اتضح أن من بين الأناجيل الثلاثة المتقاربة ـ مرقس ومتى ولوقا ـ التى وجدت باليونانية ـ يعد انجيل مرقص أقدمها جميعا ، وأن انجيلى متى ولوقا جمعهما منقح انجيل مرقص ، ذلك الانجيل الذى يختلف عنهما ، على نحو ما يرى فى رواية ميلاد المسيح ، ولكننا لا نعرف عدد المرات التى نقح فيها هذا الانجيل حتى جاء على صورته الحالية ، كما أننا لا نعرف واضع انجيل متى فى صورته الراهنة التى تدل بعض الدلائل على أنه مرتب لأغراض الطقوس الكنسية وعلى لون من ألوان كتاب القداس ، ومن ثم فربما اتخذ صورته الحالية سنة ١٢٠ م ، أما انجيل لوقا فليس هناك ما يظهر الشك فى مؤلفه ، فهو أستاذ يونانى كان فى خدمة بطرس ، ويظهر أن كانت هناك نسختان : الأولى تبدأ من الاصحاح الثالث والثانية تتضمن ما يسمى بالانجيل

الصغير ، ويقال ان سفر أعمال الرسل هوتتمة لهذا الانجيل بقلم نفس المؤلف ، وليس بعيدا أن يكون كلاهما قد وصلا الى صورتهما الحالية قبل سنة ١٠٠ م ، وان تعذر القطع بالسنة التى تمفيها ذلك ٠

يقول الأستاذ بوكيه ان هناك من المقتطفات التى كتبها صغار الرسل المسيحيين ، والتى تدل على أن معظم الاسفار التى فى العهد الجديد كانت معروفة فى زمن مبكر ، وان لم تكن هى فى كل حالة ، ويعنى بذلك أن العرض لا يدل دائما على أن هذا النص القديم موجود فى الانجيل ، يضاف الى ذلك أن كلمنت الرومانى ، الذى يظن أنه كان يعيش حوالى ٩٦ م ، قد أورد أقوالا عزاها الى المسيح وليست فى الاناجيل المعروفة لنا ، ولكن الرسائل التى كتبها اغناطيوس الانطاكى ، والتى ترجع الى حوالى سنة ١١٠ م فيها من العبارات التى تتفق فكرة ولغة مع الانجيل الرابع ، ويبدو أن هذا الانجيل الرابع ، الذى يختلف عن الاناجيل الثلاثة الأخرى، قد ألف فى أواخر القرن الأول اما فى افسيس أو فى الاسكندرية ، قام به مسيحى يتحدث اليونانية لديه من المصادر ما يرجع عهدها الى عهد مصادر مرقص ، ولكنها مصادر رواية شفوية مغايرة ٠ هذا عن الأناجيل الأربعة أما رسالتا بطرس فيبدو أنهما جمعتا فى هذا العصر أيضا (وربما كان ذلك سنة ١٤٠ م) ٠

فى أواخر هذه الفترة الأولى رأينا ــ كما يذكر بوكيه ــ أن هناك اتجاها من بعض الأفراد الى ايجاد ثبت مسيحى ذى قيمة دينية ، ولكن هذه الكتابات لم تتخذ طابعها المعتمد ، ولم تنظر اليها كنيسة من الكنائس على أنها من مصادر يتحتم الأخذ بها ٠

المرحلة الثانية : وتبدأ من سنة ٢٢٠ م الى سنة ٣٢٣ م وهى فترة محاولة قيام كتاب مقدس ، وهذه المحاولة لا تعنى هذه المجالس الدينية التى انعقدت لتبت فى مسائل دار حولها النزاع والنقاش ، وانما تتضمن أعمال علماء مسيحيين أمثال أوريجن (Origen) ويوسبيس (Eusebius) من قيصرية ، اللذين طورا الأساس الذى تقوم عليه النصوص الدينية الذى به يتبين الصحيح والأصيل من الغريب والقصص غير الصحيح ، وضع أوريجن أساسه «أن تكون الكتابات متداولة تداولا شعبيا » وعلى هذا الأساس قسم يوسبيس الاناجيل الى معترف بها والى مشكوك فيها والى منتحلة ، ومما هو جدير بالذكر أن بعض الأسفار استبعدت ، وقد كانت من الأسفار المعترف بها ، وأن بعض الاسفار مثل

رؤيا يوحنا اللاهوتى حظيت بقبول عام ، وان ظلت الى زمن متأخر موضع شك لمدة طويلة ٠

المرحلة الثالثة : وهى مرحلة المجالس الدينية التى تممت وأجازت المجهودات التى بذلت فى المرحلة الثانية ، على أنه فى هذه المرحلة لاتتخذ الأسفار وضعها الحالى فى العهد الجديد ، المعترف به فى الشرق والغرب ، الا عندما تنشط لذلك المجلس الدينى (١) الذى انعقد سنة ٦٩١ م وكانت كنائس آسيا الصغرى لا تعترف بسفر الرؤيا حتى نهاية القرن الرابع وكذلك آباء انطاكية العظام ظلوا حتى شطر من القرن الخامس الميلادى لا يعترفون برسالة يوحنا الثانية وبرسالة يوحنا الثالثة وبرسالة بطرس الثانية وبرسالة يهوذا وبرؤيا يوحنا اللاهوتى ٠

ونستطيع أن نجمل ما أوردناه عن الأستاذ بوكيه قائلين أن أسفار العهد الجديد لم تتخذ صورتها الحالية فى القرن الأول ، وان النصوص الدينية كانت فى نقلها تعتمد على الرواية الشفوية ، ثم أخذت فى القرن الثانى وبدء القرن الثالث فى الظهور ، وتوضع لها الأسس التى بها يعرف الصحيح من الزائف والمشكوك فيه ، ولكن الخلاف بين المسيحيين ظل قائما بين أيها يعتمد من الاسفار وأيها يستبعد ، وأى الاسفار يتضمنه الكتاب المقدس حتى اتفق عالم الشرق والغرب المسيحى بعد المجمع المقدس المنعقد فى سنة ٦٩٢ م على الوضع الحالى للعهد الجديد ، ولكن بالرغم من هذا الاتفاق على الأسفار فقد ظل الخلاف قائما بين المسيحيين فى مسائل ذات أهمية أساسية فى العقيدة ، كما لعب الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية دورا هاما فى الحياتين السياسية والعقائدية ، الذى يحدثنا عن شطره الدينى خليل بن ميخائيل البدوى فى كتابه « كشف المكتوم فى تاريخ آخرى سلاطين الروم » ، وسنتناول هذا بايجاز فيما بعد ، على أن نقدم العقيدة مأخوذة من النصوص الدينية الموثوق بها عند رجال الدين المسيحى ٠

---

(١) يسمى هذا المجلس Quinisextine Council وقد دعاه الى الانعقاد الامبراطور جستنيان الثانى فى القسطنطينية فى سنة ٦٩٢ م كما فى قاموس اكسفورد : وهذا التاريخ ادق وهو المعول عليه ٠

أ ــ المسيح هو المنتظر وهو الرب

من انجيل مرقص الاصحاح الثانى من ١ ــ ١٢ معتمدين على الترجمة العربية وحدها غاضين النظر عن غيرها ، نعرض هذه العقيدة ، التى تعد من أسس الدين المسيحى :

(.. ثم دخل كفر ناحوم أيضا بعد أيام فسمع أنه فى بيت ، وللوقت اجتمع كثيرون حتى لم يعد يسع ولا ما حول الباب ، فكان يخاطبهم بالكلمة ، وجاءوا اليه مقدمين مفلوجا يحمله أربعة ، واذا لم يقدروا أن يقتربوا اليه من أجل الجمع كشفوا السقف حيث كان وبعدما نقبوه ، دلوا السرير الذى كان المفلوج مضطجعا عليه ، فلما رأى يسوع ايمانهم قال للمفلوج يا بنى مغفورة لك خطاياك ، وكان قوم من الكتبة هناك جالسين يفكرون فى قلوبهم ، لماذا يتكلم هذا هكذا بتجاديف . من يقدر أن يغفر خطايا الا الله وحده ، فللوقت شعر يسوع بروحه أنهم يفكرون هكذا فى أنفسهم فقال لهم لماذا تفكرون بهذا فى قلوبكم ، أيما أيسر أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك . أم أن يقال قم وأحمل سريرك وامش ولكن لكى تعلموا أن لابن الانسان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا قال للمفلوج ، لك أقول قم واحمل سريرك واذهب الى بيتك فقام للوقت وحمل السرير وخرج قدام الكل حتى بهت الجميع ومجدوا الله قائلين ما رأينا مثل هذا قط) .

ويعلق بوكيه على هذه النصوص فيقول انها مثال للاخبار القائم على أساس نظرية مفروضة ، هى أن عيسى الناصرى هو حتما المنتظر ، هو الذى يتحدث فى سفر اشعياء ، فى الاصحاح الواحد والستين ، وهو المشار اليه فى نفس السفر الاصحاح الثانى والأربعين ، ذلك لان آياته تتحدث عن ابراء المفلوج وغفران الخطايا ، وانجيل مرقص هو أقدم ما لدينا من أناجيل ، وفيه يتحدث عن يسوع المسيح ، وليس لدينا من دليل سابق له يذهب الى أن الرواية الشفوية تختلف عنه اختلافا جوهريا ، ومن ثم يبدو ممكنا أن نتحدث عن يسوع من تأثيره على معاصريه منذ أول ظهوره ، فمن الواضح أنه يبدو شخصا غير عادى بغض النظر عن العقيدة التى تتأتى نتيجة ظهوره .

والذى يقرأ هذه النصوص فى هذا الاصحاح التى ذكرناها يتبين له فى وضوح فكرة التأليه ، ذلك واضح فى القول (من يقدر أن يغفر خطايا الا الله وحده .. مغفورة لك خطاياك) ، ويتبين له أيضا أنه المشار

اليه فى العهد القديم اشعياء ٤٢/١ : (هو ذا عبدى الذى أعضده مختارى الذى سرت به نفسى · وضعت روحى عليه فيخرج الحق للأمم) ·

ب ـ يسوع الكلمة

والعقيدة المسيحية تذهب الى أن الألوهية تكونت فيه على الوجه الآتى : ـ

انجيل يوحنا الاصحاح ١/١ (فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله) وفى الاصحاح نفسه ١٤ (والكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده مجدا كما لوحيد من الآب مملوء نعمة وحقا) ، ويجمل الشهرستانى الآراء المختلفة فى التجسد قائلا (فانهم قضوا بتجسد الكلمة ، ولهم فى كيفية الاتحاد والتجسد كلام ، فمنهم من قال أشرق على الجسد اشراق النور على الجسم المشف ، ومنهم من قال انطبع فيه انطباع النقش فى الشمع ، ومنهم من قال ظهر به ظهور الروحانى بالجسمانى ، ومنهم من قال تدرع اللاهوت بالناسوت ، ومنهم من قال مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء والماء اللبن · وأثبتوا لله تعالى أقانيم ثلاثة ، قالوا : البارى تعالى جوهر واحد يعنون به القائم بالنفس لا التحيز والحجمية ، فهو واحد بالجوهرية ثلاثة بالأقنومية ، ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم ، وسموها الآب والابن وروح القدس ، وانما العلم تدرع وتجسد دون سائر الأقانيم) ·

ج ـ الصلب

والأساس الثالث للعقيدة المسيحية هو الصلب ، وعنه جاء فى سفر أعمال الرسل ٢٢/٢ ـ ٢٤ :

(أيها الرجال الاسرائيليون اسمعوا هذه الاقوال · يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون ، هذا أخذتموه مسلما بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدى آثمة صلبتموه وقتلتموه ، الذى أقامه الله ناقضا أوجاع الموت اذ لم يكن ممكنا أن يمسك منه) وفى انجيل مرقص ١٥/١٦ ـ ٢٠ (فمضى به العسكر الى داخل الدار التى هى دار الولاية وجمعوا كل الكتبة ، وألبسوه أرجوانا وضفروا آكليلا من شوك ووضعوه

عليه ، وابتدأوا يسلمون عليه قائلين السلام ياملك اليهود ، وكانوا يضربونه على رأسه بقصبة ويبصقون عليه ثم يسجدون له جاثين على ركبهم ، وبعدما استهزأوا به نزعوا عنه الأرجوان وألبسوه ثيابه ثم خرجوا به ليصلبوه) • وفي نفس الاصحاح ٣٧ ـ ٤١ (فصرخ كسوع بصوت عظيت وأسلم الروح وانشق حجاب الهيكل الى اثنين من فوق الى أسفل ، ولما رأى قائد المائة الواقف مقابله أنه صرخ هكذا وأسلم الروح قال حقا كان هذا الانسان ابن الله ، وكانت أيضا نساء ينظرن من بعيد بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسى وسالومة ، اللواتى أيضا تبعنه وخدمنه حين كان فى الجليل • وأخر كثيرات اللواتى صعدن معه الى أورشليم) • وفي نفس السفر الاصحاح ١٦/١ ـ ٦ (وبعدما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطا ليأتين ويدهنه ، وباكرا جدا فى أول الأسبوع أتين الى القبر اذ طلعت الشمس ، وكن يقلن فيما بينهن من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر ، فتطلعن ورأين أن الحجر قد دحرج لأنه كان عظيما جدا ، ولما دخلن القبر رأين شابا جالسا عن اليمين لابسا حلة بيضاء فاندهشن ، فقال لهن لا تندهشن أنتن تطلبن يسوع الناصرى المصلوب قد قام ليس ههنا هوذا الموضع الذى وضعوه فيه) • ومما هو جدير بالذكر أن قصة القبر تختلف فى هذا الانجيل عنها فى انجيل يوحنا (الاصحاح ٢٠) عنها فى انجيل لوقا (الاصحاح ٢٤) • ومهما يكن من أمر فالاتفاق على أنه صلب وقتل ودفن وخرج من القبر مرتفعا الى السماء • وفى صعوده الى السماء أورد سفر أعمال الرسل الاصحاح ٢٩/٢ ـ ٣٦ :

(أيها الرجال الاخوة يسوغ أن يقال لكم جهارا عن رئيس الآباء داود انه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم ، فاذا كان نبيا وعلم أن الله حلف له بقسم أنه من ثمرة صلبة يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه ، سبق فرأى وتكلم عن قيامة المسيح أنه لم تترك نفسه فى الهاوية ولا رأى جسده فسادا ، فيسوع هذا أقامه الله ونحن جميعا شهود لذلك ، واذا ارتفع بيمين الله وأخذ موعد الروح القدس من الآب سكب هذا الذى أنتم الآن تبصرونه وتسمعونه ، لأن داود لم يصعد الى السموات وهو نفسه يقول قال الرب لربى اجلس عن يمينى، حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك فليعلم يقينا جميع بيت اسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذى صلبتموه أنتم ربا ومسيحا •) •

د ـ الخطيئة والخلاص

هذه النظرية نظرية الخطيئة وتكفير اليسوع عنها بدمه من أسس العقيدة المسيحية ، ونحن نظفر بهذه العقيدة واضحة المعالم فى رسالة بولس الرسول الى أهل رومية الاصحاح الثالث من ٢١ ـ ٢٦ ، جاء فيه (واما الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس مشهودا له من الناس والأنبياء ، بر الله بالايمان بيسوع المسيح الى كل وعلى كل الذين يؤمنون لأنه لا فرق، اذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله ، متبررين مجانا بنعمته بالفداء الذى بيسوع المسيح ، الذى قدمه الله كفارة بالايمان بدمه لاظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بامهال الله ، لاظهار بره فى الزمان الحاضر ليكون بارا ويبرر من هو من الايمان بيسوع) • ومن ثم فان قتل يسوع ـ كما يقول المسيحيون ـ انما هو تقديم دمه فداء للبشرية مما وقعت فيه من اثم أو خطيئة ، تلك الخطيئة التى جرت فى دمائها فأصبحت فيها فطرة منذ عهد آدم عليه السلام ، قال بولس الرسول فى رسالته الى أهل روميه الاصحاح ١٢/٥ ـ ١٤ : (من أجل ذلك كأنما بانسان واحد دخلت الخطية الى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس اذ أخطأ الجميع ، فانه حتى الناموس كانت الخطية فى العالم • على أن الخطية لا تحسب ان لم يكن ناموس ، لكن قد ملك الموت من آدم الى موسى وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدى آدم الذى هو مثال الآتى) هذا الفداء للبشرية على الصورة المرسومة فى هذه الرسالة هى فيما يبدو التى تأتت ليسوع بلقب المخلص ، والمسيحيون يؤمنون بهذه العقيدة ويرون الايمان بيسوع ماحيا لذنوبهم ، قال بولس الرسول فى نفس الرسالة ١/٨ ـ ٤ (اذن لا شىء من الدينونة الآن على الذين هم فى المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح ، لأن ناموس روح الحياة فى المسيح يسوع قد أعتقنى من ناموس الخطية والموت ، لأنه ما كان الناموس عاجزا عنه فى ما كان ضعيفا بالجسد فالله اذ أرسل ابنه فى شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية فى الجسد ، لكى يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح) •

ونحن حين ننظر الى هذه الفكرة نجدها تقوم على أساس ألا أحد من البشر يكفر خطيئة غيره ، ولا يكفر خطيئة المرء الا الله ، ولما كان يسوع وجد على الأرض ـ فيما يرى المسيحيون ـ على هذا الوجه ، ترتب على ذلك أنه يكفر خطايا البشر ، وكان صلبه وقتله ـ أو دماؤه هى الكفارة التى

حررت البشرية من جرثومة الخطية ، وكان مجيء يسوع انقاذا للبشرية من وزرها ٠

صلاة مسيحية تصور العقيدة

ولعل هذه الصلاة التى أوردها متى فى انجيله ٦/٩ ـ ١٣ تجمل العقيدة المسيحية كلها فى لفظها وهى :فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ٠ لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين الينا ، ولا تدخلنا فى تجربة ٠ لكن نجنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد الى الأبد ٠ آمين) ٠

هذه هى الأسس التى يشترك فيها المسيحيون قاطبة ، ويضيف اليها البعض عقائد هى لديهم مقدسة كتأليه العذراء على سبيل المثال ، ولقد تجاوزنا عن هذا التفصيل لأننا نتحدث عما يؤمن به الكل لا عن طائفة بعينها ٠

وهذه الآراء الدينية لم تحظ بالاذعان والتسليم من جميع المسيحيين، ذلك لأنها لقيت من بعضهم معارضة منها ما اشتد حتى درجة الانكار والرفض ، ومنها ما اعتدل فى خصومته لها ، وهذه المعارضة لم يعرفها تاريخ المسيحية فى عهدها القديم فحسب بل وفى عهدها الحديث ، ولعل معارضة القرن العشرين هى أسوأ خصومة وأشد عنفا ، ويتحتم علينا أن نشير الى ذلك دون الخروج عن القصد الذى هو منهج هذا الكتاب ٠

المعارضون

يعنينى فى هذه الكلمة أن أبين لون الآراء الهامة التى خاصمت معتقدات النصرانية بالصورة التى عرضت ، والتى تقوم عليها الكنيسة المسيحية على اختلاف ألوانها ومذاهبها ، فالمخالفون الذين ظهروا فى العصور الأولى فى حقيقة الأمر كانت خصومتهم تقوم على الشكل دون الجوهر ، ونضرب على ذلك مثالا ، هذه الخصومة التى قامت بين الكنيسة الشرقية وبين الكنيسة الغربية حول أيهما أصح : هل الروح القدس منبثق من الآب والابن أو من الآب بالابن ؟ والمجامع الدينية التى انعقدت للتوفيق بين الرأيين : واصرار مطارنة هرقلية وأفسس ومونمازيه وانخيالس بعدم اقتناعهم بانبثاق الروح القدس من الابن ، ثم الاتفاق

على رأى الانبثاق من الآب والابن ، واصرار مرقص الافسسى وحده على الخلاف ، هذا الخلاف الذى يعرضه خليل بن ميخائيل البدوى فى كتابه « كشف المكتوم فى تاريخ آخرى سلاطين الروم » فى صفحات طويلة وأقوال مستفيضة ، هذا الخلاف وأمثاله هو فى الشكل لأنه لا يعرض العقيدة المسيحية للخطر ، وانما هو اختلاف فى فهم النصوص أو ترجمتها وهو خلاف فى جوهره شبيه بخلاف النساطرة ، الذين رأوا أن الله تعالى ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة ، وهذه الاقانيم ليست زائدة على الذات ، ولا هى هو ، ويرون أن الكلمة اتحدت بجسد يسوع لا على طريق الامتزاج كما ذهبت الملكانية ، ولا عن طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية ولكن كاشراق الشمس فى كوة على بلورة وكظهور النقش فى الشمع اذا طبع بالخاتم . مثل هذا الخلاف وان لعب دورا هاما فى تاريخ المسيحية وترتبت عليه سخائم وخطوب يكفينا أن نشير اليه ، ذلك لأن موضعه دراسة النصرانية وحدها كدين ، ونحن ننظر الى المسيحية كعقيدة لها أسس ثابتة .

ولعل أهم معارض نلقاه فى القرون الوسطى هو ما ذكره الشهرستانى (١) (الملل والنحل القسم الأول الأول ص ٢٠٤ ط القاهرة ١٩٥٦) قال (ولما قال أريوس : القديم هو الله والمسيح هو مخلوق ، اجتمعت البطارقة والمطارنة والأساقفة فى بلد قسطنطينية بمحضر من ملكهم وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا واتفقوا على هذه الكلمة اعتقادا ودعوة وذلك قولهم نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء .. وبالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد ... الذى ولد من أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع اله حق من اله حق ... ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار انسانا ، وحبل به وولد من مريم البتول وقتل وصلب أيام فيلاطوس ودفن ثم قام فى اليوم الثالث وصعد الى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والاحياء .. الخ) وهذه أهم حركة تعارض المسيحية فى أسسها ، ويظهر ان لم تكن ذات خطر كبير ، أما الهراطقة (Heretics)

---

(١) كان الشهرستانى يعرف اليونانية : ويستدل على ذلك من قوله (ورأيت رسالة فولوس التى كتبها الى اليونانيين : انكم تظنون ان مكان عيسى عليه السلام كمكان سائر الانبياء .. الخ) ومن ثم فهو بلا جدال مصدر يعتمد عليه فى الدراسة أويستعان به على أقل تقدير . ومما يجعلنا نطمئن الى صحة نقله أنه ينقل الينا الاسماء دون تحريف ، مما يدل على سعة اطلاع وبصر بما ينقل .

فهؤلاء أنكروها وجحدوها وذهبوا يخلطونها أو يتأثرون بعقائد غير مسيحية ، فهؤلاء وان كانوا يزلزلون الرأى فى العقيدة الا أنهم لم يحاربوها وجها لوجه ، كما فعل آريوس ، ولا تعدهم الكنيسة المسيحية من أبنائها .

ولعل أعظم خطر يواجه النصرانية هو هذه المعارضة التى قام بها علماء باحثون فى أوائل هذا القرن العشرين ، ففى مؤتمر الأديان الذى انعقد فى باريس فى يولية سنة ١٩١٣ اتجه المؤتمرون الى رفض العقائد المسيحية القائمة لأنها تقوم فى رأيهم على أخطاء ، ولكن قيام الحرب العالمية الأولى حال دون اتمام الخطة التى رسمها المؤتمر ، وفى ٩ أغسطس سنة ١٩١٧ انعقد فى كمبردج مؤتمر من رجال الدين برئاسة الأستاذ برسى جاردنر (Prof. Percy Gardener) ، وكان موضوع المناقشة هو هل أسس المسيح الكنيسة ؟ (١) وكان من خطباء المؤتمر نائب اسقف هو انج (Dean Inge) ، الذى أعلن أن عيسى ليس الا نبيا كما بدا لمعاصريه ، وأنه لم يحاول اطلاقا أن ينشىء نظاما داخل الكهنوت اليهودى، أو ينشىء نظاما منافسا له ، والواقع فى نظره أنه جاء بروحانية مستقلة مع قبوله للنظم القائمة فى عصره وفى المملكة ، ولقد كان الانفصال عن اليهودية أمرا محتما ولكنه لم يضع نظاما وقواعد لذلك ، ولقد وافقه على هذا الرأى رجال الدين الآتية أسماؤهم :

ج. ر. ولكنسن (Rev. J.R. Wilkinson) ، س . و . امت (Rev. C. W. Emmet) ل. باترسون (Rev. L. Patterson) ، ف. مان (Rev. F. Mann) هـ . سيموندس (Rev. H. Symonds) هـ . أ . ميجر (Rev. H.A. Major) ، ثم وافق المؤتمرون على هذا الرأى ولم يعارضه الا كبير الشمامسة فورد (Archdeacon Ford) وحده ، وأيد اتجاه مؤتمر كمبردج سنة ١٩١٧ مؤتمر آخر انعقد فى نفس المدينة سنة ١٩١٨ ، وكانت هذه المؤتمرات تنتهى الى آرائها بعد دراسة وأبحاث معدة .

فاذا تركنا هذه المؤتمرات الدولية وما قيل فيها ، ونظرنا نظرة خاطفة الى الأبحاث والدراسات فى المجتمعات المحدودة نرى :

---

(١) راجع التيمس عدد ١٠ أغسطس سنة ١٩١٧ .

١ ـ بشرية عيسى

فى سنة ١٩٢١ اجتمع عـدد كبير من رجال الدين فى اكسفورد ورأس الاجتماع الدكتور راشدل (Dr. Rashdall) اسقف كارليل (The Dean of Carlisle) الذىأذهلخطابهالعالمالمسيحى،ذلك لأنه ذكر أن قراءته للكتاب المقدس لا تجعله يعتقد أن عيسى اله ، وأنه انسان بكل ما يحتمل هذا اللفظ من معان ، ونجمل أقواله فى هذا المؤتمر فيما يلى :

قال يوجـد ضـغط متزايد يذهب الى أنه يجب على رجال الدين المتحـررين أن يحـددوا أقوالهم وماذا يعنـون على وجه الحقيقـة حينما يستخدمون النصـوص الموروثة عن ألوهيـة عيسى ، وها هى ذى بعض الأشياء التى لا تعنى ولا يمكن أن تعنى نسبة الألوهية الى عيسى :

(أ) لم ينسب عيسى الى نفسـه الألوهية ، ومن الجائز أنه سمح لنفسه أن ينادى بالمسـيح ، ولكنه لا يوجد مطلقـا فى أقواله الثـابتة الا ما يشير الى أن صلته الشعورية بالله هى صلة انسان بربه ، أما أقوال الانجيل الرابع التى تذهب الى أبعد مما تذهب اليه أقوال الأناجيل الثلاثة فلا يمكن النظر اليها على أنها تاريخية •

(ب) يستتبع الاعتراف بأن عيسى انسان بكل ما يدل عليه اللفظ، وأنه ما هو الا جسد بشرى ، أنه روح بشرية عقلا وارادة •

(ج) الافتراض أن روح عيسى سابقة فى الوجود مماثل للزيغ ، لانه ببساطة لا أساس لمثل هذه النظرية الا اذا قلنا ان جميع أرواح البشر وجـدت فى العـالم قبل ميلادهم ، ولكن هـذا ليس هو الوضع المسيحى المقبول عادة •

(د) ان ألوهية المسيح لا تستنتج بالضرورة من مولده من عذراء أو من أية معجزة أخرى ، فالمولد من عذراء ـ اذا أمكن اثباته تاريخيا ـ لا يدل على ألوهية المسيح ، كما أن عدم اثباته لا يثير الشك فى هـذه النظرية •

(هـ) لا يستنتج من تأليه يسوع احاطته بكل شىء ، وليس هناك دليل يدعونا أن نفترض أن عيسى الناصرى عرف من البيانات العلمية فى الأمراض العقلية أكثر مما عرف معاصروه الذين يعتقدون نسبتها الى المس الشيطانى ، وأن معرفته تجاوزت معرفتهم فى تأليف الأسفار الخمسة أو المزامير ، ومن العسير انكار أنه توقع حدوث أشياء فى المستقبل لم تتحقق تاريخيا •

وفى انعقاد هذا المؤتمر افتتح هـ • د • أ • ميجر (Rev. H.D.A. Major) المناقشة بقوله :

يجب أن يكون مفهوما بوضوح أن عيسى لم يدع فى الأناجيل أنه ابن الله بالمعنى الجسدى ، كما يوحى بذلك القصص عن مولده من عذراء ، كما أنه لم يدع انه ابن الله بالمعنى الميتافيزيقى كما تذهب الى ذلك عقيدة مجمع نيقية (Nicene theology) ادعى انه ابن الله بالمعنى العادى ، بالمعنى الذى به يكون البشر أبناء الله باعتبار أنهم ذوو صلة روحية وبنوية بالله ، وقادرون على أن يعملوا بالأسس الخلقية التى بها يعمل الله (١) •

فاذا تركنا رجال الدين ومؤتمراتهم واجتماعاتهم ومايقوله المتحررون منهم والمنتسبون الى الكنيسة الحديثة ، وأتينا الى الأبحاث العلمية نلقى روبرتسون (Robertson) فى كتابه (Pagan Christs) يحدثنا عن عبادة مثرا (Mithra) ورأيه فى امتصاص المسيحية لها ، ونورد هنا فى اجمال بعض أقواله :

من المعروف أن ديانة مثرا جاءت الى العالم من فارس ، وكانت فى هذه البلاد منتشرة لمدة تقرب من ستة قرون ، ولقد وصل هذا الدين الى رومة حوالى سنة ٧٠ ق • م ، وانتشر فى الامبراطورية الرومانية حتى وصل الى الجزيرة البريطانية واكتشفت آثاره فى يورك وتشستر وبعض الأماكن •

ويذهب هـذا الدين الى أن صاحبه (مثرا) ولد فى كهف فى ٢٥ ديسمبر ، وقد ولدته أم عذراء ، وأنه جاب الآفاق يبشر برسالته ، وكان حواريوه اثنى عشر رجلا ، وأنه مات فى سبيل البشرية واحتفل بقيامه من القبر بفرح عظيم • وقد أطلق عليه المخلص ، واعتناق هذه العقيدة كان يستلزم التعميد (Baptism) ، وكانت تقام حفلات مقدسة لاحياء ذكراه ، ومما هو جدير بالذكر أن هذا الدين كان قويا الى القرن الثالث الميلادى ، ولولا ما لاقته هذه العقيدة من اضطهاد وعسف فى رومة والاسكندرية كما اعترف بذلك القديس جيروم لطغت وابتلعت المسيحية ، وعلى أية حال فانها لم تمت الا بعد أن ذابت فى المسيحية(٢)•

وعن العقـائد التى أتخذت الشمس الهـا يقـــول ادوارد كاربنتر (Edward Carpenter) انه قد اعتقد فيها :

---

(١) راجع هذا كله فى المجلة الاسلامية (Islamic Review) المجلد التاسع عدد ٨ من ص ٢٧٦ — ص ٢٧٨ •

(٢) Robertson, Pagan Christs, pp. 338, 350.

١ ـ انها ولدت فى يوم الميلاد (Christmas Day) أو حول هذا التاريخ ٠

٢ ـ أنها ولدت من أم عذراء ٠

٣ ـ وفى كهف أو فى حجرة تحت الأرض ٠

٤ ـ انها عاشت حياة عناء فى سبيل البشرية ٠

٥ ـ انها تسمت بأسماء : باعث الضوء ، الشافى ، (Healer) الشفيع (Mediator) ، المخلص (Saviour) ، المنقذ (Deliverer)

٦ ـ انها انهزمت بقوى الظلام ٠

٧ ـ أنها نزلت الى السعير (Hell) أو الى العالم السفلى ٠

٨ ـ وانها قامت من الموت ثانية وأصبحت روادا للبشر الى عالم السماء ٠

٩ ـ أنشأت أنظمة القديسين والكنيسة التى اليها يأتى الأتباع للتعميد ٠

١٠ ـ احتفل بذكراها بالعشاء الربانى ٠

٢ ـ زعم صلة بين عبادة بابلية وبين المسيحية

اكتشفت البعثة الألمانية التى كانت تنقب فى العراق ١٩٠٣ / ١٩٠٤ فى كاله شارجت (Kalah Shargat) لوحتين ، هما فيما يقول العلماء منقولتان عن أصول أقدم ، وهما من ضمن مجموعة الوثائق التى كانت تضمها المكتبة الأشورية ، التى يقال انها أنشئت فى القرن السابع قبل الميلاد ، أو لعلها أقدم من ذلك ، ويذهب بعض الباحثين الى زعم وجود تشابه بين العقيدة التى سجلت فى هاتين اللوحتين وبين المسيحية، وبنوا هذا التشابه فيما بنوا على أساس سيرة المسيح عليه السلام ، ونشرت مجلة كوست (Quest) فى عددها الصادر يناير سنة ١٩٢٢ ما رآه أحدهم من هذا التشابه فى السيرة ، ولكن المنصف يتوقف أمام هذا الرأى ، لأن النظرة السليمة توحى بفساده ، ذلك لأن سيرة المجاهدين والرسل تسير على منهج واحد ، هو الدعوة لما يعتقدون بتفان واخلاص ، وقيام معارضة المخالفين بعناد وبقسوة ، واضطهاد صاحب الدعوة ، وايذائه بالوسائل التى ترى قاضية على انتشار الدعوة ، وعلى ذلك فاتخاذ

بل (Bél) الذى تصوره التمثيلية البابلية الدينية بالمنهج الذى ذكرناه موضوعا للمقارنة لاينهض دليلا مقنعا على ابتداع سيرة المسيح عليه السلام قياسا على سيرة بل ، لأن سير الأنبياء والرسل بل والمصلحين التى عرفها التاريخ تسير على هذا النمط ، فاذا سلمنا بأساس قياس بل كان معنى هذا أن جميعسير هؤلاء الأنبياء والرسل والمصلحين ابتدعت قياسا على سيرة الزعيم الدينى الخيالى أو الحقيقى للتمثيلية البابلية . وقد كنت فى غنى عن التعليق على هذا التشابه المزعوم ، ولكنى ذكرته لأبين الاسراف والغلو وكيف يدفعان البحث الى طريق وعرة .

٣ ـ الصليب كشعار

ولم تقتصر أبحاث العلماء على محاولة المقارنة بين المسيحية وبين هذه العقيدة ، أو تلك ، وانما شملت العقيدة فى مظاهرها المختلفة ، تحدثوا عن الميلاد والعشاء الربانى واتخاذ السبت والأحد والأعياد والصليب ، وهذا الكتاب لا يعنيه كل هذه الدراسات التى يجدها القارىء فى كتب أشارت اليها مثل كتاب الوثنية والعقيدة المسيحية (Pagana and Christian Creed) وكتاب فريزر (The Golden Bough) وكتاب (Our Sun-God) وغيرها كثير ، لأن هذا الكتاب يعنى بأصول العقائد ومما لا جدال فيه أن الصليب وان كان شعارا الا أنه سمة المسيحية المميزة فخصصناه بكلمة .

ورد لفظ الصليب فى الأناجيل بما يشعر أنه كان آية المسيحية ، نجد ذلك على سبيل المثال فى انجيل متى ٦١/٦٤ (حينئذ قال يسوع لتلاميذه ان أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى) وفى انجيل مرقس ٨/٣٤ (ودعا الجمع من تلاميذه وقال لهم من أراد أن يتبعنى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى) ، وكلا النصين مذكوران فى مناسبة واحدة ، وفى مناسبة أخرى قيل فى انجيل مرقس ١٠/٢٢ (... اذهب بع كل مالك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى حاملا الصليب .) ومن الواضح أن هذه النصوص التى سقناها على سبيل التمثيل لا الحصر تدل على أن شعار المسيحية منذ نشأتها الصليب .

لم يقنع الباحثون بهذه النصوص وغيرها ، وأنكروا الصليب سمة المسيحية ، لأن القديس كلمنت (Clement) الذى عاش الى آخر

القرن الأول الميلادى لايذكر الصليب شعارا للمسيحية وهو يتحدث عنها.
وقالوا ان الامبراطور الرومانى قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧ م) وهو
امبراطور كان يتخذ أبولو الها حافظا(١) (Patron deity) كان شعار الهه
الصليب ، حين اعتنق المسيحية فأبقى على شعاره الصليب ، واتخذه
الناس من بعده وكانوا من قبل يتخذون السمكة شعارا ، يستدلون على أن
السمكة الشعار الأول للمسيحية بوجودها منقوشة على المقابر المسيحية فى
عصرها الأول .

خاتمة

ذهب الذين يعارضون المسيحية أن العقيدة بوضعها الحالى لم تكن
بكل تفاصيلها الحالية من تعاليم المسيح عليه السلام ، ذلك لأنها فى رأيهم
تأثرت بعقائد أخرى قوية كانت سائدة زمن ظهور عيسى عليه السلام ،
أضف الى ذلك أن كلمة مسيحى أو نصرانى (Christian) لم تكن شائعة
للدلالة على معتنق هذا الدين ، حتى اجتمع المجمع المقدس فى نيقية فى
القرن الثالث الميلادى ، واتخذ قراراته فى العقيدة ومنها وصف معتنق
المسيحية بأنه مسيحى ، وقال المعارضون ومنهم من هو من رجال الدين
أن المسيح عليه السلام لم ينشىء كنيسة أى نظاما له أوضاع ومظاهر
دينية معينة فى مجال اليهودية ، وأسرف منهم من أسرف حتى أنكر العقيدة
جملة وتفصيلا وشكك فيها الى حد يبعث على الدهشة ، واعتدل منهم من
اعتدل فقصر دراساته على الحقائق العلمية والتاريخية ، وعلى أية حال
كان للرجات الاجتماعية التى أعقبت الحروب الكبرى أثر عظيم فى تغيير
مفاهيم كثير من معانى الحياة ونظرة الانسان الى الأديان والى حقائقها : على
أن الذين يحترمون عقولهم يجب عليهم ألا تخدعهم هذه التيارات الحديثة
وأن ينظروا الى الحقائق وحدها ترسم لهم منهج الحياة فى مناحيها المختلفة
شعورية كانت أو عقلية .

ثالثا ـ الاسلام

الاسلام خاتمة الأديان الكبرى وخاتمة الحديث فى هذا الكتاب ،
يدين به الملايين فى أقطار الأرض شرقها وغربها . ولئن كانت اليهودية

---

(١) الناظر الى عقيدة ابولو وعقيدة مترا الفارسية التى انتشرت حتى وصلت
الى رومة قبل المسيحية يجد تشابها عظيما بينهما فى الميلاد من أم عذراء وفى التعميد ،
وفى قصة حياتهما على العموم .

تتميز بالروح القبلية ، التى تؤثر بنى اسرائيل من دون خلق الله جميعا وتسميهم شعب الله ، ولئن آثرت المسيحية رفض هذه العصبية ونادت بالحب والتسامح ، فقد جاء الاسلام بمذهب الانســانية الخالد ، مذهب الأخاء والمساواة ، ذلك ما ينطق به القرآن فى وضوح لا لبس فيه كما ورد فى ســورة النساء آية (١) على سبيل المثـال قال تعالى **(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ...)** ، وذلك ليرجع بها الى حقيقتهـا الأصيلة فى الاجتماع والتـوطن على الأرض ، وايجاد الوســيلة التى تظهر المواهب والكفايات ، واتاحة الفرصة لبنى البشر أن يعملوا فى جو من الاستقرار يهىء الحياة لسـعادة البشر على الأرض ، ذلك هو الطابع المميز لكل دين من هذه الأديان الثلاثة الكبرى فى العصر الحديث لتاريخ الأديان .

والحق اننا حين ننظر الى أى دين كبير ، نجـده يدعو الى عبادة الله على أى صورة من الصور ، ونجده يدعو الى الفضائل والى الوسائل التى يراها ناجعة فى تطوين البشرية نحو المثل العليا ، ولكن كل دين يختلف عن غيره لا فى حقيقة المظهر العقائدى وحده ـ ان صح هذا التعبير ، وانما فى نظرته نحو حقيقة الاجتماع ، فقد أسرفت اليهودية وتعصبت ، ورأت ألا يستحق النسبة الى الله الا بنو اسرائيل ، فهم شعب الله المختار ، لأن مزايا البشرية تجمعت فيهم ، فأهدرت غيرهم من بنى الانسان ، وجاءت المسيحية على اثرها تصحح هذا الطعن فى البشرية فاتخذت الحب وسيلة للقضاء على التعصب ، وحاربت العصبية القبلية بالوسيلة التى تقضى عليها وجاء الاسلام فحارب العصبية القبلية فى كل صورها ، ومضى الى مرض الانسان يعالجه ، فنادى بالاخاء والمساواة ، وأهدر القبلية والطبقية جميعا قائلا فى القرآن سورة النساء آية ١ **(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة)** وفى سورة الحجرات آية ١٣ **(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عنـد الله أتقاكم ان الله عليم خبير)** وعلى ذلك فالنـاس جميعـا فى نظر الاســلام سواء ، لا يتفاوتون الا بدرجـــة تقوى الله ، ومن ثم فالقربى لله ليست لبنى اسرائيل كما ترى اليهودية ، وليست لمن ينزل عن ماله ويؤثر الفقر على الغنى كما ترى المسيحية ، كما يتضح ذلك فى قولها مثلا فى انجيل متى ١٩/٢٠ ـ ٢٢ (... قال له الشاب هذه كلها حفظتها منذ حداثتى فماذا يعوزنى بعد ؟ قال له يســوع ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعـال اتبعنى ، فلمـا سمع الشـاب الـكلمة مضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة) ، ذلك لأن

النفس الانسانية ـ وان سعت الى المثل الأعلى ـ فانها لا تستطيع أن تنزل عما تراه حقا يبيحه العقل ومنطق الحياة ؛ أما الاسلام فنظر الى الحياة نظرة مثلى ، دعاهم الى الاخاء والمساواة ، ونهذا سهل انتشاره بين القبائل البدائية فى افريقيا كما يقول هوبير ديشان فى كتابه « الديانات فى افريقيا السوداء » (الترجمة العربية ص ١٢٨ ، ص ١٢٩) . نادى بهذه المبادىء التى هللت لها البشرية حين نادت بها الثورة الفرنسية ، هذه المبادىء التى دعا اليها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا تقريبا ، قال نبى الاسلام (الناس متساوون كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى) ، هذه النظرة المميزة تجدها واضحة المعالم قوية التعبير فى كل تعاليم الاسلام .

١ ـ الاسلام كدين

والاسلام كدين ـ أعنى من حيث الايمان بوحدانية الله والشرائع الانسانية الخالدة ، التى لا تختلف فى عصر عن عصر ـ لم يأت فيها بجديد ، وانما جاء يخلصها مما ران عليها من أوزار لصقها الانسان بها، قال تعالى ٤٢ : ١٣ **(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب)** . ويذهب الاسلام الى أن الأديان السابقة أبلغت الى الأمم على نحو ما جاء به الاسلام ، ولكن الناس هم الذين غيروا فيها وبدلوا ، متأثرين بنزعاتهم التى قضت بها تقاليدهم ، قال تعالى ٣ : ١٩ **(ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتو الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم . ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب)** . . هذه الحقيقة الدينية التى تؤكد أن أسس الديانات واحدة فى جميع العصور والأزمان هى التى يجب أن تكون رائد الانسان حين ينظر الى ابراهيم عليه السلام ، الذى ادعت اليهودية نسبته اليها والتى قالت المسيحية بنسبته اليها ، بل الأحق وقد اتفقت أصول الديانات ألا ينسب الى دين بعينه ، وأن يؤمن المرء بأنه نبى مرسل أتى بحقائق عقائدية خالدة ، وأنه أطاع الله فيما أمره ، وأدى الرسالة بجد وأمانة رغم ما لقى من اضطهاد، قال تعالى ٣ : ٦٧ **(ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)** . وقد يتساءل امرؤ لماذا لايكون ابراهيم عليه السلام يهوديا أو نصرانيا ما دام النظر الى الأديان على أنها فى

أصولها متفقة ؟ وللجواب على ذلك نقول ان الاســـلام يرى أن اليهودية لم تبق كما جاءت على لسان موسى عليـــه الســـلام ، وكـذلك يرى أن المسيحية لم تمض على الوضع الذى نادى به عيسى عليه السلام ، ويشارك الاسلام فى ذلك طائفة من الباحثين المحدثين أشرنا الى آرائهم ، اذن فنفى صفة اليهودية أو النصرانية هو براءته مما فى هذين الدينين من أشـــياء تتعارض مع الحقيقة الدينية ، التى يقول القرآن ان الرسل جميعا بشروا بها واشتملت عليها الديانات السماوية ٠

اتخذ الدين الاســـلام الحقيقة الدينية من قواعده ،تلك الحقيقة التى يشرحها الاســـتاذ محمد عبده فى رسالة التوحيد (ص ٨٣، ص ٨٤ ط المنار) فى قوله (فيجب على كل مؤمن ومؤمنه أن يعتقد أن الله أرســل رســـلا من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه لذاته ، وتبيين سلطانه القاهر على عباده وتفصـــيل لأحكامه فى فضائل أعمال وصـــفات يطالبهم بها ، وفى نقائض فعـال وخلائق ينهاهم عنها ـ وأن يعتقد وجوب تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم ، والائتمار بما أمروا به والـكف عما نهوا عنه ، وأن يعتقد أن منهم من أنزل الله عليه كتبا تشـــتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ، ومن الحـــدود والاحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها) ٠

والمســـلم حين يؤمن بهـذا انما يتبع قول الله تعـــالى ٢ : ٢٨٥ **(آمن الرسول بما أنزل اليــه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكتــه وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنـا غفرانك ربنا واليك المصير)** ٠ والايمان برسالة النبى والرسول تستلزم آية ٠ وهذه الآية هى المعجزة التى يقتنع العقل بوجوب التسليم بها والتصديق بالرسالة ، ومعجزة الاسلام هى القرآن ٠

ومن عجب وهذا التسليم بالحقيقة الدينية من مظاهر الاسلام أن يتهجم عليه بعض المستشرقين فيقولوا ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) أخـذ من عقائد وشرائع الأمم الأخرى ما نسبه الى نفسه ، وهم بقولهم هذا انما يجددون ما سبق أن وجه الى النبى عليه السلام وحكاه القرآن فى قوله تعـــالى ١٦ : ١٠٣ **(ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين)** ٠ ولعـل خير رد على هؤلاء الذين يجهلون الاســـلام وأصوله ما ورد فى قول الله تعـالى ٣ : ٨٤ **(قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق**

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) سبق أن ذكرت أنه ما دام المصدر وهو الله ـ واحدا ترتب على ذلك حتما ـ ما دمنا نعتقد ان الله محيط وعالم خبير بالبشرية من الأزل الى الأبد ـ اتفاق الأديان والعقائد المنزلة من الله من حيث الأصول فى العقائد والشرائع ، وهو ما يشير اليه القرآن ، ومن هنا اتفق الاسلام مع اليهودية والمسيحية بل وغيرهما من العقائد فى بعض المسائل الدينية ، ولا وجه للطعن على الاسلام من هذه الناحية • وطبقا لهذه القاعدة يكون ما هناك من اختلاف بين الأديان فى الأصول هو من صنع الانسان ، وكان يتحتم أن يكون اختلافا فى الفروع لا فى الأصول وفق مقتضيات الأزمان والعصور وتطور الحياة •

٢ ـ الاسلام مع خصومه او معارضيه

مع العرب :

قابل الدين الاسلامى خصومه مقابلة تتفق ومنطق الحياة العاقلة وما يمليه العقل من تدبير ، خاصمه العرب فى مهده وآذوا أتباعه ايذاء شديدا ، حتى اضطروه ، الى الهجرة الأولى ثم الهجرة الثانية ، خاصمه أعداؤه العرب وتآمروا عليه ، لكن هذه الخصومة وهذا التآمر لم يترتب عليهما سوى ايمان أصحابه ايمانا عظيما ، وظلوا يلقون الهون حتى شرع القتال ، والقتال فى الاسلام لم يكن الا وسيلة دفاع ، دفاع عن النفس والعقيدة ودفاع عن كيان المجتمع الاسلامى ، ولم يكن بأية حال عدوانا أو سبيلا الى الكسب المادى ، قال تعالى سورة البقرة /١٩٠ ـ ١٩٤ **(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين • واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم • وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ، الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين)** •

وهذه الحرب موجهة نحو المعتدين فحسب ، المعتدين على حقوق الله أو على المسلمين ، قال تعالى ٦٠ / ٨ ، ٩ **(لا ينهاكم الله عن الذين لم**

يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) (١) .

مع أهل الكتاب :

وأهل الكتاب هم الذين لديهم كتب مقدسة ، وهؤلاء رغم ما بين عقيدة الاسلام وبين عقائد أصحاب هذه الكتب من مخالفة مفزعة لم يناصبهم العداء الا بعد أن عادوه . ذلك لأن الاسلام دعاهم الى مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل . قال تعالى ٣/٦٤ **(قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .**

ويكشف القرآن عنأغوار نفوسهم فى قوله تعالى ٣/٦٩ ــ ٧٣ **(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون، يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) .**

ولأهل الكتاب موقفان ، موقف عادوا فيه الاسلام سرا وجهرا ، وهؤلاء انطبق عليهم ما انطبق على غيرهم من الكفار من قتال ،دفاعا عن الاسلام وابقاء على وحدة المجتمع الاسلامى ، أما الموقف الآخر فهو عسفهم الرعية والحيلولة بين الاسلام وبين الضعفاء من أن ينفذ اليهم ، وهؤلاء المسيطرون لاقتهم جيوش المسلمين حين خرجوا من جزيرتهم لنشرالاسلام وهى الحركة التى تسمى خطأ فى التاريخ بحركة الغزو أو الفتوح ،فوقفوا حائلا بين الاسلام وبين الناس ، فكان القتال وكان النصر الذى تبعه نشر الاسلام وامتداد الرقعة الاسلامية شرقا وغربا ، وليس بصحيح مايذهب اليه المستشرقون بأنها حركة أريد بها الكسب المادى ، وان ترتب عليها

---

(١) فى كتابى : دراسات اسلامية من القرآن الكريم ، دراسة مفصلة للجهاد فى الاسلام . فمن أراد العرض المفصل فليرجع اليه وما نذكره هنا هو لمحة دالة فحسب .

الكسب المادى ، لأن المسلمين لم يشرعوا فى القتال الا بعد أن خيروهم بين الاسلام وبين القتال أو الجزية ، والجزية هنا مقصود بها اظهار هوان هؤلاء المسيطرين ، وأنهم لا يستطيعون دفع قوى المسلمين عنهم ، ومعناها بعد النصر أجر يدفع فى سبيل الحماية والأمن ، مثلها مثل ضريبة الدفاع التى تؤدى فى زمننا الحديث ، ويجد القارىء دراسة مفصلة لهذا الموضوع فى بحث كتبته بعنوان الجهاد فى الاسلام ، وليس هنا موضع لتفصيل المظالم والاستبداد الذى كانت تلقاه جموع الشعوب من سادتهم ، الذين استغلوهم أسوأ استغلال فى قضاء مصالحهم ، وعسفوهم أعظم عسف فى سبيل الخضوع لسيطرتهم وساقوهم كالأنعام ليكونوا جنودا يقاتلون أو أدوات ينفذون ما يرغب السادة فيه ، وعلى القارىء أن يطلع على ما كتب المؤرخون قبل سقوط الدولة الساسانية والدولة البيزنطية فى مصر والشام والعراق وفارس .

٣ ـ القرآن

القرآن هو معجزة الاسلام الخالدة مع الزمن ، ونحن اذا نظرنا الى نظمه وأسلوبه نجده فذا فى البيان العربى منذ أن عرفت البلاغة العربية طريقها الى الوجود ، هو معجز فى هذه الناحية اعجازا سلم به القدماء ولا يزال يسلم بهذا الاعجاز الذين ينطقون باللغة العربية ، وسيظل الأمر على هذا الوجه حتى نهاية البشرية ، ذلك لأن نظمه وتركيب الجمل فيه وانسجام الحروف والحركات وموسيقاها مع تلاءم المعنى واثارة الخيال شىء فوق طاقة البشر ، فهو من حيث الاسلوب معجزة خالدة فى تاريخ البشر ، ومن هنا ايضا ينفرد الاسلام بين العقائد جميعا بأن معجزته تعيش مع الزمن بينما أصبحت معجزات الرسل الآخرين من أنباء التاريخ .

ولقد وصف الاستاذ محمد عبده القرآن فى رسالة التوحيد (ص ٦ و ص ٧ ط المنار) فقال (أقام الدعوى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان، وما فيها من الاحكام والاتقان على أنظار العقول، وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما أدعاه وما دعا اليه ، حتى انه فى سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر ان للخلق سنة لا تغير وقاعدة لا تتبدل ، فقال ٤٨/٣٢ (**سنة الله التى خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**) وصرح ١٣/١١ (**ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**) .
٣٠/٣٠ (**فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**) ،

واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب فقال ٣٤/٤١ (**ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم**) . وتآخى العقـل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل) .

حرص العرب على معارضة النبى والتمسوا الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه ، والقرآن فى نفس الوقت يخطىء آراءهم ويسفه أحلامهم ويحتقر أصنامهم ويدعوهم الى عبادة تفصل بينهم وبين ماضيهم ، عبادة آبائهم وأجدادهم التى كانوا يحرصون على أن تبقى حية مكرمة ، ولا حجة له الا تحديهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله ، فلما عجزوا تحداهم بأن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، وكان لديهم من الشعراء والبلغاء الذين تنعقد لهم أسواق الأدب فى عكاظ وذى المجنة وغيرهما ، والذين يشدون الرحال الى أمراء العرب يبتغون رفدهم ببلاغتهم قال ٢٣/٢ (**وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شـهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين**) . ولكنهم مع ذلك عجزوا ودل القرآن ببيانه أنه فوق طاقة البشر وألا سبيل الى الاتيان بمثله .

ومن اعجاز القرآن الانبـاء بأخبار الغيب ، أنبأهم بأن البيزنطيين (الروم) انهزموا ولكنهم سينتصرون بعـد ذلك ، قال ٢/٣٠ (**غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين**) . ولقد صـدق هذا الخبر وانتصر البيزنطيون على الفرس ، ولم يكن هذا النبأ وحده الذى أخبر به قبل وقوعه ، بل أنبأ بما تحقق خبـره ، قال ٥٥/٢٤ (**وعـد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحـات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**) . ولقد تحقق هـذا الوعد وفتحت فارس والشام ومصر وامتدت سيطرة المسـلمين على معظم بقاع الارض المعروفة فى هذا الزمن .

نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى ، وتدل كل الأدلة على صحة هذا القول ، ولم يكتف رسول الله بتحفيظه لأصحابه العديدين الذين يعدون بالعشرات ، وانما أضاف الى ذلك املاءه على كتبة عرفوا بكتاب الوحى ، ولقد انتقل رسول الله الى الرفيق الأعلى والقرآن محفوظ فى الصدور الى جانب تدوينه كله وبعد أن شاع حفظه حتى عـد حفظته بالمئات ، ولقد احتفظ أبوبكر خليفة رسـول الله بالأشياء المدون عليها القرآن ، ثم انتقلت الى خلفه عمر بن الخطاب ، ثم كتبت المصـاحف

وأرسلت الى الأقطـــار الاســـلامية زمن عثمان بن عفان الذى أتى بعـد عمر والذى دعاه الى ذلك اختلاف ألسنة العرب ، ومن ثم احتفظ القرآن بروايته كما نزل ، لم يضع منه حرف واحد ولم يزد عليه حرف واحد ، لان طريقة حفظ القرآن سليما ما كانت تدع أى سبيل لأية زيادة أو نقص ظـل سليما يشـهد بصـدق ما جاء فى التنزيل ٩/١٥ (**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**) ٠

لم يجد المستشرقون فى القرآن من حيث سلامته مطعنا ، ولم يجدوا بابا يلجونه سوى القول أنه كتاب مفكك ، قول ساقه الجهل بالبلاغة العربية ، ذلك لأنهم لو كانوا يدركون من أسرارها شيئا لما وقعوا فى هذا القول ، أو يستطيـع أحد ممن يعرف الأدب العربى انـكار أن الآية فى السورة القرآنية مرتبطة بسابقتها وبلاحقتها ؟ بل ان الفقرة فى القـرآن اذا أجيز هذا التعبير ــ توحى بما يتلوها ، بل ان نظم القرآن أو تركيبه على وجه أصح يجعل بناءه متناسقا ومترابطا من الناحية الأدبية الخالصة، والذين يدركون أسرار البيان العربى يجدون فى القوآن ، وترابط الآيات ما يدل على اعجاز لا يستطيع الوصول اليه أحد مهما كانت منزلته فى أقصى درجات البلاغة ، والقرآن فضلا عن ذلك كله هو آية البيان العربى والمثل الأعلى فى كل عصر بغض النظر عن أنه كتاب دين ، هذه حقيقة لايمكن الغض منها أو المماراة فيها أو انكارها على أى وجـــه من الوجوه ، وأنا كشخص درست الأدب العربى كنت أتمنى أن يدلنى القائلون بتفكك القرآن على مثال واحد ، حتى أبين مدى الجهل بالبيان العربى ، وهانذا أدعى بكل قوة أن ليست فى القرآن آية واحدة غير مرتبطة بما يسبقها وبما يلحقها ٠ لست أدرى كيف يقال هذا وأخص خصيصة من خصائص القرآن أنه كتاب نزل ليتلى ، وتلاوته تتطلب حفظه ، وهذا الحفظ أمر اشتهر به القرآن منذ أول أمـره ، يردد فى الصـلوات وفى المناسبات ويستشهد بآياته فى أمر الحياة التى تتطلب الحكم فيها ، ومن الثابت تاريخيا وفى عصرنا الحاضر أن الآلاف المؤلفة حفظته ، ويتلى دون خطأ أو لحن وانى لأعجب كيف السبيل ــ اذا كان هذا القرآن مفككا وهو كتاب ضخم ــ الى حفظه ــ ذلك لأنه لو صحت دعوى التفكك لما أمكن الحفظ وهو أمر ثابت ، اذن لا سبيل الا الى الايمان بالواقع وهو ترابط القرآن فى آية ، ذلك الـكتاب الذى ورد فيه أنه ١/١١ (**كتـــاب أحـكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**) ٠ وهو أيضا كما قال تعالى (**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميـد**) والدراســة الأدبية ــ

التى ليس لها موضع فى هذا العرض ـ تبين بأقوى تدليل عن الترابط المعجز فى القرآن ٠

مسألة أخرى عن لى أن أتجاوزها لأنها فرية ليس بعدها فرية ٠ انها الزعم بأن فى القرآن تناقضا أو اضطرابا ، ولست أدرى أين هذا الاضطراب أو التناقض ، انه الجهل بالبيان العربى وأساليبه وطرائق العرب فى التعبير والبلاغة ، وقد تولى ابن حزم الأندلسى الرد على هذه الدعوى الباطلة بدراسة فند فيها الزعم بالتناقض وأثبت جهل القائلين به بمناهج العرب فى البيان ، وله رسالة فى ذلك يرد بها على ابن النغريلة مطبوعة بالقاهرة سنة ١٩٦٠م ، ومن عجب أن ماوجه الى القرآن قديما يتردد على لسان المستشرقين من غير بصيرة بما يقولون ٠ ويعجب الباحث من هذا القول والقرآن نفسه (النساء ٨٢) يتحدى هذا الزعم ، قال تعالى **(أفلا يتدبرون القرآن ٠ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)** ٠ فهذه الدعوى التى اتهم بها القرآن باطلا أثارها القرآن نفسه كدليل على أنه من عند الله فهل بعد هذا يقال فيه تناقض أو اختلاف ٠ انه الجهل أيضا بتاريخ القرآن وبالتشريع فيه ، أو هى محاولة جاء بها مستشرق يهودى عدو لدود للقرآن وللمسلمين ، وأنا لم أذكر هذا الزعم لأنه يستحق التفنيد بل لأننا نريد أن يشمل عرضنا للموضوع مايستطاع عرضه ٠ ويسع هذا العرض كلمة صغيرة فىهذا الزعم ، فالمعروف أنالقرآن نزل منجما وأنه يعالج النفس البشرية فهو حين قال لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى ، أراد أن يبين خطورة الخمر على عقل الانسان ، حتى اذا تيقن الانسان من هذه الحقيقة حرمها ، فهل فى هذا تناقض أو اضطراب ؟ واذا نظرنا الى ما ورد عن عيسى عليه السلام ، نجد القرآن يذكر أنه لم يقتل ولم يصلب وانما رفع ، ويتحدث عنه كانسان فيذكر على لسانه التحية لنفسه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا (١٩/٣٤) ، أما ذكر أنه لم يقتل ولم يصلب وأنه شبه لمن ظنوا هذا الظن ، وانه رفع الى السماء فهى حقيقة شرف الله بها رسول المسيحية ، هو تكريم لعيسى عليه السلام كما كرم ابراهيم الخليل فجعل النار التى ألقى فيها بردا وسلاما ، أضف الى ذلك التساؤل من أين أتى القرآن بهذا القول اذا لم يكن مصدره الوحى ؟ هل اخترع هذا القول ونبى الاسلام لا يعرف شيئا عن المسيحية الا فى أواخر حياته ، والدلائل كلها تشير الى أن القرآن أشار الى عيسى عليه السلام قبل مجىء وفد نجران ، وهم النصارى الذين وفدوا على الرسول فى أواخر بعثته ، أما هذه التحية التى جاءت على لسان عيسى

عليه السلام عن الميلاد والموت والبعث حيا ، فانها ايراد قول على لسان بشر لا يعرف مصيره ومستقبله ، فضلا عن أنه يؤكد بشريته ، ذلك التأكيد الذى ورد فى كثير من الآيات القرآنية وخاصة فى ٥/٧٥ ، أكد القرآن هذا المعنى وهو أنه بشر ، وبين سلطان الله عليه ، مثله فى ذلك مثل سائر البشر والكائنات جميعا التى تخضع لقدرة الله (٥/١٧) ، فهل فى هذا تناقض أو اضطراب ، عيسى عليه السلام كبشر يخضع لسنة الكون والحياة ، يأكل ويشرب كما يأكل الناس ، يعيش ويموت ويبعث حيا ، لكن قدرة الله وتكريمه لرسوله آثر أن يرفعه اليه وأن يجنبه من الصلب والقتل ، وأكبر دليل على أن الصلب لم يكن وأنها حقيقة كان يعلمها المسيحيون الأولون كما قال القرآن أن المسيحية لم تتخذ الصليب شعارا الا فى القرن الرابع الميلادى فى عصرقسطنطين الامبراطور الرومانى الذى تنصر وناصر المسيحية وهذا ما يقوله التاريخ ٠

٤ ـ رسول الاسلام

رسول الاسلام هو محمد بن عبد الله ، مات والده عبد الله بن عبد المطلب قبل أن يولد ، أى أنه ولد يتيما وسماه جده محمدا وكفله ، وماتت أمه وهو فى السادسة من عمره ، فأصبح يتيما لأبيه وأمه معا ، ثم مات جده بعد ذلك بقليل فكفله عمه أبو طالب ، فشب محمد وهو لايملك من الثروة شيئا ، عاش فقيرا يكتسب قوته من رعى الغنم ، وظل على فقره حتى بلغ مبلغ الشباب ، ولكنه على الرغم من هذا الفقر اشتهر بخصال جعلته مضرب المثل فى مكة موطنه ، سماه أهلها الأمين لأن الأمانة كانت من أظهر خصاله عندهم ، وهى الصفة التى جعلت امرأة موسرة فى مكة ترسل اليه بتجارة لها ليكون رسولها فى القافلة الذاهبة الى الشام ، فخرج مع القافلة بصحبة غلام هذه السيدة الموسرة ، وعاد مع القافلة وأدى الى السيدة أموالها فراعها أخلاقه وأمانته فأرسلت اليه أن يخطبها ويتزوجها ، فقبل وتزوجها وهذه السيدة هى خديجة بنت خويلد ما كانت مثل هذه الرحلة التى انهمك اثناءها فى البيع والشراء بمتيحة له أن يتعرف على شىء من عقائد القوم الذين باع لهم واشترى منهم ، لأنه من ناحية أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ومن ناحية أخرى لم تكن لديه فرصة لذلك ، وذلك بالاضافة الى أنه كان مع جماعة يستلزم الأمر أن يكون فى صحبتهم ، كما يستلزم أمر البيع والشراء الذى لم يكن به خبيرا أن يسترشد بهم ، فوجوده بين الجماعة كان يستغرق كل وقته ، واذا فرض وقيل له شىء فانه كان يقال بمسمع من الآخرين من جماعته فعرفوا

ما عرف ، وعلى هذا فلا سبيل الى الزعم أنه عرف شيئا فى هذه الرحلة لم يعرفه غيره ، لأنه لم يكن وحيدا منفردا فى أية رحلة تجارية ٠

تزوج خديجة بنت خويلد التى عرفت بأم المؤمنين ، والتى آثرها بالحب فلم يتخذ الى جانبها زوجة أخرى ، والتى رزق منها بنين وبنـــات ، عاش معهـا مطمئن البال لا يشغله فقره أو السعى فى سبيل الطعـام والاطعام ، وفى نفسه ميل نحو الوحدة ذلك لأنه كان يبغض اللهو واللغو، وكان الى جانب ذلك يحتقر هذه الأصنام التى اتخذها أهل مكة آلهة لهم، فاعتزل الناس واتخذ من غار حراء مأوى يلجأ اليه ، يمضى فيه من الوقت ما شاء له أن يمضى ، يقولون أنه كان يتعبد ، وأغلب الظن أنه كان يذهب الى هذا الغار يلتمس فى زوايا نفسه عن خالق هذا الـكون ٠ فهذه الأحجار التى يعبدها قومه بدت لنفسه لاتنفـع ولا تضر ، وهى خرساء صماء لايمكن أن تـكون خالقة لهذا الكون البديع ، الذى يتعاقب فيـه الليل والنهار بنظام دقيق ، والقمر يتطور مع الشهر يمضى فى الزيادة حتى يكتمل بدراً ، ثم يأخذ فى النقصان الى أن يختفى ، هـــذه سنته كل شهر أخـذ يختلف الى هـذا الغار تسوقه نفس تواقه الى الايغال فى درجات الصفاء حتى نزل عليه الوحى ، وهو قول الله (**اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانســان من علق ٠ اقرأ وربك الأكرم ٠ الذى عـلم بالقـلم ٠ علم الانسان ما لم يعلم**) ٠ فرد على قائله أنه لا يقرأ وما زال القول يردد له حتى وعى ما قيل له ، وكان الخوف يأخذ منه كل مأخذ ، فعاد الى بيته مذعورا خائفا ، ويقـول لأهله زملونى زملونى وصبوا على مـاء باردا ، فأخذت زوجه تحيطه بالرعاية والحنان وتهدىء من روعه كما تفعل الزوج الصالحة ، حتى ذهب عنه الخوف وحكى الأمر ، هذه الحقيقة يؤيدها ماجاء فى القرآن (**يا أيها المـدثر ٠ قم فأنذر ٠ وربك فكبر ٠ وثيابك فطهر ٠ والرجز فاهجر ٠ ولا تمنن تستكثر ٠ ولربك فاصبر**) ٠ وتؤيدها أيضـا الرواية التى شهد بها معاصروه اذن فلم يكن النبى يذهب الى حراء ينتظر وحيا ، ذلك لأن الخوف والذعر اللذين انتاباه يؤكدان خلاء ذهنه من مثل هذا الخاطر ، الذى ابتكره المبغضون للاسلام ليشككوا الناس فى هذا الدين ٠ ويقول السيد محمد رشيد رضا (هامش ص ١٣٧ من رسالة التوحيد ط المنار) ، (ويظن بعض الباحثين فى سيرته من غير المسلمين كما يظن كثير من المسلمين أنه صلى الله عليه وسلم كان يستشرف للنبوة ويرجوها ، ولا سيما فى عهد تحنثه فى غار حراء ولكن الله تعالى يقول (**وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك**) أى لكن ألقى اليك رحمة من ربك لم تكن ترجوها ، ويؤيد هذا المعنى خوفه صلى الله

عليه وسلم عندما فاجأه ملك الوحى فى حراء) ؛ ومما لاسبيل الى انكاره أن الدراسة ـ ولو السطحية ـ تؤكد فساد هذا الزعم ، فالوحى نزل على نبى الاسلام وهو لايدرى أنه سيكون نبيا رسولا ، وان الوحى فاجأه بأول آيات القرآن وهو ينكر أنه يقرأ ، وظل لا يدرى عن أمر قيامه بالرسالة حتى أمر بها ، يشهد بذلك القرآن ويشهد بذلك معاصروه فمن أين جاء هذا القول السخيف بأنه كان ينتظر الرسالة ؟ .

ومما يؤكد أن الله كان يعده لهذه الرسالة ـ شأنه فى ذلك شأن غيره من الرسل السابقين ـ أنه عرف بين قومه بالخلق الحميد ، كان أمينا فأطلق عليه قومه الأمين ، وصرف عن عبادة الأوثان كما كان يفعل أهله وقومه ، وكان أوصل الناس رحما حتى أحبه قومه ، وكان أشد الناس تمسكا بالحق ، بعيدا كل البعد عن اللهو واللغو ، اشتهرت عنه هذه الخصال قبل أن يبعث الى الناس كافة رسولا ، الى حد أنه رغم صغر سنه رضيت قبائل قريش أن تحكمه فى أمر من أخطر أمورها آنئذ ، حكمته حين اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود فى بناء الكعبة ، التى هدموها وأعادوا بناءها ، بسط ردائه ووضع هو الحجر الأسود فى الرداء وأمسكت كل قبيلة بطرف من الرداء وحملوا الرداء الى موضع الحجر الأسود فأخذه من الرداء ووضعه فى مكانه ، وانتهت مشكلة كادت تثير الحرب والشر بين قبائل قريش ، ولولا شهرته بالخلق الكريم وعقله الراجح لثار الشر بينهم فىعصر كان فيه العرب يثورون لأتفه الأسباب ، فما بالك ببناء الكعبة التى كان يحج اليها العرب ، والتى لو فازت قبيلة بوضع الحجر الأسود لكان لها شرفا تتحدث به الركبان ؛ كان محمد بن عبد الله كريم الخلق والنفس طاهر الذيل ، لم يعرف عنه شىء يفسد النفس أو العقل أو يثير الشبهة فى خلقه ، ومن ثم قال بحق « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، ووصفه القرآن بقوله (**وانك لعلى خلق عظيم**) . وفى قوله (**ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**) .

ظل يجاهد فى مكة بعد أن أمر بالرسالة ، يدعو الناس الى عبادة الله والى الاسلام ثلاثة عشر عاما ، يلقى فى أثنائها من العنت والظلم والجور والعسف ما كان يتحمله راضيا بربه ، مجدا فى أداء رسالته ، ويلقى معه أصحابه وأتباعه أضعاف ما يلقى من صنوف العذاب فلا يزيدهم الااصرارا على الاسلام والايمان بالله ، ثم هاجر الى المدينة ، وانتقلت الدعوة الى مرحلة هامة فى تاريخها ، دخلت فى دور العزة شيئا فشيئا حتى آمن بالاسلام الكثرة فلم يغير النصر والعزة من خلقه شيئا ، وظل مثالاللبشرية

حتى انتقل الى جوار ربه والاسلام قوى عزيز ، آيته الكبرى القرآن ، يهتدى به المسلمون فى أمور حياتهم ، مستعينين بالسنة ـ وهى ما صدر عن النبى من قول أو فعل ، يلجأون الى القرآن ونصوصه التى لاسبيل الى الشك فيها مهما كان شأن هذا الشك ، آخذين بعد القرآن بما صدقت روايته عن النبى ، وهم فى تحريهم عن السنة الصحيحة يأخذون بشروط وقواعد وضعوها لذلك ، وتجدها مبسوطة فى كتب أصول الفقه ومصطلح الحديث .

ومن خصائص رسول الاسلام أنه كان أميا لايقرأ ولا يكتب ، وعرفه كذلك معاصروه وتنطق بذلك سيرته ، ويشير الى ذلك القرآن (الاعراف ١٥٧ ، ١٥٨) قال تعالى **(الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ، قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)** ، ويشير أيضا الى ذلك (الجمعة ٢) قال تعالى **(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين)** ، ولكن على الرغم من أن أمية رسول الاسلام قاطعة بالدليل التاريخى البات الا أن الأستاذ جيوم المستشرق الانجليزى لايخضع لمناهج البحث ولا يستسلم للأدلة الثابتة ، ويذهب فى كتابه الاسلام الى أن رسول الاسلام كان يقرأ ويكتب وأنه كان ينقل عن أهل الكتاب ما كان يتلوه على العرب ، مرددا بذلك دعوى قديمة معاصرة ، ابتدعها خيال أعداء الاسلام والنبى ، وأوردها القرآن (الفرقان ٤، ٥) قال تعالى **(وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا)** ، ومن عجب أن الأستاذجيوم يذهب الى ما أسقطه قائلوه وأسلموا وآمنوا بمحمد رسولا وبالقرآن كتابا من عند الله ، ولو أن ما قالوه فيه رائحة الحق لظلوا على كفرهم بالقرآن وبالرسول ، دع ذا وانظر الى كلمة اكتتبها فهل هى قاطعة الدلالة اللغوية على أن الرسول كان يكتب ؟ أما الاستعمال اللغوى والمفاهيم فتنفى ذلك نفيا باتا ، وكل ما يمكن فهمه أنها تدل على احتمال أنه يكتب أو أن غيره كتب له ، فاذا كان القرآن يعبر صراحة بأمية الرسول ، ولم يجحد أحد من معاصريه هذا الوصف له ، رغما من جد أعدائه وراء سوق الدعاوى

والأكاذيب ، فيتحتم على هـذا الباحث أن يأخذ بالمعنى أو بالدلالة التى تتفق والواقع .

وقبل أن نختتم هذه الكلمة الموجزة أريد أن أشير الى أن بشرية محمد صلى الله عليه وسلم ينص عليها القرآن ويؤمن بها أتباعه ، والفرق بينه وبينهم يبينه القرآن فى قوله ١٨/١١٠ **(قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)** . ويشير النبى الى هذه الحقيقة فى قوله **(انما أنا بشر اذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر ــ هذه رواية نافع بن حديج أما رواية عائشة ــ أنتم أعلم بشئون دنياكم)** . وفى التنزيل ٣٣/٤٠ **(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما)** .

وأشير أيضا الى حقيقة أخرى ، هى فساد ما زعم أحد المستشرقين أنه نبى مرسل للعرب وحدهم ، وهو زعم باطل يدحضه القرآن فى قوله ٣/١٩ **(ان الدين عند الله الاسلام ..)** وقوله ٣/١٠٨ **(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين)** ، وقوله ٣/١٠٤ **(ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)** ، ومناقشة القرآن لعقائد وأديان منتشرة حول الجزيرة العربية ونص القرآن على أنه رحمة للعالمين ، قال ٢١/١٠٧ **(وما أرسلناك الا رحمة للعالمين)** . وهذا يقطع بأنه رسول للناس كافة .

٥ ــ الله عند المسلمين

يدين المسلمون بوحدانية الله ، ووردت سورة تبين ذلك **(قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد)** . ، وأنه لا مثيل له ولا شبيه **(ليس كمثله شىء)** ، محيط بكل شىء ، عالم بكل شىء ، قادر على كل شىء يقول للشىء كن فيكون ، ليس له شريك فى الملك ، ولا اله معه ، هو وحده اله الكون ، رب السماء والأرض وما تحت الثرى . وصف نفسه فى القرآن ومن وصفه قوله تعالى **(الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شـاء وسع كرسيه السـموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم)** . وباختصار يؤمن المسـلم بتنزيه الله تعالى فى ذاته وأفعاله وبتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، ويؤمن أنه وحده الخالق

وان اليه المصير ، وأنه الذى يحيي ويميت وهو على كل شىء قدير ، يؤمن المسلمون بالله وحده دون شريك معه ، ولقد حرص القرآن وجاء الوحى به منزها لله واصفا قدرته وسلطانه وصفاته وصفا لا نظير له فى غير الاسلام من حيث بيان سلطان الله وقدرته وتنزيهه ٠

هذا التنزيه لذات الله من أي شريك هو الذى نلحظه فى مناقشة القرآن للمسيحية واليهودية ، نعى على المسيحية اتخاذ عيسى عليه السلام الها ، قال ٥/١١٦ ، ١١٧ **(واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد)** ، وقال ٥/١٧ **(لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير)** ٠ وهذا الاعلان بالكفر لمن يؤله المسيح نجده أيضا فى السورة نفسها ٥/٧٢ ، ونعى على المسيحية قولها ان الله ثالث ثلاثة ٥/٧٣ **(لقد كفر الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم)** ٠ وقوله ١٩/٣٥ **(ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون)** ٠ وقوله ١٩/٨٨ - ٩٣ **(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، ان دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا)** ٠ والآيات التى تنفى نسبة الولد الى الله كثيرة فى القرآن ، نذكر منها أيضا قوله تعالى ٩/٣٠ ، ٣١ **(وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون)** ٠

ومما يجدر بالذكر اشارة القرآن الى أن جعل الرسول هو ابن الله انما هو تشبه بعقائد قديمة سبقت الديانتين المسيحية واليهودية ، ولقد أشرنا اليها وعرضناها ، كانت فى بابل وكانت فى فارس وكانت فى

غيرهما ، وهذه الاشارة من أخص الدلائل الدراسية التى تلفت النظر اليها على أن القرآن لم يأت به رسول الله محمد بن عبد الله من معارف تعلمها على نحو ما يزعم المستشرقون ، وانما هو وحى جاءه ما كان يعرف مثل هذه العقيدة القديمة قبل أن يوحى اليه بها .

ان دعوى القرآن فى قول المسيحية عن الله وفى قول اليهودية فى عقيدتها أنه نتج عن تحريف ما أنزل اليهم ، قال ٢/٧٥ **(أفتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)** وقال ٢/٧٩ (فويل للذين يكتبون الكتاب **بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)** . وتجد الاشارة الى هذا الأمر مثبوته فى القرآن ولقد ذكرنا هاتين الآيتين على سبيل المثال .

وتنزيه ذات الله بينت فى القرآن بصور مختلفة ، منها الدعوة الصريحة ومنها القول بأن الله لم ينزل على رسله سوى أنه اله واحد منزه عن الشريك والولد ، ومنها تحريف ما أنزل الله على رسله ، ومنها الدعوة الى عبادته وحده ، ومنها دعوة أهل الكتاب الى كلمة سواء لا يختلف فيها اثنان ، قال ٣/٦٤ **(قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)** .

لا أريد أن أختم القول فى هذه الكلمة دون الاشارة الى مسألة عامة ، هى أن الاسلام لم ينشىء نظاما دينيا على نحوماهو قائم فى اليهودية أو المسيحية ، ذلك لأنه يبين ألا واسطة بين الانسان وربه ، قال تعالى ٢/١٨٦ **(واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون)** . ويؤكد القرآن هذا المعنى وهو يتحدث عن صالح عليه السلام ١١/٦١ .. **ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب)** . نعم للمسلمين علماء بالدين ولكن ليس لهم سلطان على المسلم ، والمسلم مطالب أن يعرف دينه ، كل ما لهم هو أن يبينوا للناس ما يجهلون ، أما الصلة بين المسلم وربه فقائمة بين المرء وربه مباشرة دون وساطة رجل دين فلا بشر سواء أكان من علماء الدين أو من غيرهم أو حتى نبى الاسلام نفسه يتوسط ، لا عائق فى الاسلام بين الانسان وخالقه وكذلك لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق كما قال نبى الاسلام .

٦ ـ عقيدة المسلم

يتحتم على من يكون مسـلما أن يشهد بألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن يؤمن بالكتب المنزلة من عند الله وبرسله وملائكته واليوم الآخر والحساب والجنة والنار ، وينبغى عليه أن يصلى الأوقات الخمسة وأن يؤدى الزكاة وأن يصـوم رمضـان وأن يحج الى بيت الله بمكة اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، وينبغى عليه أن يحرم على نفسه ما حرم الله وأن يحلل لنفسه ما أحله له الله ، وهذه المحرمات والمحللات مبينة بالتفصيل فى القرآن •

ولقد انقسم المسلمون الى ثلاث طوائف كبرى سنة وشيعة وخوارج، ولكنهم جميعا يؤمنون بهذه المبادىء المذكورة ، واختلافهم نتج عن اختلاف رأيهم فى الامام أو الحاكم ، وهو اختلاف فى حقيقة الأمر سياسى لا دينى ، وان نظر اليه الشيعة على أن الاعتقاد بعقيدتها فى الامامة لون من التدين. أما الطوائف التى تخرج عن هذه المبادىء فليست من المسلمين وان ادعت انتسـابها اليه زورا وبهتانا كغـلاة الشيعة والرواقض وغلاة الخوارج وكبعض الطوائف المعاصرة التى مزجت عقيدة الاسلام بعقائد أخرى غريبة عنه تخالف تعاليم القرآن كالبهائية وغيرها •

فالقرآن عند المسلمين جامع لما يتحتم الايمان به وما ينبغى أن يتبعه المسلم وينتهى عنه ، والسـنة مفسرة أو مبينة أو مفصـلة لأمر ورد فى القرآن مجملا • ومفروض على المسلم العمل بما فى الكتاب والسنة ، والا لم يكن مسلما •

فهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الفصل الثاني ـ عقائد وديانات الأمم المتحضرة القديمة

أولا ـ العقائد المصرية القديمة

ثانيا : العقائد فى أرض الرافدين (العراق)

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧١/٤٨٥٩


Bibliotheca Alexandrina
02297563